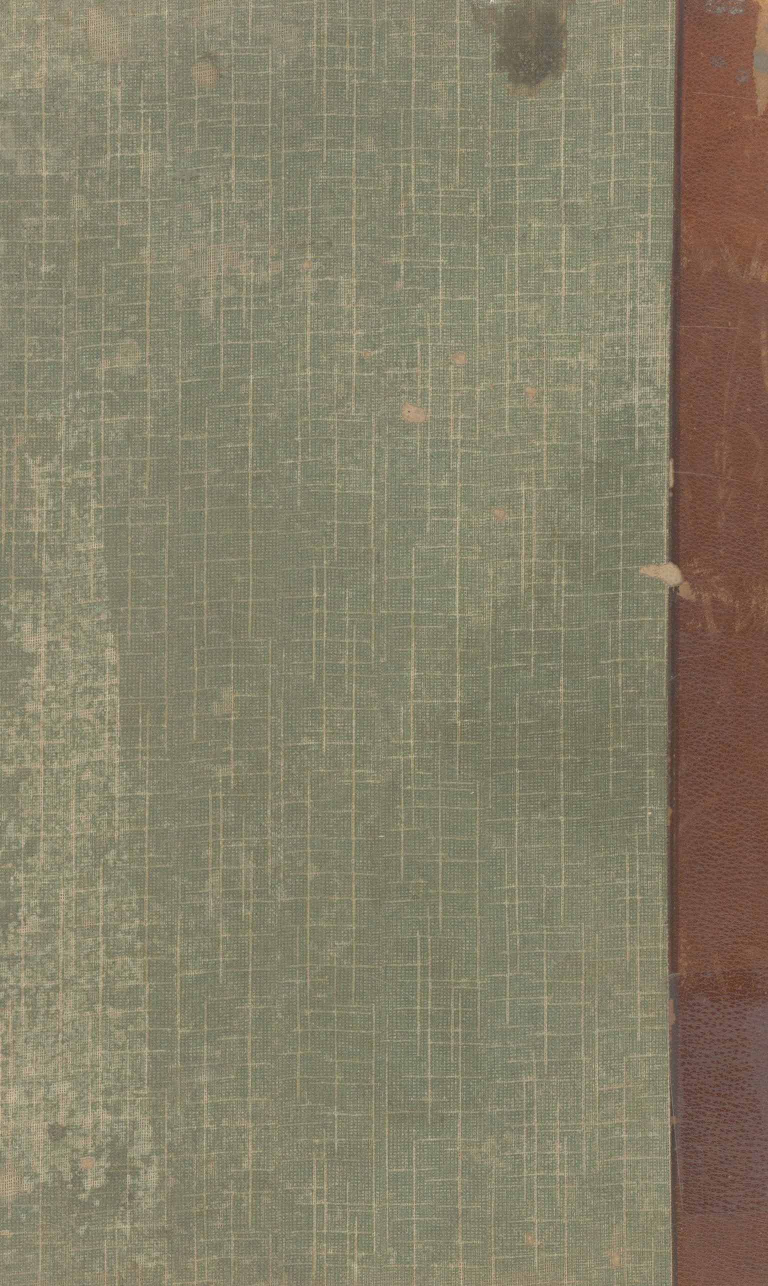
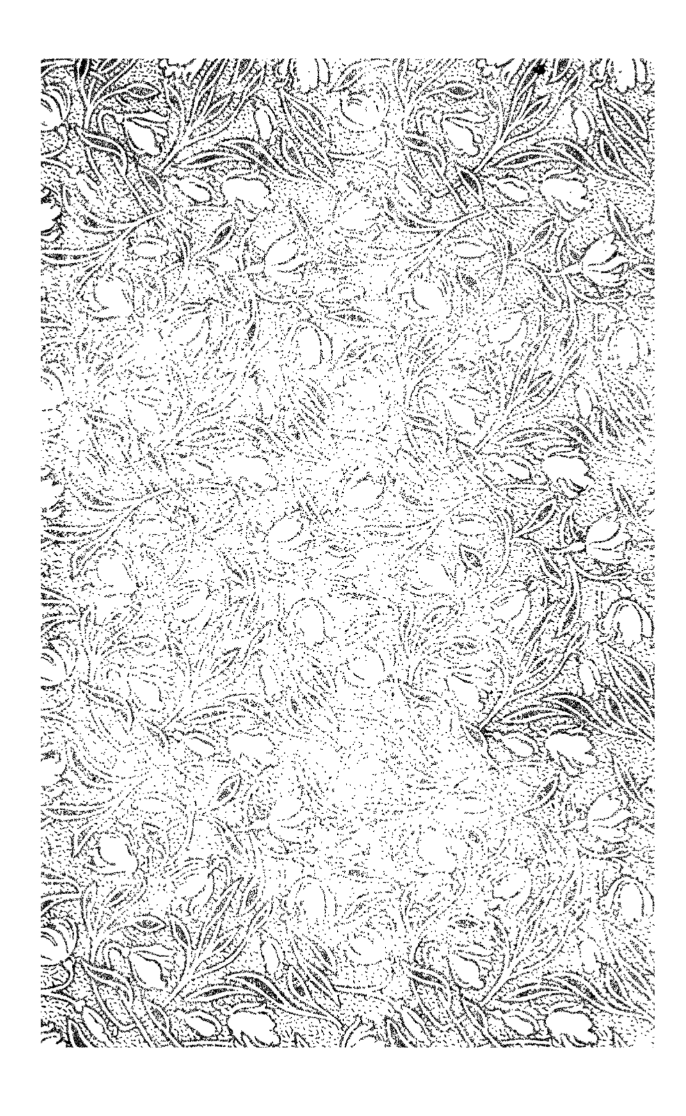
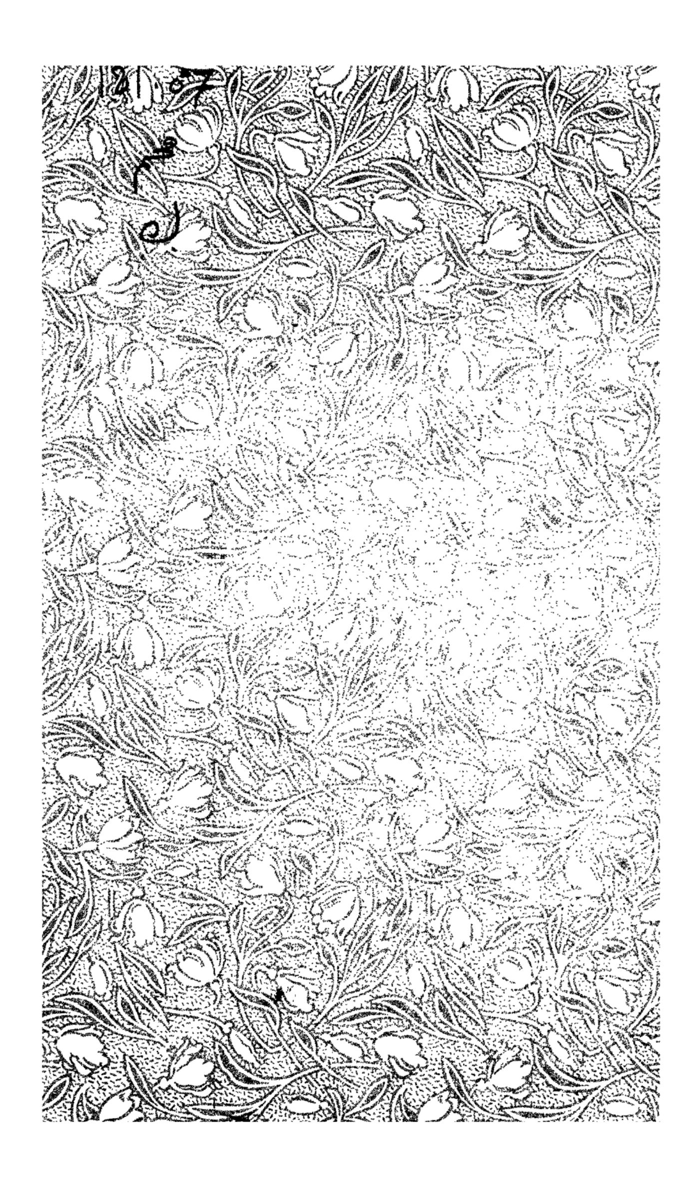






كتاب

الفلسفة العربية والأخلاق

وهو ملخص الدروس التي ألقاها

سلطان بك محمد

بالجامعة المصرية التي يرأسها صاحب الدولة والاقبال

الامير الجليل

البرنس احمد فؤاد باشا

نجل ساكن الجنان المرحوم اسماعيل باشا

خديو مصر الاسبق



في الفلسفة العربية

مطبعة المعارف بشارع الفجالة بمصر

فهرست كتاب الفلسفة العربية

لمؤلفه

سلطان بك محمد

صفحة

صفحة

صفحة

بسم الله الرحمن الرحيم

أللهمَّ اليك وجهتنا . يا من تفردت بالحمد على السرّاء والضرّاء وسخرت العوالم لأبناء النواسيت لينالوا سعادتهم الفانية والباقية صلِّ وسلم على من بعثتهُ ليتمم مكارم الأخلاق وعلى عامة الأنبياء والمرسلين . وبعد فقد رجونا للجامعة المصرية نجاحاً وفلاحاً في تثقيف عقول أبناء الأمة المصرية والنهوض بهم الى أوج الحضارة كيف لا والقائم بأدارتها صاحب الدولة والإقبال الأمير الجليل فؤاد باشا نجل ساكن الجنان المرحوم اسماعيل باشا خديو مصر الأسبق وهو فرع زاهر من تلك الدوحة العلوية التي شملت مصر بركاتها وأظلتها رعاياتها وقد رأينا من عناية دولته بنشر العلوم في هذه الدارة ما يحقق لمصر آمالها ويجمل أحوالها وذلك برعاية اميرنا الاكرم عباس باشا حلمي خديو مصر المعظم سدد الله الى الصواب رأيه وأنفذ في الحق أمره ونهيه وحرسه بعينه التي لا تنام وحاطه بوقايته التي لا ترام وحفظ انجاله الكرام انهُ سميع الدعاء

هذا ولما كنت ممن عهد اليهم بالتدريس فيها شرعت في كتابة ما ألقيهِ من بعض مباحث الفلسفة والأخلاق الاسلامية راجياً من ذي الفيض المطلق ان يوفقني الى الصواب في البداية والنهاية وان يجعل العسير لديَّ يسير — رب يسر ولا تعسر رب تمم بالخير —

سلطان محمد

اعلم ايها الناظر في الانسان الباحث عن خصائصه قد يضح لك ان فيهِ شيئاً مبايناً للجسم وأعراضه وأفعالاً تضاد أفعاله وخواص تضاد خواص أعراضه

أرأيت ان الجسم من حيث كونه جسماً لا يقبل إلا شكلاً واحداً فاذا كان شكله التثليث لا يقبل التربيع والاستدارة التامين الا اذا زال شكل التثليث بالكلية كما تشاهده في قطعة من الشمع أو الطين مثلاً وكذلك اذا صوّرتهُ بصورة مخصوصة لا تراه يقبل صورة أخرى تمام القبول الا اذا زالت صورتهُ الأُولى انظر الى قطعة ذهبية صورتها صورة خاتم تراها لا تقبل صورة قرط الا اذا أزلت صورة الخاتم وترى الانسان تعرض له صوَر الأَشكال المختلفة المتباينة وتحصل له مجتمعة بل كلما حصلت له زاد استعداداً لقبول غيرها

رأيت الحرارة اذا حصلت لجسم لا تعرض له البرودة الا اذا زالت تلك الحرارة وكذا الملاسة لا تعرض له الا اذا زالت الخشونة ولا يعرض له لون من الأَلوان اذا سبقهُ لون آخر الا بعد ذهاب ذلك اللون الآخر فهل رأيت هذه الخاصة التي للأَعراض ثابتة لذلك الشيء الذي في الأنسان انك لا تنكر انه قد يدرك تلك الأعراض وتحصل لها متبايناتها معاً وذلك يزيده قوة في حصول تلك الأعراض لديه اذا أنصفت وسلمت ما قلناه فاعلم أن ذلك الشيء هو النفس الناطقة وانها ليست بجسم ولا عرض

أراني أسوق لك تلك الأدلّة الواضحة على ان نفس الانسان ليست جسماً ولا عرضاً وأنت في ريب من ذلك بما يقرع سمعك من أقوال العلماء بأن وجود تلك المدركات لدى النفس الانسانية ذلك الوجود الذي

يترتب عليه أن يقال انهـا عالمة له انما هو وجود ظلّي ذهني تسلب عنه اللوازم الخارجية لتلك المدركات ألا ترى نفسك أنك تدرك اجتماع النقيضين والحمرة والسواد معاً والنار بدون ان تحس بحرارتها والثلج بدون أن تحس ببرودته وما ذكرته في الأجسام وعروض الأشكال المختلفة لها والاعراض المتباينة وعدم اجتماع احدها مع الآخر انمـا هو في الوجود الخارجي لا الذهني الظلي فلا يتم لك التقريب ولو فطنت ارشدك الله الى الصواب لعلمت ان هذا حال ما ليس بجسم ولا عرض فان اتصافه بالاشياء وعروضها له لا يتأتى الا على هذا النحو والا كان جسماً قابلاً لان يكون ذا شكل لا يقبل غيره الا بعـد زواله كما هو شأن الوجود الخارجي وكذا القول بالنسبة للأعراض

انظر ايضاً في المدركات تجد انها تدرك اشياء لا تدركها المشاعر الخمسة كاجتماع النقيضين والحكم على المحسوسات بالتماثل او التباين تراها ايضاً تدرك المعاني الكلية المنتزعة من الجزئيات المدركة بواسطة تلك المشاعر كل هـذه الاشياء ليست من المحسوسات حتى تدرك باحدى الحواس الخمسة قد تحكم بخطأ الحس في مدركاته متى قام لديها البرهان القطعي ألا ترى ان الشيء الذي في قاع الماء يرى كبير الحجم وان البعيد كالشمس يرى صغيراً وكذا في بقية المحسوسات واراك تعاضدني على ان هذا الحكم لا تأخذه النفس من الحس فان من المعلوم ان الشيء لا يضاد نفسه

اذا لم تقنع بهذا فاليك بياناً آخر :

انت تعلم ان الجسم الحيواني لا يحصل له العلم الا بواسطة قواه

الجسمية التي هي مشاعره الخمسة السمع والبصر والذوق والشم واللمس ولا يميل إلا الى تلك المعارف التي تتوقف عليها بشرائطها الخاصة من المشابكة والملامسة والاضواء وتحديد الابعاد وارتفاع الحوائل مما هو من خواص الاجسام وان ذلك الجسم يشتاق اليها ويزداد بها كماله لانها ملذته واسباب وجوده وبقائه وذلك كالشهوات البدنية من الغذاء وغيره من المحسوسات وترى النفس اذا لم تنقطع لذلك واشتغلت بالعلوم العقلية والاخلاق الملكية الفاضلة طربت طرباً روحياً وصفت صفاء خالصاً من الملاذ البدنية ونفذت الى ادراك الحقائق حيث زالت حجب الشهوات الجسمية الظلمية تعلم من هذا انها جوهر آخر خلاف الجوهر الجسمي الحيوي

لا اراك بعد هذا البيان إلا قائلاً بان النفس جوهر مباين للجسم ولأعراضه (١)

اذا اطمأنت نفسك لذلك فاعلم ان لكل موجود قوى وملكات وافعالاً بها يصير ذلك الموجود هو وبها ايضاً يتميز عما عداه وله قوى وملكات يشارك فيها غيره ومعلوم ان الانسان من حيث هو انسان من ميزه الخاصة به العلم ولذا كان مفطوراً على طلب معرفة حقائق الموجودات واحوالها وارجاعها الى اسبابها الحقة ألست تعلم ان الطفل يسأل عن حقيقة ما ينظره وعما يعرض له وعن سبب طروء ذلك العارض وكذا الحال بالنسبة لجميع مدركاته وقد بان لك ان من الواضح ان كمال كل موجود انما هو كائن ببلوغه الدرجة المناسبة المخصص لها فلا يمدح السيف

---

(١) براهين تجرّد النفس ظنية تكلم فيها

إلاّ بعضائه وجودة نصله لا بحليته وحسن قرابه ولا يكون الفرس كاملاً مرغوباً فيه إلاّ بسرعة عدوه لا بحسن سرجه وضخامة جسمه فالانسان ذو النفس الناطقة لا يبلغ درجة كماله إلاّ اذا حصل على خصائص تلك النفس من علم حقائق الموجودات وما لها من الاحوال وتخلق بفضائل الاخلاق والاّ كان من افق الحيوان ليس له الا الغذاء والاحساس والنموّ والحركة وحمل الاثقال الى غير ذلك من صفاته

قال تعالى أفمن يعلم كمن لا يعلم — هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون وورد اذا أتى عليَّ يوم لا أزداد فيهِ علماً يقربني الى الله عزّ وجلّ فلا بورك لي في طلوع شمس ذلك اليوم

قالت الحكماء ان النفوس الناطقة انما تنزلت الى هذه الاجسام الطبعية الظلمية وارتبطت بها ارتباط الآمر بالمأمور لتستعين بما فيها من مشاعر إدراك المحسوسات الجزئية على ادراك الحقائق الكلية منتزعة من تلك الجزئيات

ومن ثم اقتضت الحكمة الالهية ان يكون البدن خادماً مسخّراً لها وهي حافظة له ألا ترى انها اذا تصورت أمراً منافراً بدا ذلك على أعضائه فتشاهد تقطيب الوجه والدفع واللكم والابتعاد كما انها لذا تصورت أمراً ملائماً ظهرت آثاره عليها من البشر واللين والقرب فاذا تم لها ما تعلقت بالجسم لأجله من العلوم وفارقت البدن بقيت منعمة بحصولها على معشوقها ومطلوبها واذا ظلمها الانهماك في الاحوال الجسمية ان تدرك شيئاً من تلك الحقائق التي هي من خصائصها بل حيل بينها وبين ذلك الادراك بالحجب البدنية والشهوات الجسمية التي أبعدتها عن معرفة ذلك المحبوب

وعن مقدار ما يعرض لها من اللذة بالوصول اليهِ كانت بعد مفارقتها الجسم غير ملتذة ولا متألمة لأن ألم مرارة البعد والحجب لا يكون الا بعد ذوق حلاوة القرب والانكشاف قال الشاعر

غربت منكم شموس التلاقي فبدت بعدها نجوم المآقي
أخبرتنا حلاوة القرب منكم ان هذا البعاد مرُّ المذاق

واذا حصل لها ادراك بعض الحقائق وعاقها عائق الانكباب على خصائص الحيوان عن الاستكمال من ذلك بقيت بعد مفارقة البدن في ألم من عدم الوصول الى ذلك المحبوب الذي ذاقت لذة قربه فتبقى في غصة وعذاب أليم ولذا ورد اكثر أهل الجنة البله وعلى هذا فالبلاهة خير من فطنة بتراء

ذلك معنى الميعاد الروحي الذي قالتهُ الفلاسفة من هنا بان لنا ان بني الانسان انما يتفاضلون بالمعرفة لا بالثروة او الجاه ولا حاجة بنا الى اطراء العلم وبيان انهُ اللذة الحقيقية للانسان وان ما عداه من اللذات انما هو دفع ألم لا غير فلذة الشرب دفع ألم العطش ولذة الأكل دفع ألم الجوع الى غير ذلك

اذا تقرر هذا فاعلم ان الفلسفة علم بأعيان الموجودات وأحوالها على ما هي عليهِ بقدر الطاقة البشرية وتلك الاحوال اما ان تكون أعمالاً لنا في ايجادها اختيار وارادة والعلوم الباحثة عنها تسمى بالفلسفة العملية (وتسمى في عبارات المتقدمين من الفلاسفة بالفلسفة الادبية) وأقسامها ثلاثة لان تلك الاعمال اما ان تكون للانسان في نفسه والعلم الباحث عنها يسمى بعلم تهذيب الاخلاق أو له ولمن انتظم معهُ في المنزل والعلم

الباحث عن ذلك يسمى فن تدبير المنزل أو لهُ ولمن معهُ في المدينة ومباحثه تسمى بعلم السياسة المدنية وأما ان يكون غير ذلك وتسمى مباحثه بالفلسفة النظرية لتعلقها بالنظر والفكر لا غير بحيث لا يقصد بها الا كمال النفس الانسانية بمعرفة حقائق أعيان الكائنات وأحوالها دون العمل بخلاف العملية فان الغرض منها تلك المعرفة والعمل على مقتضاها

وهذه الفلسفة تنقسم الى أقسام ثلاثة أيضاً لأن ما ليس عملاً باختيارنا أما ان يكون أعياناً او أحوالاً لها لا دخل لإختيارنا في ايجادها وهذه اما ان تفتقر الى المادة في التصور والوجود معاً بحيث لا نتصوّرها الا مقارنة للمادة ولا توجد خارجاً الا كذلك كتركب الجسم من الهيولى والصورة وتحيزه وبساطته او تركبه من أجسام مختلفة الطبائع نحو كربونات الجير وكبريتات البوتاسْيُم الى غير ذلك من خواص الأجسام الطَّبَعية ومباحث هذا تسمى بالعلم الطبعي او بالعلم الأدنى لأن الحكماء كانت تبدأ بهِ في تعليم النشء لأنهُ علم بالمحسوسات فيكون أسهل ادراكاً وأنسب بتربية عقولهم تدرجاً بهم من السهل الى الصعب النسبي وألحقوا بهذا القسم علم الطب الباحث عن الأجسام من حيث ما يعرض لها من الصحة والمرض وفن الأقربازين وهو الباحث عن الاجسام مختلطة ببعضها او منفصلة من حيث ما يترتب عليها من التأثير في الاجسام صحة او مرضاً وهو المعروف الآن بفن الصيدلة واما ان تفتقر اليها في الوجود دون التعقل كالخطوط والسطوح والاجسام التعليمية التي هي الابعاد الثلاثة الحاصلة من تقاطع الخطوط الطولية والعرضية والسمكية على زوايا قوائم وتسمى مباحثه بعلم الهندسة وكذلك الأعداد وتسمى مباحثة بعلم

الحساب وكذا الاعداد التي تتخلل الاصوات من حيث الطول والقصر وغيرهما المسمى بعلم الموسيقى ومثل ذلك حركات الكواكب سرعة وبطئاً وانتظاماً وغيره والعلم الباحث عن ذلك يسمى بعلم الفلك فان جميع هذه الاشياء لا توجد في الخارج الا مقارنة للمادة وقد يتصورها العقل مجردة عنها ويسمى الباحث عن كل هذه الاشياء المتقدمة بالعلم الاوسط او الرياضي لتوسطه بين الادنى والاعلى الآتي ولأن الحكماء كانوا يعلمونهُ بعد العلم الادنى الذي هو الطبيعي ليروضوا بهِ الاذهان لما فيهِ من تعويد المتعلمين تصور الاشياء مجردة عن المادة والبحث عن أحواله استعداداً لتعقل ما لا يفتقر اليها مطلقاً والبحث عن أحكامه (وها هو) وأما ما لا يحتاج اليها في الوجودين الذهني والخارجي كالصانع جل وعلا والوحدة والكثرة والوجود والعلة والمعلول وتسمى مباحث ذلك بالعلم الإلهي او الأعلى وألحقوا بهِ السمعيات كارسال الرسل وأحكامهم وما يتعلق بالبعث والحشر والحساب والجنة والنار وبعض الناظرين في هذا المقام جعل هذا القسم الاخير قسمين فقال ان ما لا يحتاج في وجودهِ الى المادة أما ان لا يقارنها بحال من الاحوال ويسمى بالعلم الإلهي وأما ان يقارنها في بعض الاشياء دون بعض كما في الوحدة والكثرة والوجود والعلة فانها كما تكون للجسميات تكون للمجردات ويسماه بالامور العامة لعمومها وشمولها الامرين ومما تقدم تعلم انهُ لا يعد من الفلسفة العلم المتعلق بقوانين وقواعد النظر المؤدي الى التصور والتصديق (وهو علم المنطق) بل هو من مقدماتها ووسائلها ومن عرف الفلسفة بغير ما قلناه وقال انها خروج النفس الى كمالها الممكن في جانبي العلم والعمل جعله وغيره منها ومن هنا تفهم سبب ما درج عليهِ

متقدمو الحكماء من بدئهم بالكلام على علم المنطق في تآليفهم الحكمية

قبل التكلم على بعض فلاسفة اليونان نذكر جملة مختصرة عن تلك الامة حتى يكون القارئ على جانب من البصر بحالها

اليونان

اليونانيون قوم من الآريين وفد عليهم أقوام من جنسهم كالهنود والفرس وجاءهم قوم من مصر وبذلك دخل شيء من الحضارة في بلادهم وقد اتسعت مستعمراتهم شيئاً فشيئاً حتى عمت جزر الأرخبيل وجزيرة اقريطش (كريت) وشواطئ آسيا الى بلاد القوقاس شرقاً وجنوباً والى جنوب ايطاليا وفرنسا واسبانيا غرباً وشواطيء أفريقيا جنوباً وكانوا شعوباً يمتاز كل شعب باسم خاص كالآثينيين والاسبرطيين والثيبيين الخ ما هو معلوم وكان بعض رؤساء القبائل يذهب بقبيلته الى قطعة أرض ويملكها ويقوم وقتئذٍ ببناء مدينة لسكنى جميع القبيلة فتبني كل أسرة بيتاً لسكناها ويقام سور المدينة باشتراك الكل فيتم بناء بيوت جميع البلد في زمن يسير وعند اتمام السور يحتفل بهِ احتفالاً دينياً ويبنى هيكل لرئيسهم يقربون فيهِ القرابين ويؤدون له أنواع الاحترام والعبادة ويلقبونهُ بحامي المدينة في حياته وبعد مماته فقامت حكوماتهم القومية كثيرة العدد قليلة المساحة وكان بعض الحكومات يشاهد على مقربة منهُ بناء حكومة اخرى وقد كثرت بينهم الحروب ولذا كانوا عاكفين على المصارعات بانواعها واحتمال المشاق واحكام الضرب والطعن كي يعتادوا خوض المعامع ولا تكل سواعدهم من كثرة العراك والطعان معودين عزف الموسيقى وتوقيع الأناشيد

الحماسية المشتملة على بالغ المدح في أبطالهم ومعبوداتهم وكثرة التخيلات فعظمت لديهم ملكة الشجاعة وقوة التمثيل ومع ما هم فيهِ من الخصام والضراب كانوا يداً واحدة على من يناوئهم من الأمم الأخرى يرشدك الى ذلك اتحادهم في محاربة الفرس ومقاومة فيليب المقدوني حين أراد الاستيلاء على بلادهم ولم تكن يونان حكومة واحدة الا بعد تغلب فيليب وكذلك ابنه الاسكندر وعقيب موت الاسكندر المذكور خلفه في الحكم قواده ثم لم يلبثوا ان ملكهم الرومان وانقسمت تلك الدولة الى شرقية مقرها (بيزانتيوم) الاستانة وغربية مقرها رومة ثم تغلبت على الرومانية الشرقية الدولة العثمانية وانقادت يونان لحكمها وبقيت كذلك نحواً من ٤٠٠ سنة وفي سنة ١٨٢٧ استقلت تحت حكومة أحد امراء باقاريا

الديانة اليونانية

أخذ اليونان شيئاً من ديانة الصابئة وخلطوا فيها خلطاً كثيراً فلم يقتصروا على تمجيد الكواكب بل تخيلوا لكل نوع من فوائد الكائنات العامة الهاً فكانوا وثنيين بهذا الاعتبار ولشدة تخيلهم مثلوا هذه الأرباب باشكال البشر وجعلوا لها فضائل ورذائل كما للانسان وانهُ يرضيها ويحملها على اعانة من يطلب منها الاعانة زيادة القرابين وكثرة الهدايا والتحف والثناء كما يحملها على الانتقام أضداد ذلك ومن معتقداتهم ان تلك الآلهة تجتمع فوق جبل الاولمب (وهو جبل عالٍ في شمال يونان ذو قمم مكسوة بالثلج) ويلتئم منها مجلس يرأسهُ المعبود ذيوس (المشتري) وتتفق على اجراء الشؤون الكونية ويزعمون ان كبار الآلهة هم الذين يجتمعون فوق

هذا الجبل دون سواهم وعدد اولئك الآلهة كثير نذكر ما اشتهر منهم جوبيتير وهو ملك السماء ونبتون إله البحر وأُبلون إله الشعر والموسيقى والفنون الجميلة ورئيس الوحي في دلفيس وهو ابن جوبيتير وسائق مركبة أبيهِ التي هي الشمس تجرها أربعة من الخيل المسرجة تسير بها حول العالم كل يوم ومركور إله التجارة والفصاحة وذيوس (المريخ) إله الحرب وعطارد إله اللصوص والزهرة إلهة الجمال وهي على صورة امرأة حسناء وديانة إلهة القنص الى غير ذلك وكانت الآلهة عندهم ثلاثة أقسام آلهة السماء وتسكن فيها ومنهم جوبيتير وهو رئيسهم وأُبلون والمريخ وعطارد والزهرة وغيرها وآلهة البحار وهي ساكنة فيها ورئيسهم نبتون ولهُ مركبة في شكل صدفة بحرية عظيمة تجرها خيل أذنابها كأذناب الأسماك وآلهة الأماكن السفلى تحت الأرض وتسكن الأحراش والينابيع ومجاري المياه واسم رئيسها بلوتو ولهم ايضاً انصاف آلهة وهم قوادهم الذين اشتهروا لديهم بحسن القيادة وحماة مدائنهم وغيرهم ممن برعوا في الأشياء الممدوحة لديهم حتى عدوا من ذلك البارعين في الشرور والرذائل وزعموا ان للآلهة أقارب وأحباء كما للانصاف كذلك وانهم يغضبون من بعضهم وينتقم أحدهم من الآخر كما هي حالة البشر وان أرواح الآلهة الكبيرة والصغيرة تغيث من استغاث بها من أقاربها وعبادها وتحمي مدائنهم وذمارهم وقد شاهدوا على زعمهم بعض القواد وحماة المدائن في الحروب بعد موتهم على حالة غريبة في تلك المواقع ونسبوا اندحار الأعداء المحاربين اليهم كما هو مسطور في أشعارهم وقد أُسس للآلهة المشتركة بين عموم اليونان دون الخاصة بابطال كل قوم وحماة كل مدينة معابد وهيا كل يتقرب اليها كل فرد من

افراد اليونانيين كمعبد أبلون في دلفيس شمال أثينه فانهُ كان كعبة لكل قاصد وعرّافته التي تنبئ بالغيب من يطلبهُ منها تسمى (بيسيا) كانت عند ما يطلب منها ذلك تستحمّ في حمام مقدس وتجلس على شق من الأرض يخرج منهُ نسيم آتٍ من مغارة في ذلك المعبد فعند ما تجلس فوق ذلك الشق وحولها الكهنة ويخرج عليها النسيم يعتريها بحران وتتلفظ بكلمات مقطعة فينظمها اولئك الكهنة أشعاراً جواباً لطالب الوحي وكان معبد الرب ذيوس يجيب دعاءَ المطرين بدوي أشجار البلوط المقدسة التي بجوار معبده وبالجملة فكانت خرافاتهم في ذلك كثيرة سهل اعتقادها ما نما لديهم من قوة التخييل بواسطة عنايتهم باشعارهم الخيالية وكانوا كل أربع سنوات يذهبون الى جبال الاولمب ويلعبون الألعاب الرياضية ويقربون القرابين لمعبوداتهم مدة ٥ او ٦ ايام وقد أرخوا بتلك الألعاب وأولها كان في سنة ٧٧٦ ق م تقريباً ولم يتعلموا الكتابة والقراءة الا في القرن الثامن ق م

الكلام على بعض مشهوري فلاسفة اليونان

سقراط

ولد هذا الفيلسوف بجوار اثينة في قرية صغيرة تسمى (أولو بيس) سنة ٤٦٩ ق م وعاش نحو ٧٠ سنة وهو من أهالي اثينة ونشأ من أب نقاش وام قابلة فتعلم صناعة النقش من أبيه ثم تاقت نفسه الى التحلي بالعلوم الفلسفية فاخذ عن فيثاغورس وغيره من فلاسفة ذلك الوقت وقد أوذ س منهُ ميلاً واقبالاً على التعليم وذكاءً نادراً ثم عني بالفلسفة الادبية حتى بلغ

فيها مبلغاً لم يصل اليه من سبقهُ من حكماء اليونان فاجاد القول فيها شرحاً وتهذيباً وترتيباً لما رآه من أن رقيّ المجتمع انما هو بالعلم بها والعمل على مقتضاه لا بمعرفة الفلسفة النظرية ولما عظم فضله وعرف بين قومه اختاروه عضواً في مجلس شوراهم فكان رائده في أقواله واحكامه العدل وفوائد شعبه وقد نشبت الحرب بين قومهِ الآثينيين والاسبرطيين وكان قائد المراكب الحربية البحرية من قبل اسبرطا ليسأندر فغلب القواد البحريين الآثينيين وانتصر عليهم فعدّ اليونانيون ذلك خيانة منهم فحوكموا أمام ذلك المجلس الشورى فحكم عليهم بالاعدام ولم يرَ سقراط ان من العدل عدم الحكم عليهم وباعدامهم فقد الآثينيون مهرة قوادهم ولذا أسخط هذا الحكم كثيراً من الشعب اليوناني واستعقب موت اولئك القواد استيلاء ليساندر على أثينة وترك سقراط مجلس الشورى لما رأى من تقلب حال أمته وانتقاض أمرها وقد حملت شهرته وعلوّ صيته قومه على ان يلحوا عليهِ في أمر الزواج لأنهُ كان من عادتهم ان يكون للرجل العظيم منهم نسل حتى يأملوه ان يقوم بمنافع الشعب كما قام أصله فأجابهم الى ذلك وتزوج بامرأة سيئة الخلق اسمها (زنتيثة) وعانى من أخلاقها ما لا يطيقهُ غيره ولما سئل عن سبب تزوجها دون غيرها من فضليات النساء قال آثرت الزواج بهذه على غيرها لأعتاد تحمل أخلاق الناس متى تحملت أخلاقها وكان يقابل سوءخلقها بالصبر والاغضاء وأعقب منها ولده (طنبورقليس) وولدين آخرين

لما اعتزل سقراط مجلس الشورى وتبدلت الأحوال في أثينة وفسدت الطباع اشتغل بتقويم أخلاق شعبه وأقبل على التعليم إقبالاً كلياً ولم يكن ذلك في محل خاصّ بل كان يخرج الى الأزقة والشوارع ويبتدئ

بالتعليم على طريق المحاورة بالأسئلة والأجوبة كما هو شأنهُ فيهِ فيلتف حوله الشبان ويجيد القول ويحكمهُ شرحاً وايضاحاً بهذه الطريقة وكان من عادته ألا يأخذ جعلاً على ذلك مع ما كانت عليهِ زوجته من مشاجرته من جراء عدم أخذ الأجر وقبول الهدايا من تلاميذه وكثيراً ما كان يقول عجباً لمن صناعته تعليم الأخلاق كيف يخطر له ان يتخذ ذلك مغنماً أفلا يكفيهِ على اعتنائه ان ينيب اليهِ أنهُ أصلح حال انسان وانهُ اغتنم من تلاميذه محباً له أفلا يكون هذا من أعظم المنافع وأدوم الفوائد!

كثر في ذلك الزمن قوم من السوفسطائيين الذين يدعون الحكمة وينكرون الحقائق وأصبحت لهم المكانة العليا من نفوس القوم وأكثروا من تعليم مبادئهم مقابلة ما يأخذونهُ من الأجر فقام في وجوههم ودحض آراءهم بطريقة السؤال والجواب خدمة لقومه ولإحقاق الحق فأنزلهم من مكان العظمة بعلمه الباهر وطريقته المثلى في الجدال

حالته في معيشته التقشف والرفاهية يلبس القميص الواحد في الصيف والشتاء لا نعل له ومع هذا فكان نظيف الملبس ولو شاء ان يكون ذا ثروة واسعة لكان ولكنهُ آثر القناعة على ذلك ولم يكن حسن الخلقة ولا طلق اللسان بل أ لكنه قبيح الوجه ضيق ما بين المنكبين قصير القامة بطيء الحركة شعث اللحية لم يرضَ لنفسه ان يدعى عالماً بل كان يقول انهُ ساعٍ وراء الحقيقة باحث عنها عني بذلك لما شاهده مسطوراً على هيكل دلفيس (أعرف نفسك بنفسك) طبقاً لقوله تعالى وفي أنفسكم أفلا تبصرون واذا سئل أطرق ثم أجاب اجابة باهرة وكان لين العريكة سمح الأخلاق لم يحضر الوقائع الحربية سوى مرتين آثر البقاء في وطنه

على الاغتراب والسياحة ومعاشرة الأجانب ومعرفة آرائهم لأنهُ رأى ان ذلك لا يفيده كثيراً في تقويم اعوجاج بني شعبه وان الأنجع فيهِ ان يكون بين ظهرانيهم مقبلاً على تعليمهم وانهُ لا يعوزه شيء في الوصول الى ذلك المقصد الأسمى

لما استولى ليساندر على أثينة أوهم أهلها الذين اعتادوا حكومة شعبهم انهُ لا يخرج بهم في الحكم عما ألفوه فجمع لذلك ثلاثين رجلاً من الاسبرطيين ووكل اليهم أمر الحكومة ورأس عليهم رجلين أحدهما (اكرنياس) او (اقرسياس) وثانيهما (خارقليس) ليحرضاهم على قضاء لبانات ليساندر فيما يبرمونه من الآراء والأحكام وكانا ميالين للظلم فكثرت في أيامهم المظالم ولذلك سموا بالثلاثين طاغية ومعنى هذا اللفظ في عرف اليونانيين مرادف لمعنى الظالم فساءهما ما قام به سقراط من التعاليم والارشاد والتشهير باحكامهما وآرائهما حتى قال مرة معرضاً بهما اذا كان راعي البقر ينقص عدد بقره كل يوم ويتركه عجافاً هزالاً *فمن العجب عدم اعترافه انهُ لا يصلح* لرعيهِ ففهما ان سقراط يعنيهما فساءهما ذلك وسنَّ المجلس قانوناً يحظر فيهِ التعليم التحاوري بأثينة ففهم سقراط ان هذا القانون عمل من أجله وان لم يتخذ التعليم حرفة فقاده حرصه على منفعة قومه واصلاح شأنهم الى هذين الرئيسين ليستفسر عن ذلك فخيرهما بتوجيه الأسئلة اليهما الى ان صرحا له بأنهُ منهي بمقتضى هذا القانون عن مخاطبة الشبان فقال لهما الى أي زمن تمتد الشبوبية فقالا لهُ الى ٣٠ سنة فقال لهما ان سألني سائل عن مكانكما أجيبهُ أم لا فقال خارقليس نعم أجبهُ وقال أقرسياس انما أنت منهيّ عن ان يلتفّ حولك الناس الذين كلت مسامعهم من كلامك

فقال لهما ان سألني من اتبعني ما هي الشفقة والانصاف فهل أجيبهُ فاجابهُ خارقليس نعم ورعى البقر ايضاً معرضاً له بما قاله في شأنهما وقال له احذر ان تكون سبباً في نقص البقر ففهم سقراط زائد استيائهما مما قال وانهُ لا يحسن الاتساع معهما في القول بعد ذلك أوغر قلبهما حنقاً من هذا الفيلسوف ذي المكانة العظمى في نفوس الشعب الاثيني وعلما ان الاعتداء عليهِ من غير جريرة يعد في نظر عامة الأمة من اكبر الجرائم قد يستعقب هياج القوم والانتقاض على الحكومة ففزعا الى الإيعاز لمن لا خلاق لهم بازاعة قدح سقراط في الآلهة والحط من كرامتهم والذهاب بالشبان الى التنفير من عبادتهم وتقديم القرابين اليهم حتى أفسد عقولهم

ولما تم لهما ذلك حوكم امام مجلس اولئك الطغاة فقام بالمدافعة عن نفسه احسن قيام واستشهد على بطلان الفرية عليه بآباء اولئك الشبان فقالوا خيراً ووصفوا جميلاً واستدل ايضاً بقول عرافة هيكل دلفيس (مهبط الوحي والانباء الصادقة في معتقدهم) : ان سقراط أعدل وأعقل رجل : ولو كان طعاناً على المعبودات لما قالت ذلك وبتقديمه القرابين للآلهة كغيره وبكثير من اقواله الدالة على احترامهم وتمجيدهم

فلم يسعهم امام تلك الحجج الدامغة الا ان يحكموا عليه بدفع المال عوضاً عن ان يحكم عليه بالقتل فرفض ذلك قائلاً ان قبولي هذا اعتراف مني بالجريمة فشرطوا عليه القعود عما كان عليهِ من التعليم التحاوري في الازقة والطرقات فاجاب بانه لا يستطيع مخالفة ذلك الصوت الداخلي والاحساس الوجداني (وكانوا يسمون ذلك بشيطان سقراط) فتمهد لهم بكل هذا الحكم عليه بالموت بزيادة رأيين وأودع السجن وكثر تردد

تلاميذه عليه فيه وعاق احدهم افلاطون عن الذهاب اليه مع اخوانه عائق المرض وقد زارته زوجته وأولاده فبكت لديه بكاءً شديداً وقالت أيقتلونك ظلماً فقال لها أو يرضيك ان اقتل بحق ولما اقترب اليوم الذي عين لتناوله السم كما كانت عادتهم فيمن يحكمون عليهِ بالموت بكر لزيارته التلاميذ ومن بينهم أقريطون وسيمياس فقال له أقريطون قد اجتهدنا ان ندفع عنك مالاً الى هؤلاء القوم وتخرج سراً فتصير الى رومة وتقيم بها حيث لا سبيل لهم عليك فقال له قد تعلم انهُ لا يبلغ ملكي ٤٠٠ درهم فقال له لم أقل لك ذلك على ان تعطي شيئاً لأنا نعلم ان ليس في وسعك ما طلب القوم ولكن في أموالنا سعة له ولأضعافه وأنفسنا سمحة بأدائه لنجاتك وعدم الفجيعة بك فقال سقراط يا أقريطون هذا البلد الذي فعل بي فيهِ ما فعل هو بلدي وبلد جنسي وقد نالني فيهِ من جنسي ما رأيت وأوجب عليَّ فيهِ القتل ولم يكن ذلك لجريمة ارتكبتها بل لبغضي الجور وطعني على الافعال الجائرة وأهلها والحال التي أوجبت الحكم عليَّ بالقتل هي معي حيث توجهت واني لا أدع نصرة الحق حيث كنت والطعن على الباطل حيث وجدت.

فاذا كان هذا هو الباعث على ما أنا فيهِ بين شعبي وأقاربي وهو معي حيث كنت فكيف الحال بين أهل رومة الذين هم أبعد مني رحماً فقال له أقريطون فتذكر ولدك وعيالك وما تخاف عليهم من الضيعة فقال له الذي أخافهُ عليهم من الضيعة في رومة أكثر منهُ هنا لأنهم ينكم ومعكم فأولى بهم ألاَّ يضيعوا ثم دخل عليهِ القضاة وأزالوا القيد من رجليهِ كما هي عادتهم عند اقتراب إعدام السجين فكشف عن ساقيهِ ومسحهما

وحكمها وقال ما أعجب فعل السياسة الإلهية فقد قرنت الأضداد ببعضها فانهُ لا يكاد تكون لذة الا يتبعها ألم ولا ألم الا يتبعهُ لذة فكان ذلك سبباً لدوران الكلام فسأله سيمياس عن الأفعال النفسية وكثرت المذاكرة بينهم حتى أتى على الكلام في النفس وهو في حال سروره وبهجته ومزحه في بعض المواضع كما هي عادته وكلهم متعجب من شجاعته واستهانته بالموت ولم ينكل عن تقصي الحق في موضعه ولم يترك شيئاً من أخلاقه واحوال نفسه التي كان عليها زمان أمنه من الموت وهم على حال عظيمة من الكمد والحزن لفراقه فقال له سيمياس ان في كثرة الاستفسار منك لثقلاً علينا شديداً وقبحاً في العشرة وان في الامساك عن ذلك لحسرة عظيمة بعدك لاننا نعدم الفاتح لما نريد

فقال له يا سيمياس لا تدعنَّ تقصي شيئاً أردته فان تقصيك ذلك هو الذي أسر بهِ وليس لديَّ فرق بين هذه الحال والأخرى في التقصي عن الحق فإنا اذا عدمنا اصحاباً وخلاناً أفاضل اشرافاً محمودين سنلقى اخواناً اشرافاً محمودين كأسلاوس وأيارس وأرقليس وجميع من سلف من ذوي الفضائل النفسية ما دمنا متيقنين لما يسمع منا ولما أشبعهم قولاً في احوال النفس سألوه عن هيئة العالم وحركات الأفلاك وتركيب الاستقصات فاجابهم عن ذلك ثم قص عليهم كثيراً من العلوم الالهية والاسرار الربانية ولما فرغ من ذلك قال أظن ان قد حضر الوقت الذي ينبغي لنا ان نستحمَّ فيهِ ونصلي ما امكننا ولا نكلف احداً إحمام الموتى ثم قال لهم انصرفوا الى اهليكم ثم نهض ودخل بيتاً واستحمَّ فيهِ وصلى واطال اللبث والقوم يتذاكرون في عظم المصيبة بما نزل به وبهم من موته

وانهم يفقدون بفقده أباً شفيقاً وحكيماً عليماً ثم خرج ودعا بولده الكبير والصغيرين وزوجته فوصاهم وودّعهم وصرَفهم فقال له اقريطون فما الذي تأمرنا ان نفعله في اهلك وولدك وغير ذلك من امرك قال لست آمركم بشيءٍ جديد بل هو الذي لم ازل آمركم بهِ قديماً من الاجتهاد في اصلاح انفسكم فانكم اذا فعلتم ذلك فقد سررتموني وسررتم من كان على سنتي ثم سكت ملياً واقبل عليهِ خادم القضاة ومنفذ احكامهم فقال له يا سقراط اني أرى منك الصبر والشجاعة وانك لتعلم اني لست علة موتك وان علة ذلك القضاة وأنا مأمور به مضطرّ اليهِ وانك افضل من صار الى هذا الموضع فاشرب ما اعطيكه بطيب نفس واصبر على ما ستصير اليهِ ثم ذرفت عيناه وانصرف ثم اقبل مستصحباً الشراب السامّ (وهو من فصيلة الشوكران (الذكران) اعتادوا اعطاءه لمن يحكم عليهِ بالاعدام) فلما رأوه قد شربه غلبهم من الحزن والأسف ما لم يملكوا معهُ انفسهم فعلت اصواتهم بالبكاء والنحيب فاخذ يلومهم ويعظهم وقال انما صرفنا النساء لئلا يكون منهنَّ مثل هذا فأمسكوا استحياءً منهُ وقصد إطاعته وأخذ سقراط في المشي حتى ثقلت رجلاه فقال للخادم لقد ثقلت رجلاي فقال له استلقِ فاستلقى وجعل يغمز قدميهِ ويقول له هل تحس شيئاً فيقول لا وشرع يعلو شيئاً فشيئاً ويسأله فيقول لا أحس وأخذ يجمد ويبرد تدريجاً فقال له له اقريطون يا امام الحكمة ما أرى عقولنا لا تبعد عن عقلك فاعهد لنا فقال عليكم بما امرتكم بهِ اولاً ثم مد يده الى يد اقريطون فوضعها على خده فقال لهُ مرني بما تحب فلم يحر جواباً ثم شخص ببصره وقال أسلمت نفسي الى قابض انفس الحكماء وفاضت نفسه فاطبق اقريطون عينيهِ

وشد لحييه مات ذلكم الفيلسوف العظيم عن ١٢٠٠٠ تلميذاً وتلميذ تلميذ
قضى وقومه في أشد ما كانوا من الاحتياج اليه في تقويم الاخلاق
وائتلاف القلوب حتى يستخلصوا اوطانهم من يد اعدائهم فكانت نازلة
موته فادحة ومصيبة الشعب بهِ عظيمة فعم الهلع عقلاء قومه والجزع من
عرف فضله وشدة الحاجة اليهِ ففقدوه فقدان الساري الضال ضوء البدر
لم يجمع شيئاً من أقواله وآرائه لأنهُ كان يقول في شأن العلم دعوه
في النفوس الناطقة الطاهرة لا في جلود الحيوان القذرة بل جمعهُ افلاطون
وذنفون في كتبهما التي نقلا فيها عنهُ الآداب والمعارف وتوافقت فيهما
نقولهما بالمعنى لأن الاول كان يتحرى المعاني التي قصدها سقراط دون
الألفاظ بخلاف الثاني فانهُ كان يتحراها معاً يشهد لذلك ما كان من سقراط
حين قرئت عليهِ مخاطباته التي جمعها افلاطون المسماة (لوسيس المحبة)

حِكَمهُ

حِكَم سقراط ونصائحهُ كثيرة مشهورة في الكتب منها كثير في
كتاب طبقات الاطباء نذكر منها هنا شيئاً قليلاً محيلين مطالعة الكثير
على ما في ذلك الكتاب وغيره قال :

النفوس أشكال فما تشاكل منها اتفق وما تضاد منها اختلف

اتفاق النفوس باتفاق همها واختلافها باختلاف مرادها

من بخل على نفسه فهو على غيره أبخل ومن جاد على نفسه فذلك
المرجوّ جوده

النفس الخيرة مجتزئة بالقليل من الأدب والنفس الشريرة لا ينجع .

فيها كثير من الأدب لسوء مغرسها

لو سكت من لا يعلم لسقط الخلاف

لا تكون كاملاً حتى يأمنك عدوك فكيف بك اذا كنت لا يأمنك صديقك

لا تردّنّ على ذي الخطأ خطأه فانه يستفيد منك علماً ويتخذك عدواً

حسن الخلق يغطي غيره من القبائح وسوء الخلق يقبح غيره من المحاسن

داووا الغضب بالصمت

الى هنا أمسكنا القلم عن الاطالة في ترجمة ذلك الفيلسوف الذي كثر قول المترجمين في فضائله ومناقبه

أفلاطون بن أرسطون

وُلد هذا الفيلسوف سنة ٤٢٩ ق م وتوفي سنة ٣٤٧ ق م فعمره ٨١ سنة تقريباً وهو من البيوتات العظيمة في اليونان وكان مسمى باسم أبيه فسماه معلمهُ الألعاب الرياضية بافلاطون لطول قامتهُ وضخامة جسمه وعرض اكتافه وجبهته وقد اشتغل بالشعر في بدء أمره ولما سمع سقراط يذمهُ ويرغب في العلوم الحقيقية أعرض عنهُ وأحرق كتبه الشعرية اقدمهُ والده الي سقراط وسنهُ ٢٠ سنة ليتلقى عنهُ العلوم فلازم دروسهِ ٥ او ٨ سنوات على روايتي المؤرخين ولم يتول الخطط السياسية لان روابطهِ الأسرية تربطهُ بالحزب المضاد للحكومة الجمهورية ولكن حبس أُستاذه ظلماً وموته مسموماً بغّض اليهِ رجال السياسة وزاد في نفوره منهم فترك

أثينة بعد موت استاذه الى مقام أقليدس اليوناني ببلدة صور كما نص عليهِ القفطي في كتابه اخبار الحكماء وكان هذا معنياً بالفلسفة الايطالية فأثرت صحبته له في آرائهِ وقد سافر لاكتساب العلوم فجاء مصر واخذ العلم عن كهنتها والى صقلية ٣ مرات الاولى ليرى النار التي تقل هناك في الصيف وتكثر في الشتاء والمتغلب عليها يومئذٍ رجل يوناني اسمهُ ديونوسيوس أوديتيس وكان شاعراً له اطلاع على الفلسفة فطلب من أفلاطون ان يتكلم بشيء من خطبهِ وشعره فاجابه الى ذلك وأظهر براعتهُ وعذوبة ألفاظه واحكامه لما يورده كعادته وقال في ضمن خطابتهِ ان اجود السير وأفضلها التي تكون على الناموس والسنن فظن دينيس انه قصده بذلك لتغلبهِ على من ملكهم بدون استحقاق وقال لأفلاطون هل ترى في أصحابي سعيداً وظن انه سيقول له امام الجمع انك سعيد فقال له غير محاش ليس في أصحابك سعيد ثم ساله عن أرقليس وكان من شعراء اليونان مدح في شعره هذا الملك فلحنهُ وتغنى به في الهيكل فقبح افلاطون سيرته فغضب الملك ودفعهُ الى بوليدس (الذي وفد عليهِ من قبل ملك لقدمونيا بجهات بلاد اسبرطة ليهادنه عن مملكته) ليقتله فذهب به ولم يقتله بل باعهُ من رجل اسمهُ انقريس القيرواني وكان هذا الرجل محباً لافلاطون متشبهاً به في أخلاقهِ وان لم يره قبل فلما بلغ ذلك ذيون نسيب الملك أرسل له الثمن (١) وذلك لفرط محبته لافلاطون وإعجابه بعلومه وخطاباته

(١) مقدار الثمن كان ٣٠ مناً من الفضة والمن رطلان والرطل ١٢ اوقية والاوقية ٤٠ درهماً فالمن ٩٦٠ درهماً أي ٦ ارطال و ٢/٣ بالنسبة للرطل المصري الذي هو ١٤٤ درهماً

ولما لم يتمكن من اطلاق سراحه لدى الملك لم يرَ بدًّا من مجاملتهِ بدفع ثمنه فلم يرض المشتري عن ذلك وقال هذا حكيم مطلق لنفسه وانما بذلت المال لأنقذه من أسره وسيسير الى بلاده في سلامة وخير فابى ذيون ارجاع ذلك المال الى ملكه بل اشترى به لافلاطون بساتين ينفق على نفسه من غلاتها . وكان يلقي الدروس على تلاميذه بمدرستهِ المسماة (أقاذيميا[١]) بتلك البساتين وهم مشاة بين تلك الاشجار ولذلك سمي بعضهم بالمشائين واخذت عنهُ في التعليم طريقة اخرى وهي ان الوصول الى العلوم لا يكون بالنظر والاستنباط بل بالرياضة والفكر اللطيفة فتشرق المطالب العرفانية على النفوس وقد تبعه في ذلك بعض تلاميذه وهم المسمون بالاشراقيين

والثانية ليأخذ كتاباً في النواميس من ذلك المتغلب كان وعده به

والثالثة ليصلح بينهُ وبين نسيبه ذيون وكان قد غلبهُ على امره واخذ منهُ بعض بلاده لولا انه تغلب عليهِ بعد ذلك ونفاه وقد بنى مذهبهُ على اراء ثلاثة من الفلاسفة فاخذ الطبيعيات عن اراء هرقليطس لاختصاصهِ باحكامها وعلوم ما وراء الطبيعة عن فيثاغورس لعلو كعبهِ فيها والقوانين والآداب عن آراء سقراط لانهُ أول من عني بها تهذيباً وترتيباً وفضّله عليهما وقال بثلاثة أُصول الآله والمادة والادراك فالاله عقل العقول والمادة السبب الأول للتولد والفساد والادراك جوهر روحي قائم بذات الإله تعالى وان الإله نظم من تلك المادة القديمة العالم ومن مذهبهِ قدم الروح والتناسخ وان المعارف ليست مكتسبة كسباً جديداً بل هي ثابتة في

(١) ومنها اكادمية

النفس بواسطة الأبدان الاولية التي ارتبطت بها وقال بالمثل النوعية المجردة عن المادة المدبرة للانواع بمعنى ان لكل نوع مثالاً مجرداً عن المادة يدبر شأنه ولم يقل بالهيولى وخالفهُ في ذلك تلميذه ارسطو ووفق بينهما فيما وقع فيهِ اختلافهما الفيلسوف الاسلامي ابو نصر الفارابي في رسالة لهُ خاصة بذلك كان يأذن لبعض تلاميذه الذين تصعب عليهم العزوبة بمشاركته المتزوج منهم

وعاش أعزب لم يتزوج وانفق أغلب ماله في زواج بنات اخيهِ وكتب على باب مدرسته لا يدخلها من لم يعرف علم الهندسة

دفن ببساتينه ولم يترك مالاً سواها وسوى مملوكين وجام وقدح وقرط ذهب كان يلبسهُ وهو يافع كما هو شعار ابناء الاشراف اليونانيين وكتب على احد جانبي قبره (هنا وضع رجل الهي فاق الناس كلهم في العلم والعفة والنباهة والاخلاق العادلة فكل من مدح الحكمة فقد مدحه اذ فيهِ اكثرها) وكتب على الجانب الآخر (يا أيتها الارض ان كنتِ مخفية جسد افلاطون لا يمكنكِ الدنو من نفسه التي لا تموت) وقد تولى بعده التدريس في مدرستهِ احد أقاربه المسمى سوفسيوفوس وحكمه كثيرة مشهورة

أرسطوطاليس ويلقب بالمعلم الاول

ولد هذا الحكيم الشهير بقرية (طاجيرا) من بلاد مقدونيا قبل الميلاد بنحو ٣٨٤ سنة واسم ابيهِ نيقوماقوس وكان طبيباً مصاحباً لملك مقدونيا المسمي أَمنتس جد الاسكندر بن فليب المقدوني توفى أَبواه وهو

صغير فكفله برقسانس وكيل ابيهِ ودرس من مبادئ علم الطب ما أهّلهُ لأن يخلف أباه في صناعته فشرح الحيوان وعلم ما كان معلوماً عند الاطباء في ذلك الوقت ثم أهمل تلك الصناعة وأقبل على تعلم العلوم الفلسفية ولما بلغ الثامنة عشرة من عمره ذهب بأمر عرافة هيكل دلفيس الى اثينة للتلقي عن افلاطون فالفاه غائباً في سراقوسه احدى مدن جزيرة صقلية (١) فعكف على المطالعة والاشتراك مع تلاميذه ثلاث سنوات حضر عقبها افلاطون فاشتغل بالتلقي عنهُ نحواً من ٢٠ سنة وقد رأى فيهِ استاذه مخايل النجابة ووثق انهُ سيصل في العلم الى درجة سامية فكان اذا طلب منهُ الكلام يقول حتى يحضر العقل فاذا جاء ارسطو يقول سلوا وتكلموا

وقد اعتمد عليهِ الطلبة فكانوا يرجعون اليهِ عند اختلافهم وفي كل ما أشكل عليهم فهمهُ مع ما كان عليهِ من مخالفته استاذه في بعض آرائهِ وقد أنابهُ عنهُ في التعليم بالمدرسة لما توجه الى صقلية المرة الثانية وبعد هذه المدة تصدّر لتعليم شبان اثينة البلاغة واصالة الرأي كي يبرزوا في خطاباتهم الاجتماعية وينالوا الشهرة وحسن السمعة وتعظم افادتهم أوطانهم وقد رحل بعد ذلك من اثينة لأن افلاطون استخلف بعده على مدرستهِ ابن أختهِ اسيوسيبس (وقد خلفهُ بعد ذلك اكسينوقراط) لأنهُ كان يرى نفسهُ أحق بذلك من غيره أو لفساد ذات البين بين الملك فيليب وأهل أثينة وتنقل في رحلتهِ هذه من مدينة الى أخرى ملاقياً عظيم الترحاب وزائد الإقبال في كل مكان حلّ به ثم دعاه الملك المذكور لتعليم

(١) وهذه المدينة مقر الملك دينيس الظالم الذي مر الكلام عليه في ترجمة افلاطون

وتهذيب ولده الاسكندر وكان عمره وقتئذٍ ٤٢ سنة وعمر الاسكندر ١٥ سنة فاشتغل بذلك وعلم معهُ أحد أقاربهُ المسمى كلتوس رجاء ان يحببهُ الى الاسكندر فيستصحبهُ وقد حصل ذلك فانهُ بعد اتمام التعليم أخذه معهُ في غزواتهِ فلم يعامله معاملة التابع المتبوع لما كان بينهما زمان التعلم من اطراح هذا الأمر فاغضب ذلك الاسكندر وعلم ارسطو فخشي عليهِ وخاطب الاسكندر في الصفح عنهُ فلم يفعل وأمر بقتله فاغضب هذا ارسطو مع ما انضم اليهِ من غضب الاسكندر عليهِ لانهُ أجرى راتباً لمساعديهِ على الفحص والتنقير في أجسام أنواع الحيوان واستخراج خصائصها رجاء ان تنسب اليهِ علومهُ فلما ألف كتبهُ وبلغ أمرها الاسكندر وهو في غزوه كتب اليهِ مامضمونهُ : من الاسكندر الى ارسطو

ليس من الصواب ما صنعتهُ من اشهار كتب العلوم ليتداولها عامة الناس لانهُ اذا فشا بين عمومهم على اختلاف أنواعهم ما تعرفهُ فبأي شيء تفضلهم ومما لا يخفاك اني أوثر أن أكون فوق غيري في المعارف الشريفة على ان أفوقهُ في الشوكة والبأس اهـ . فكتب اليهِ ارسطو تسكيناً لغضبهِ

أبرزتهُ ولم أبرزه يقصد انهُ وضعهُ رمزاً لا يفهمه كل أحد أولان تآليفهُ كانت تعاليق لم يعتنِ بتحريرها وتنقيحها وجمعها تلاميذه على تلك الحالة فجاءت معجمة مستغلقة وأول من فهمها وأجادها شرحاً الفيلسوف الاسلامي أبو نصر الفارابي وكان ارسطو ذهب الى اثينة بعد الفراغ من تعليم الاسكندر وأنشأ بها مدرستهِ المسماة (الليسسيون) لبنائها بمحل يسمى (ليسى) تكتنفهُ الاشجار ولم يوجد في بلاد اليونان أعظم من مدرستهِ

ومدرسة استاذه افلاطون وقد عكف على التعليم فى تلك المدرسة وتخرّج عليهِ عدد كثير فلقب بالمعلم الاول وسمى أَتباعهُ بالمشائيين لأنه كان يعلمهم وهم مشاة أو لأن محل التعليم كان يسمى بالممشى . استمر ارسطو على ذلك وقد عظم أمره وذاع فضله بين اليونانيين الى ان جاء خبر وفاة الاسكندر فوجد حاسدوه ومبغضوه طريقاً الى ايذائه لانه استاذ من يبغضونه وتحاشوا اظهار ذلك خشية منهُ فاكثروا فيهِ القول وكفروه كما كفروا سقراط فخشي على نفسه ان يبطشوا به كما بطشوا بسقراط فشخص من أثينة الى (طاجيرا) ومات هناك وسنهُ ٦٢ سنة تقريباً فقبروه بها وبنوا له هيكلاً واتخذوه مزاراً كما هي عادتهم في عظمائهم ولولا كتب ارسطو ما انتقلت الفلسفة من مكان الى آخر ومن أمة الى غيرها

فرق الفلاسفة

قال المعلم الثاني أبو نصر الفارابي في رسالتهِ التي وضعها فيما ينبغي ان يعلم قبل تعلم الفلسفة ان أسماء فرق الفلاسفة مشتقة من سبعة أشياء

أحدها من اسم الرجل المعلم

ثانيها من اسم البلد الذي كان مبدأ ذلك العلم

ثالثها من اسم الموضع الذي كان يعلم فيهِ

رابعها من التدبير الذي كان يتدبر به والاخلاق التي كان يتخلق بها

خامسها من الآراء التي كان يراها أهلها من حيث تعليمها

سادسها من الآراء التي كان يراها أهلها في الغاية التي ينظر اليها في تعلمها

سابعها من الافعال التي كانت تصدر عنهُ في تعليمها

فاما الفرقة الاولى التي سميت باسم الرجل المعلم للفلسفة ففرقة أصحاب فيثاغورس فانهم سموا بالفيثاغورسيين وقد بلغت شهرة هذا الرجل مبلغاً عظيماً ووصل عدد تلاميذه الى نحو من ٣٠٠ وكان يرى ان عامة أشياء الاحبة تكون شائعة بينهم وان المحبة تورث المساواة بين الاحباب فلذا كان لا يتميز أحد من تلاميذه بشيء عن الآخر بل كل ما يملكونه لجميعهم فهم متحدون مصرفاً ومورداً ومن أُصوله في التعليم ان الطالب يمكث منقطعاً للطلب ٥ سنوات لا يسأل فيها استاذه وبعد تلك المدة يسوغ له سؤاله ومحاورته ولكونه قائلاً بالتناسخ حظر ذبح أنواع الحيوان وقتله وقال ان ذنب قاتله كذنب قاتل الانسان فان لكل أرواحاً منتقلة في الاجساد

كان شديد الميل لعلم الهندسة والهيئة والحساب

وهو أول من برهن على ان مربع وتر الزاوية القائمة يساوي مجموع مربعي ضلعيها ومن مزاعمهُ ان أصل كل شيء الواحد كما في الاعداد فانه الاول وبانضمام آخر اليهِ يوجد الاثنان وبانضمام آخر لهما توجد ثلاثة وهكذا

والخلقة كذلك فان النقطة واحدة وبانضمام اخرى اليها يتكون الخط وبانضمام آخر اليهِ يتكون السطح وبانضمام سطح آخر يتكون الجسم التعليمي ومثل ذلك يقال في عامة الكون فان الأصل هو الاله الواحد وبانضمام العقل الأول اليهِ وهو واحد يكون موجودان[1] الى آخر ما قاله

---

(١) وهذا العقل له ثلاث جهات جهة وجوده وجهة وجوبه بالغير وجهة امكانه فبالاولى يصدر عنه عقل ثان وبالثانية نفس فلكية وبالثالثة جسم الفلك ففيه اسناد ايجاد الاشرف الى الجهة التي هي كذلك وكذا الحال في الجهتين الثانيتين وكذا يقال في العقل الثاني والثالث الى العاشر وفي الفلك الاول والثاني الى التاسع

الفلاسفة في ترتيب الموجودات وعلى هذا القياس في بقية الاشياء كما هو مبسوط في موضعه

وهو القائل بانه لا يحصل في العالم عدم محض بل تغيير من حال الى أخرى فالأشياء تحول الى بعضها وباستدارة الأرض وانها موضوعة في وسط الكون وان الهواء المحيط بها قليل الحركة بل يكاد يكون قارًّا بخلاف الذي في الأفلاك والكواكب وهذه علة فناء العالم الارضي السقلى دون العالم العلوي فانه دائم

ولد هذا الفيلسوف في نحو سنة ٥٥٦ ق م وعاش نحوًا من ٦٠ أو ٧٠ سنة

وأما الفرقة الثانية المسماة باسم البلد الذي كان فيه الفيلسوف المعلم ففرقة القوريين وهم الذين تعلموا على أرسطيفوس الذي نشأ ببلدة قورين جهة برقة ببلاد الغرب [١] وفلسفته هي الفلسفة الاولى وقد جهلت مؤخراً لما تحققت فلسفة المشائين وقد عثر له على كتاب في الجبر يسمى بالحدود وشرحه وعللهُ بالبراهين وعلى كتاب قسمة الاعداد

وأما الفرقة الثالثة المسماة باسم الموضع الذي كانت الفلسفة تعلم فيهِ ففرقة أصحاب كرسيفس ويسمون باصحاب المظلة لأنهم كانوا يتعلمون في رواق هيكل أثينة وكرسيفس هذا كان معلماً للفلسفة الأولى التي لم تتهذب قواعدها ولم يعلم عن آراء هذه الفرقة شيء

واما الفرقة الرابعة التي سميت باسم تدبير أصحابها وأخلاقهم فاصحاب انتثينوس [٢] وتلميذه ديوجنس فانهم يسمون بالكلبيين لانهم اطرحوا

---

(١) وقال ابن القفطي ان هذه البلدة بالشام قرب مدينة حلب والصحيح الاول

(٢) ولد هذا الحكيم سنة ٤٤٤ ق م ومات سنة ٣٦٥ فعمره ٧٩ سنة وهو

ما كان عليهِ أهل المدن من الفرائض والتكاليف

ومن خلقهم حب أقاربهم واخوانهم وبغض غيرهم من سائر الناس والتغوط في الطرقات بلا ستار فلقبهم الناس بالكلبيين لان خلقهم خلق الكلاب ومولد ديوجنس بلدة سينوب وكان أبوه صيرفياً يسمى ايزيوس اتهم هو وأبوه بتزييف النقود فقبض على أبيهِ وأودع السجن حتى مات وفرّ ديوجنس من بلدهِ الى اثينة وقلبهُ ممتلئ رعباً وذهب ليأخذ العلم عن انتثينوس فلم يقبله غير ان ديوجنس صمم على التلقي عنهُ غير مبالٍ بذلك فأعيا الاستاذ طرده فانتظم في سلك طلبتهِ وأصبح ذا القدح المعلى في الفلسفة الأدبية والآراء المغايرة لآراء من سبقهُ ومن آرائهِ أنهُ إِذا احتاج الانسان الى شيء وأخذه فلا تثريب عليهِ

رفض القوانين الطبيعية في الزواج وقال الخيرة لهوى الشخص ويرى ان الحياء من ضعف النفس ولذا كان لا يستحي من فعل قبيح الأشياء أمام الناس ويقول ان الأكل شيء عظيم فما يمنع الانسان أن يأكل في الطرق والاسواق كما يأكل في بيتهِ وقد كان حافي القدم سميك الكساء ليجعله فراشاً وغطاء ويعطر قدميهِ دون رأسهِ

ولما سئل عن ذلك قال ان رائحة القدمين تصعد الى الأنف بخلاف رائحة الرأس فانها تصعد في الهواء ورأى يوماً طفلاً يشرب بكفيهِ فاستحيا من ذلك وقال كيف تكون الأطفال أشد معرفة مني بالاشياء التي يدرك التخلي عنها وأخرج قدحهُ من خرجهِ وكسره اذ رآه متاعاً لا

تلميذ سقراط والمطنب في الثناء عليه وهو أول من لبس العباءة العريضة المبطنة واتخذ الخرج والعصا فصارت هذه الاشياء خاصة الكلبيين

ينفعهُ وكان يتدحرج أيام القيظ على الرمال الشديدة الحرارة ويلصق جسده بالرُّخام أيام الشتاء ليعتاد جسمهُ شدة الحرّ والبرد

ومن خلقهِ شدة احتقار الناس

ومسكنهُ برميل ينقله معهُ أين يكون

وهو من معاصري افلاطون بلغهُ عنهُ انهُ عرف الانسان بانهُ حيوان ذو رجلين لا ريش له فاخذ ديكاً ونتفهُ وخبأه تحت عباءتهِ

ولما دخل مكتب أفلاطون أخرجهُ وطرحهُ فيهِ وصاح هذا انسان أفلاطون فزاد في تعريفهِ بعد تلك الحادثة ذو أظفار عريضة

سئل لِمَ لقبوك كلباً فقال لأني أُملق من يعطيني وأنبح من منعني وأعض من يؤذيني وليمَ على الاقامة بالاماكن القذرة فقال الشمس تدخل في أماكن أقذر من هذهِ ولا تتسخ

مات وعمره ٩٠ سنة وولد سنة ٤١٣ ق م

واما الفرقة الخامسة المسماة باسم الآراء التي كان يراها أصحابها فهي التي تنسب الى افيغورس فانهم يسمون بالمانعين لانهم يرون منع الناس من تعلم الفلسفة وهذا الحكيم يقول بان الموجودات أبدعت وان كل ما كوّن منها يستحيل اليها فنها المبدأ واليها المعاد وربما يقول الجميع يفسد وليس بعد الفراق حساب ولا قضاء ولا مكافأة ولا جزاء بل كلها تضمحل وتدثر والانسان كالحيوان مرسل مهمل في هذا العالم وما يرد على الانفس من فرح وحزن ونحوهما هو من ذاتها على نسبة أعمالها فان فعلت خيراً ورد عليها سرور وفرح وان شرًّا ورد عليها كدر وترح وسرور كل نفس بالانفس الأخرى وكدرها منها بنسبة ما يظهر لها من أفاعيلها

وتبعهُ في ذلك أهل التناسخ

أما الفرقة السادسة المسماة بالآراء التي كان يراها أهلها في الغاية التي ينظر اليهـا في تعلم الفلسفة فهي الفرقة التابعة لفورون اللَّذي ويقال بانه كان قبل الميلاد بنحو ١٠٠٠ سنة فانهم يسمون باللذيين لقولهم الغرض من تعلم الفلسفة انما هو اللذة النفسية فان النفس الناطقة انما تنزلت من عالم الملائكة الى هذا العـالم لتحصل بواسطة الجسم الذي ارتبطت به على معشوقها الذي هو العلم فاذا فارقت البدن بعد ذلك بقيت في لذة بحصولها عليـهِ وحكمة هذا الفيلسوف هي الحكمة الأولى وهي التي ذهب اليها ثاليث المليطي وفيثاغورس وعامة فلاسفة يونان ومصر ومع كونها غير مستقرة لديهم لما اعتورها من التغيير في بعض الآراء بقيت شائعة الى ان ظهرت فلسفة سقراط الادبية فكثر الاقبال عليهـا واطرحت تلك وبقي أثرها في عامة المتأخرين من الفلاسفة وبنوا عليها الميعاد الروحي

وأما الفرقة السابعة التي سميت بالافعال التي تصدر من أربابها فهي التابعة لأرسطو فانهم يسمون بالمشائيين لتلقيهم الدروس وهم يمشون على ما تقدم تفصيله[1]

---

(١) اساطين الحكماء عند بعض مؤرخي العرب خمسة هم فيثاغورس وسقراط وافلاطون وأرسطو وابندقليس وهذا ولد نحواً من سنة ٤٤٠ ق م ويقال انه من تلاميذ فيثاغورس وهو من جزيرة صقلية وكان بارعاً في الطب والفلسفة خطيباً مفوهاً من أسرة عظيمة ذا جلة بين قومه ولما أحس بانقياد العامة اليهِ وانهم كادوا ان يعبدوه ورأى نفسه هرماً أراد ان يقوي فيهم هذا الميل فعمد الى امرأة مريضة أعيا الاطباء علاجها وعنى بها حتى برئت فقربت له القرابين وأدبت مأدبة عظمى ودعت اليها الكثيرين من علية القوم وبعـد ان حضروا وهو بينهم اختفى عنهم

أقسام الحكماء الذين نظروا في أصول الموجودات

ينقسم الفلاسفة الذين نظروا في أصول الموجودات الى ثلاث فرق دُهريين وطبيعيين والهيين فاما الدهريون فهم فرقة قديمة جحدت الصانع المدبر للعالم وقالت ان العالم موجود بنفسه وليس له صانع

واما الطبيعيون فهم قوم بحثوا عن أفعال الطبائع وانفعالاتها وما صدر عن تفاعلها من المواليد الثلاثة التي هي الحيوان والنبات والجماد وقالوا ان هذه الطبائع التي لها تلك الخواص قد خلقت ملازمة لها لا تنفك عنها بحال من الأحوال لأن ما بالذات لا يتخلف ولم يقولوا ببعث ولا نشور فمجدوا الله من حيث أنهُ خالق تلك الخواص الغريبة التي نشأت عنها تلك المواليد والنظام البديع وضلوا من الجهات الأخرى

واما الالهيون فهم القائلون بالصانع الثابتة له صفات الكمال وبنسبة كل ما صدر في الكون اليهِ واثابة المحسن والمسيء والميعاد الروحي وعدوا من هؤلاء المتأخرين من حكماء اليونان كسقراط وأفلاطون وارسطو مرتب هذه العلوم ومحررها ومقرر قواعدها والرادّ على الدهريين والطبيعيين والمندد عليهم والقائم باظهار فضائحهم ومهذب كلام سقراط وافلاطون ومرتبهُ فجاء كلامهُ أوضح معاني وأقوى حججاً غير ان من نقلوا كلامهُ من اليونانية الى لغة أخرى حرفوا وجازفوا وأقرب الناس حالاً في تفهمهِ ومعرفة أغراضهِ أبو نصر الفارابي ثم ابن سينا قال ابن العبري وكان لارسطو ابن اخت اسمهُ ثاوفريسطس قرئت عليهِ كتب

وصعد الى أعلى البركان والقى بنفسه في النار فاحترق وقد وجدوا نعله وكانت من حديد قد قذفتها النار فاتهموه بالغش إذ فهموا غايتهِ من هذا العمل

خاله واستفيدت منهُ (وصنف التصانيف الجليلة) منها كتاب الآثار العلوية وكتاب الادب وكتاب ما بعد الطبيعة نقله من السرياني الى العربي ابن عدي وكتاب الحس والمحسوس وكتاب أسباب النبات عربهما ابراهيم بن بكوس اه

الكلام على من اشتهر بالحكمة من الامم

ممن اشتهر بهذا العلم الكلدانيون فقد برع حكماؤهم في العلوم الرياضية فكانت لهم عناية كبرى في رصد حركات الكواكب والتنجيم ولما غلبهم الفرس على أمرهم انطمست آثار علومهم ودرست أقوال حكمائهم ولم يعلم منها غير الارصاد التي نقلها عنهم بطليموس في كتاب المجسطي فانهُ اضطر اليها في اصلاح ما يتعلق بحركات الكواكب المتحيرة لأنهُ لم يجد لاصحابهِ اليونانيين أرصاداً يثق بها ومنهم أمة الفرس ويظهر انهم أخذوا ذلك العلم عن الكلدانيين وقال بعض المؤرخين ان لنفس الفرس قبل ذلك عناية بالغة بصناعة الطب ومعرفة ثاقبة باحكام النجوم وكانت لهم أرصاد قديمة وقال بعض علماء العجم ان أول من ملك بعد الطوفان كيومرت من بني سام بن نوح ونزل فارس واتخذ الآلات لاصلاح الطرق وحفر الأنهار ولذبح ما يؤكل من الحيوان وقتل السباع اه

وفي زمن الملك العادل كسرى انوشروان اضطهد كوستنسيان قيصر الروم المسيحي الفلاسفة اليونانيين الوثنيين وأقفل الهياكل والمدارس الوثنية فهاجروا الى غير بلدانهم وجاء فارس ٧ منهم فاقبل عليهم كسرى أنوشروان وأمر باخذ الفلسفة عنهم وترجمها الى الفارسية وحفل بالجدال

والمناظرة كما حفل بها المأمون في الدولة العباسية حتى خيل لاولئك الفلاسفة انه من تلاميذ افلاطون

ومنهم اليونان وهم أُمة عظيمة القدر كثيرة الحكماء وأول من عرف منهم على ما يظن فورون اللذي رئيس فرقة اللذية غير انه لم يشتهر عندهم أمر الفلسفة والفلاسفة إلاَّ منذ ثاليث المليطي وقد نشأ بعده فطاحل العلماء وعظماؤهم حتى أصبحت بقاع اليونان منابت الفلاسفة ذوي الافكار الثاقبة والمعارف الواسعة وأصبح غيرهم من الأمم كالعيال عليهم

ومنهم المصريون وهم السباقون الى هذا العلم وظهر من كهنتهم حكماء عديدون أخذ عنهم عظماء حكماء اليونان كثاليث المليطي وفيثاغورس وأفلاطون ويظهر ان الفلسفة تسربت اليهم من الكلدانيين

الأمة العربية لم يكن بين أبناء هذه الأمة زمن الجاهلية أحد من الحكماء لان جل عنايتهم كانت بالمنظوم والمنثور من أقوالهم والاجادة فيهِ وبالشجاعة والفروسية ولقد ذهب من بينهم الحارث بن كلدة السقيفي الى بلاد الفرس قبل البعثة بقليل وتعلم صناعة الطب وطبب كثيراً في تلك البلاد وجمع مالا عظيماً ثم تاقت نفسهُ الى بلاده فذهب اليها وأدرك الأسلام

كان النبي عليهِ السلام إذا رأى مريضاً يأمره بالذهاب الى الحارث ليستوصفهُ وأحواله في العلاج كثيرة ومما يؤثر عنهُ قوله من سره البقاء ولا بقاء فليبا كر الغذاء وليخفف الرداء وليقل من غشيان النساء (اراد بخفة الرداء عدم الدين) .

والعبرانيون قد حرموا علم الفلسفة في ذلك الزمان لمجانبتهم الأمم

واقتصارهم على علوم الشرائع وسير الانبياء فكانت أحبارهم أعلم الناس باخبار الانبياء وبدء الخليقة وقد أخذ ذلك عنهم غيرهم

نتيجة

قد علمت مما أبديناه في تعريف الحكمة أنها قسمان نظرية وعملية وأن غاية الحكماء من القسم الأول أن تكمل فيهم مزايا الانسانية وتحصل نفوسهم في هذه الحياة على ما يشوقها من معرفة الحقائق وأحوالها كي تبقى في لذة أبدية سرمدية بعد مفارقتها الأجسام المظلمة فتنال بذلك السعادة الباقية وان الغرض من الفلسفة العملية التخلق بمكارم الاخلاق والعكوف على فضائل الاعمال الانسانية الاختيارية النافعة لهذا المجتمع الانساني لينال في حياتِهِ السعادة والنعيم وقد عني الفلاسفة بالأمر الاول قدر استطاعتهم ووقعوا في كثير من الاغلاط ومال عنهم سقراط ومن تبعهُ الى الأمر الثاني وتخبطوا في طريق الوصول الى معرفة الحسن منهُ والقبيح فان رائدهم فيما ذهبوا اليهِ البحث والتنقيب العقلي اذ بينهم وبين العصمة في الأقوال والأفعال مسافات شاسعة بخلاف الانبياء عليهم السلام فانهم بينوا كل نوع من أنواع الحكمة العملية بالوحي من الله العليم الذي لا يعزب عن علمهِ مثقال ذرة في الارض ولا في السماء فهم رسل الله الى عباده ليرشدوهم الى خير الأعمال ويحذروهم شرورها ومنحهم الله من الحكمة النظرية ما تستحقهُ مراتبهم وقد حتموا على من دعوه الى الله فعل الواجب وندبوه الى المستحب وأجازوا له المباح وحرّموا عليهِ فعل ما حظره الشارح وكرّهوا اليهِ فعل ما كرههُ

وقرنوا ذلك بالترغيب والترهيب وأطلقوا للعقول سراحها في معرفة الفلسفة النظرية وعدوا معرفتها حسنة إلاَّ ما عاد منها على أصولهم بالنقض فاغلق باب وجوب وجود الصانع والعقائد الدينيـة والعمل بالأحكام الشرعية التفصيلية وطرّق الى ما يضاد الايمان الذي هو ملاك السعادة

ان علماً لا يرقى بالمجتمع الانساني ولا تتوفر فيـهِ وسائل الرفاهية ومدارج الحضارة فيهوي بالمجتمع الى مدارك الذل والشقاء حتى لا يأمن فيهِ الشخص على نفسه ونسله وعرضه وماله لا يجلب نفعاً عمومياً لجدير بان يترك ويستبدل بما يوجب السعادة الملية والرفعة القومية

لذلك كانت الحكمة العمليـة الحقة سلم السعادة وطريق الحضارة والقائم بها خليفة الله في ارشاد النوع الانساني الى ما فيهِ الكمال والبقاء اللذان حببهما الله اليـهِ وتحذيره ما يضاد ذلك ورتب على فعل أسبابهما الثواب والعقاب

ولذا عصم الله أولئك الانبيـاء في الأقوال والأفعال وحتم عليهم التبليغ قال تعالى يا ايها الرسول بلغ ما أنزل اليك من ربك وان لم تفعل فما بلغت رسالتهُ والله يعصمك من الناس

طبعهم الله على التفاني في التبليغ والارشاد لا يبالون بما يقف أمامهم من العقبات في ذلك السبيل يفرحون بهداية من يهتدي بهديهم ويأسفون من الإعراض عن اجابة دعوتهم قال تعالى فلعلك باخع نفسك على آثارهم ان لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفاً

فهم الذين خلصوا النوع الانساني من الضلال وأطلقوا له القيود في طرق الهداية الرشيدة

انتقاهم الله ذوي نفوس طاهرة ملكية تتلقى الوحي بتلك الجهة فيتدلى الى المدارك البشرية ليبلغوه الى من أرسلوا اليهم

أيدهم الله بخوارق العادات في دعواهم الرسالة كي تجزم النفوس بصدق دعواهم وتؤمن بوعدهم ووعيدهم وما يحكمون به على الاعمال من حسن وقبح فليست النبوة آتية بكثرة الرياضات الروحية ولا بعظيم الاجادة في البحث والتنقير للحصول على المسائل العلمية ولا بزائد الاستقامة وكثرة العبادة بل هي بمحض اصطفاء العليم جلّ شأنه لتلك النفوس الشريفة بخلقتها الطاهرة بفطرتها قال تعالى الله أعلم حيث يجعل رسالته خلافاً للحكماء القائلين باكتسابها

تلك حال الأنبياء وهي مخالفة لحال الحكماء في كل ما قلناه ومن ثم تعرف الفرق بين الأنبياء عليهم السلام وبين أولئك الحكماء

الإسلام

لم يكن عند الامة العربية قبل الإسلام شيء يعول عليهِ من الفلسفة سوى ما حسن لديها من فاضل الأخلاق كالشجاعة والمروءة والنجدة والسخاء مع الغلو في بعض ذلك غلوًّا لا تحمده الشريعة الإسلامية وسوى شيء قليل من الحكمة المنزلية والمدنية كبعض عادات قومية وغير قليل من الحكم والمواعظ في منثورها ومنظومها أنتجتهُ لها خبرتها وتجاربها مع ما لها من فرط الذكاء الفطري وقد ألفت الحروب وشنّ الغارات لأثار أو سلب مال الى غير ذلك من مألوفاتها التي ضمنها بطون التاريخ ولما جاء الإسلام وصدع رسول الله صلى الله عليهِ وسلم بامر ربهِ وضحت وسائل

الهدى وظهر لاحب السعادة الفانية والباقيــة فاقبل الناس أفواجاً على اجابة دعواه

عنيت تلك الشريعة بالفلسفة العملية فجاءت مشتملة على بيان أحكام حسن الأعمال وقبيحها لأن سعادة النوع الانساني منوطة بعلم أحكام تلك الاعمال من حيث تأثيرها في الاجتماع البشري قوة أو ضعفاً والعمل على مقتضى ذلك العلم وأباحت من الفلسفة النظرية ما شاء الله ان تبيح ومدحت العلم والاتصاف به على شريطة ما قدمنــاه بل حضت على تعلم القسم الالهي القاضي بالإيمان بالله وملائكته وكتبهِ ورسله واليوم الآخر وبالاثابة والعقوبة فيهِ وبما اشتمل عليهِ الكتاب الكريم والسنة السمحة من الوعد والوعيد فاستتبع هذا الاقبال على محاسن الأعمــال التي رغب فيها ومجانبة سيئها التي نهى عنها على قدر حال الأشخاص في الاستيقان فان الإقبال على العمل نتيجة التصديق به والتيقن من فوائده ولذا استتبع إيمان الأنبياء عليهم السلام العصمة لقوة يقينهم كان يقين غالب الصحابة رضوان الله عليهم أقوى من يقين غالب من بعدهم لما شاهدوه من باهر المعجزات وينــابيع العلم المتفجرة ومكارم الأخلاق وباهر الآي الدالة على صدق الرسول عليهِ السلام في كل أقواله وعلى سداد أفعاله مما لا يجتمع في غير معصوم . النبي صلى الله عليهِ وسلم بين ظهرانيهم اذا اختلفوا في شيء ردوه الى الله والى الرسول فاتحدت القلوب في وجهتها واجتمعت الايدي على الأعمال فكثر فتوح الإسلام وعلا سلطانه ودان الناس لاحكامهِ فنهم من خالطت بشاشته قلبــه وكره ان يعود الى حالته الأولى كما كره ان يقذف في النار ومنهم من لم تهزّ قلبه باهر آياته وبدائع حكمهِ فدان

لاحكامهِ ظاهره ولم يطمئن اليهـا باطنه وقنع الشارع منهُ بذلك مفوضاً أمره الى الله الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور وبقي مع أولئك ما ملأ قلوبهم من باطل الاعتقاد وفاسد الأعمال فقالوا بهـا وعملوا على مقتضاها عند ما وجدوا لذلك مساغاً

وأول خلاف أعقب ضرراً كان زمن عثمان رضي الله عنهُ فقد تحيز فريق اليهِ وفريق آخر الى منابذيه واستتبع ذلك الخلاف بين علي كرم الله وجههُ ومعاوية رضي الله عنهُ وظهر عقبهُ أمر الخوارج فافترقت الآراء وتنافرت القلوب وغلت مراجل الفتنة والتهمت في الافئدة نيران الاحقاد والادغال فتزحزح الدين عن طريقهِ ولم يعلُ أمره بعد ذلك فلم يكثر فتوحه الاسلامي بل كان الاستيلاء على الاقطار استيلاءً ملكياً سلطانياً لا اسلامياً خلافياً فان الدول أيام نشأتها تكون وامقة الى الاتساع وعظم السلطان

أصبح الاسلام ملكاً عضوضاً غلب فيهِ ذلك على أمر الدين فاتسعت الاقوال وتباينت الآراء فذاع الخلاف وأخذ الذين انقادوا اليهِ ظاهراً يبدون ما وقر في نفوسهم وتبعهم غيرهم فتمزق شمل الوحدة الاسلامية بما حصل من التفريق والله تعالى يقول

ان الذين فرقوا بينهم وكانوا شيعاً لست منهم في شيء (وهو يقتضي أنهم ليسوا منهُ في شيء)

جاء زمن المأمون وكان شيعياً مولعاً بالجدل والبحث في الحكمة النظرية فندب الحجاج بن مطر ويحي بن البطريق ويوحنا بن ماسويه وسلما صاحب بيت الحكمة ببغداد لاحضار الكتب الفلسفية من بلاد

اليونان فشخصوا اليها وأحضروا منها ما شاء الله ان يحضروا وشرعوا في نقلها الى العربية وكان رئيس أولئك المعربين يوحنا بن ماسويه وقد بذل له المأمون زنة ما يترجم ذهباً فأوسع في الخط وما بين الاسطر وكتب في صحف سميكة كي يثقل وزن الكتاب ولما تم تعريبها وجدت في أولئك القوم الذين كثر اختلافهم وتباين آرائهم استعداداً لهـا فأقبلوا عليها إقبال الظمآن على الماء ليعضدوا ببراهينها ومباحثها مذاهبهم واهتم الناس بعد ذلك بالبحث عن تلك الكتب وتعريبها عن الفارسية والسريانية واليونانية وقد أعان على هـذا كله القائمون بتلك العلوم بمدرسة الحكمة في بغداد التي أنشأها الرشيد وعنى بها المأمون ولم يعتنَ قبل ذلك بترجمة كتب الفلسفة سوى ما كان من حمل أبي جعفر المنصور جرجيوس ابن بختيشوع على ترجمة الطب الى اللغة العربية (وكان جرجيوس هذا عالماً باللغات العربية والفارسية والسريانية واليونانية وهو الطبيب الخاص بأبي جعفر استقدمه من جند سابور باشارة الأطباء ليستوصفهُ مرض معدته وكان قـد أعياهم علاجهُ فدبره تدبيراً حسناً وترجم له كتباً من الطب عدا ما ألفهُ له وبقي نسل آل بختيشوع في خدمة العباسيين) وفي زمن الرشيد نقل الحجاج بن مطر كتاب أقليدس في الهندسة الى العربية وتسمى هـذه بالنقلة الهارونية تمييزاً لها عن النقلة المأمونية ولم يترجم شيء من الفلسفة أوائل الاسلام خلاف هذا لأن القائمين بأمر الدين اذ ذاك كانوا لا يرضون عن اذاعة ما يخالف ظاهره الاسلام وكذلك علماء الامة وبنوها الى ان تضاءل ذلك زمن المأمون فكان ما قدمناه

ذكر نبذ من تراجم مشهوري فلاسفة الاسلام

نذكر في كتابنا هذا تراجم بعض من اشتهروا من الفلاسفة الاسلاميين بالايجاز وهم أبو نصر الفارابي والشيخ الرئيس ابن سينا وحفيد ابن رشد مراعين سبقهم في الزمان

الفارابي

هو أبو نصر محمد بن طرخان فارسي الأصل من بلدة فاراب من بلاد خراسان (قال ياقوت وسميت بعد ذلك أُطرار) كان عارفاً باللغة التركية وكثير من اللغات الأخرى جاء الى بغداد واشتغل بتعلم اللغة العربية فأتقنها وأخذ علم المنطق عن أبي بشر متى بن يونان النصراني أحد تلاميذ قويرى وقد انتهت رئاسة المنطق في ذلك الزمان ببغداد الى أبي بشر هذا المتوفي سنة ٣٢٨ هـ ثم انتقل الى مدينة حرَّان وتعلم بها الفلسفة وعاد بعد ذلك الى بغداد وكان واسع الاطلاع في العلوم الفلسفية لايدانيه أحد في احكام فنّ الموسيقى اخترع آلات للتوقيع والغناء غاية في بابها وحلّ ما تعقد من كتب أرسطو وألف تآليف كثيرة ثم رحل الى دمشق وأقام بها أيام سيف الدولة بن حمدان وقد حضر مجلسه وكان بهِ كثير من عظماء علماء دمشق ودار البحث في الموضوعات العلمية فما زال صوت أبي نصر يعلو وصوتهم يسفل حتى سكتوا وشرعوا في كتابة ما يقول فعلت لدى سيف الدولة منزلته

قيل انهُ سافر الى مصر سنة ٣٠٨ هـ وعاد الى دمشق وكان متقشفاً زاهداً قنوعاً اكتفى من سيف الدولة بان يجري عليهِ كل يوم أربعة دراهم

وكان محباً للعزلة لا يوجد الاَّ عنـد المياه الجارية والأشجار الملتفة ويعلق التعاليق هنالك ولذا جاء كثير من تآليفه في رسائل خاصة ببعض الموضوعات وهو في مقدمة الفلاسفة الاسلاميين الذين طالعوا كتب أفلاطون وأرسطو ووقفوا على أغراضها وأحسنوا فهمها يدل لذلك ما حكاه الشيخ الرئيس من انهُ عرف غوامض الفلسفة ووقف على مقاصدها واستظهر القسم الالهي منهـا ولم يقف على حقيقة أغراضه ومباحثهِ فسئمتهُ نفسه وكان ذات يوم لدى الوراقين ومرَّ عليهِ دلال كتب وبيده مجلد وقال له اشترِ هذا فلما علم انهُ في الفلسفة الالهية قال لا حاجة لي بهِ فقال له الدلاّل ان صاحبهُ محتاج الى بيعهِ ويطلب بهِ ثمناً قليلاً وأبيعكه بثلاثة دراهم قال فأخذتهُ ووجدتهُ تأليف أبي نصر الفارابي فلما قرأتهُ وقفت منه على أغراض ذلك العلم وفهمتهُ بعد ان مللت الاشتغال به وأيست من فهم أغراضه فتصدقت بشيء من مالي شكراً لله على هذه النعمة ولما كان أكثر ممن سبقهُ من الفلاسفة الاسلاميين ايضاحاً وشرحاً لكلام أفلاطون وأرسطو وأقدرهم على فهم أغراضهمـا لقب بالمعلم الثاني كما لقب أرسطو بالمعلم الأول وسئل أأنت أعلم أم أرسطو فقال لو أدركتهُ لكنت أكبر تلاميذه توفى سنة ٣٣٩ ﻫ وعمره يناهز الثمانين سنة فصلى عليهِ سيف الدولة وأتباعه ودفن خارج الباب الصغير بدمشق

ابن سينا

هو الشيخ الرئيس أبو علي الحسين بن عبد الله بن سينا البخاري والده من أهل بلخ انتقل منها الى بخارى أيام أميرهـا نوح بن منصور

الساماني وتولى العمل له بقرية يقال لها اخرميش من ضياع بخارى وتزوج بامرأة من قرية افشنه على مقربة منها فانجبت له بالشيخ الرئيس وأخيهِ ثم انتقل الى بخارى وأحضر له والده معلم القرآن الكريم والأدب ولما بلغ عمره ١٠ سنوات أجاده حفظاً وحفظ أشياء كثيرة من الأدب وكان أبوه ممن أجابوا داعي الاسماعيلية وكثيراً ما كان يذكر الهندسة والفلسفة ويتكلم في مباحث النفس وغيرها على رأى الاسماعيلية مع أخيهِ وهو يسمع ما يقال ويفهمهُ ولا تطمئن له نفسهُ ثم وجههُ الى رجل بقال يجيد حساب الهند فعرفهُ منهُ وبعد ذلك اشتغل بالفقه على اسماعيل الزاهد وأجاد السلوك في تعلمهِ وجاء الى بخارى أبو عبد الله الناتلي فانزله والده داره رجاء ان يعلمهُ الفلسفة فابتدأ في قراءة ايساغوجى عليهِ وعرف منهُ ظواهر المنطق وأخذ يكثر من مطالعة كتبهِ وكتب الهندسة والطب

وقد عرض يومئذٍ للأمير منصور بن نوح مرض ودعا اليهِ الأطباء وقد عرف الشيخ بينهم بالطب فدعوه معهم وتكلم في شأن المرض فأدناه بعد ذلك منهُ فطلب أن يدخل دار كتبه ويطلع عليها فأذن له في ذلك — فوجد لكل علم في تلك الدار بيتاً خاصاً فاطّلع على فهارس الكتب وطلب ما احتاجهُ منها ورأى من بينها كتباً كثيرة لم يقف أحد على أسمائها فضلاً عما اشتملت عليهِ من الفوائد وظفر بما فيها من الدقائق وتم له ذلك وهو ابن ١٨ سنة وكان يقول اني كنت منكباً على حل العويص من المسائل فكل مسألة لم أظفر فيها بالحد الاوسط أصلى ركعتين لله وأبتهل اليهِ حتى يميض عليّ العرفان وكثيراً ما كنت أحلم بالمشكلات التي تعترضنى وألهم حلها في النوم وما ازددت علماً بعد

ان بلغ سنى ١٨ سنة غير ان علمى الآن أنضج وما أعيانى من العلوم الفلسفية سوى العلم الالهى الى ان قرأت كتاب أبى نصر الفارابى فاوضح لى المحجة غاية الايضاح . ووقفت منهُ على أغراض ذلك العلم ثم انتقل من بخارى الى أماكن شتى حتى وصل جرجان فاتصل بهِ أبو عبد الله الجرجانى أكبر تلاميذه ثم ذهب الى الرى وعالج الامير مجد الدولة على بن ركن الدولة حسن بن بويه وكان مريضاً من غلبة السوداء فشفى واتصل بخدمتهِ ثم اتصل بخدمة شمس المعالى قابوس بن وشمكير ثم فارقهُ وقصد علاء الدولة بن كاكويه باصفهان وكان مريضاً بالقولنج فعالجهُ وشفاه الله مما بهِ وتولى لديهِ منصب الوزارة ثم مرض بالقولنج وأهمل أمر الحيطة من هذا المرض فمات سنة ٤٢٨ ﻫ وسنه ٥٨ سنة ومؤلفاته كثيرة جدًّا

حفيد بن رشد

هو أبو الوليد محمد بن أحمد بن أبي الوليد محمد بن رشد ولد بقرطبة سنة ٥٢٠ ﻫ وأسرته من أكبر الأسر في الأندلس أسسها جده قاضى قرطبة وأعلم أهل الأندلس بفقه المالكية وكانت له الكعب العالية في القضاء والسياسة تضرب اليهِ أكباد الابل فى طلب الفتيا وخلفه في القضاء ابنه أحمد أبو المترجم

درس الحفيد فى صغره الفقه والأصول وعلم الكلام وكانت أساتيذه في ذلك أبو القاسم وأبو مروان بن مسره وأبو بكر بن سمحون وأبو جعفر ابن عبد العزيز وهم أعظم فقهاء الأندلس فى ذلك الزمان ثم جد في دراسة الطب على أبى جعفر هارون ومن الناس من يقول انهُ أخذه عن الحكيم

ابن بجا أعظم فلاسفة الأندلس قبل صاحب الترجمة وتعلم الرياضيات والالهيات ولما شبَّ وظهرت عليهِ مخايل النجابة وأصبحت له اليد الطولى في العلوم ودَّه العلماء وأكبروا شأنه فعظمت المودة بينه وبين الفيلسوف ابن طفيل واتصل بأسرة بني زهرة التى اشتهرت بالعلماء الذين نبغوا منها فذاع صيتهُ حتى نمى الى الأمير يوسف بن تاشفين فأحضره وذاكره فى العلوم فأعجب ببراعته وكلفهُ شرح فلسفة أرسطو باشارة ابن طفيل لأنهُ كان كبر ووهنت قواه فلم يستطع أن يباشر هـذا العمل فأشار بندب ابن رشد لذلك فعلت منزلتهُ لدى الامير وولاه قضاء اشبيلية سنة ٥٦٥ هـ وكانت ولاية القضاء تقضى عليهِ اذ ذاك بالتنقل فى البلاد فذهب الى مراكش سنة ٥٧٤ وبعد ذلك بسنة انتقل الى اشبيلية وفى سنـة ٥٧٨ استدعاه الأمير يوسف الى المغرب وأقامهُ طبيباً له بدل ابن طفيل وجعله قاضى القضاة فى قرطبة وحصل بذلك على مرتبة أبيهِ وجده فحسده كثير من العلماء ولم يرضهم ان يتولى رئاسة القضاة رجل عرف بالفلسفة وقـد خلف يوسف بن تاشفين الخليفـة يعقوب المنصور بالله فاحب المترجم وأكثر من احضاره مجلسه وكان ابن رشد لثقتهِ بعلو منزلتهِ عنده يقول له عند ما يخاطبهُ يا أخى فحاول الحاسدون الايقاع بهِ وقالوا للخليفة انهُ يخاطبك خطاب المتماثلين وانهُ قال في بعض تآليفهِ رأيت الزرافة فى دار ملك البربر ولم يقل فى دار الخليفة وانهُ لا يعتقد ما جاءت بهِ الشريعة الاسلاميـة ويثق بالفلاسفة وآرائهم فدفع بعض محبيهِ ذلك بان البربر هي البرين أى بر مراكش والأندلس وانكر ابن رشد نسبة ذلك اليـهِ ولكن هذا الدفاع لم يجد شيئاً لما قام بهِ العلماء والعامة من الانكار عليهِ

وكان من حبهِ للفلسفة وطول باعهُ فيها وفي الشريعة يكثر من القول بالاتصال بين الشريعة والحكمة فى أقواله ومؤلفاتهِ لما يراه من ذلك وللتخفيف من حنق العلماء والعامة عليهِ وكل ذلك لم يحط من قدر الحقد والسخط عليهِ فأمر الخليفة بجمع كثير من العلماء ليبحثوا في كتبه ويقولوا فى شأنهِ ما يرونهُ فبعد البحث قرّ رأيهم على مخالفتها للشرع فأبقى عليهِ الخليفة واكتفى بأن يذهب بهِ وبصديقهِ عبد الله ابن ابرهيم الأصولي (لأنهُ عدت عليهِ فلتات فى بعض مجالسهِ ومذاكراتهِ) الى الجامع العام ويشهر بهما كى تعرف العامة مروقهما من الدين حتى يؤمن من افسادهما عقائد العامة ويتقى ضررهما ففعل ذلك وكتب منشور من قبل الخليفة يقبح فيهِ أمر الفلسفة ومن اشتغل بها ويذكر مروقهُ من الدين ونفى ابن رشد الى (أليسانه) وهى بلدة قريبة من قرطبة يسكنها اليهود ونفى أيضاً المشتغلين بهذا العلم الى غير منفى ابن رشد ومنهم أبو جعفر الذهبي ومحمد بن ابراهيم قاضي بجايه والقاضي أبو عبد الله بن ابراهيم الأصولى وغيرهم وأمر المنصور باحراق كتب الفلسفة ما عدا ما يحتاج اليهِ في أمر الحياة كعلم الطب والحساب والهندسة والمواقيت يروى عن ابن رشد انهُ قال أعظم ما طرأ عليَّ من النكبات أني دخلت المسجد انا وولدى عبد الله لأصلى العصر فثار علينا سفلة الناس بالمسجد وأخرجونا بدون ان نصلى ولما نفى كثرت شماتة أضداده بهِ وأكثروا من قول الشعر في هذا المعنى من ذلك

نفذ القضاء بأخذ كل مموه ... متفلسف فى دينه متزندق
بالمنطق اشتغلوا فقيل حقيقة ... ان البلاء موكل بالمنطق

والاشعار في ذلك كثيرة ضربنا صفحاً عن ذكرها وبعد انقضاء سنة من الأمر بنفيه كلم في شأنه المنصور كثير من العظماء وأبانوا له ان تهمته غير حقة ليس منشؤها الا الحسد فعفا عنهُ وعمن نفاهم واستدعى الى مراكش ومات بها قبل ان تجاوز مدة العفو سنة ودفن هناك ثم نقلت جثته بعد ذلك الى قرطبة وكانت وفاته سنة ٥٩٥ هـ فعمر ٧٥ سنة

أدوار الفلسفة اجمالاً

قدمنا أن الفلسفة راج أمرها فى الدولة الاسلامية أيام المأمون وكثر اقبال الناس عليها وكذلك راجت فى بلاد الفرس أيام كسرى أنوشروان فانهُ حفل بها على انها قد كان لها أثر فى تلك البلاد أيام الملك سابور بن أردشير فانهُ أمر بنقلها من اليونانية الى الفارسية وفي أيامه اخترعت العود وهي الملهاة المعروفة وقد توفى سابور هذا سنة ٥٥٩ لغلبة اسكندر بن فيلبش الفرس وكان اشتغال العرب والفرس بها على الطريقة التى كانت عليها أيام الأقدمين من اليونان وقام كثير من علماء الاسلام بدحض ما وجدوه منها مخالفاً لظاهر الشريعة وقد جارت حكومة الاندلس الخلفاء العباسيين فى جلب كتبها والوقوف على مباحثها كما كانت عليهِ من قديم الزمان أيضاً ولما قامت الحكومات المتعددة فى البلاد الاسلامية خشيت من سخط العلماء فقللوا من الاشتغال بها وأعرض الناس عنها اتقاء غضب الحاكم والجمهور الى أن ضعف الاقبال عليها فى أغلب البلاد التابعة للدولة العثمانية وبقى الاقبال عليها في بلاد الفرس والهند ولما حضر الى مصر المرحوم الشيخ محمد جمال الدين الافغاني وقرأ كتاب شرح الهداية لقاضي

مير والاشارات لابن سينا وشرح حكمة العين لمبارك شاه والقطب على الشمسية فى المنطق وكتاب سلم العلوم وقرأ من كتاب مطالع الأنوار فى المنطق الى تلازم الشرطيات وكتاب الجغميني فى الهيئة وكان مجيئهُ فى أواسط حكم ساكن الجنان اسماعيل باشا واستمر على قراءة الكتب المتقدمة الى أوائل حكم المرحوم توفيق باشا خديو مصر السابق أقبل بعض الأزهريين عليها

ومعلوم ان الاشتغال بها فى كل هذه الأحوال كان على الطريقة التى لا تستتبع نتيجة عملية . هذه حال الشرقيين فى الفلسفة الى الآن . وأما أمم الغرب فقد اشتغلت بما ينشأ عنها من الفوائد العملية منذ القرن ١٧ بعد الميلاد فرقوا بها الى أوج الحضارة وقد حصلوا من فوائد الجذب والبخار وغيرهما مما لا يحصى على عظيم الفوائد والمنافع ولا يزالون يحصلون على جديد من الفوائد الجزيلة فكأنى بهم وقد أصبحوا قادة المنافع المودعة فى العالم الى النوع الأنسانى

تقسيم الدليل من حيث مادة القضية

ينقسم الدليل من هذه الجهة الى ثلاثة أقسام برهان وخطابة وجدل وأما الشعر والسفسطة اللذان زادهما أرسطو على الأقسام الثلاثة وسمى الجميع بالصناعات الخمس فلا محل لايرادهما لأن أولهما ليس الاَّ تخييلياً يؤثر فى النفس قبضاً أو بسطاً وثانيهما لا يوصل الى التصديق بالحقائق الثابتة

البرهان هو ما تركب من قضايا ضرورية واجبة الصدق سواء

تألف منها مباشرة أو من مقدمات تنتهى اليها عند الاستدلال على صحتها والضرورات سبع

الأولى — القضايا التى يجزم بصحتها العقل عند ما يتصور طرفيها وتسمى أولية نحو قولنا الكل أعظم من الجزء والواحد نصف الاثنين والنقيضان لا يجتمعان ولا يرتفعان

الثانى — القضايا التي يجزم العقل بصحتها بسبب واسطة لا تغيب عن الفكر عند تصور طرفى القضية نحو الأربعة زوج والخمسة فرد والأشياء المتساوية اذا أضيفت اليها أشياء متساوية كانت النواتج متساوية والأشياء المتباينة اذا أضيفت اليها أشياء متساوية كانت النواتج متباينة فان العقل يحكم بصدق زوجية الأربعة بواسطة قياس لا يغيب عنهُ وهو انقسامها الى متساويين فكأن لديهِ قياساً هكذا الأربعة منقسمة الى متساويين وكل ما كان كذلك فهو زوج ولما كانت الواسطة لا تغيب عن الذهن عند تصور موضوع كل قضية عدت القضايا التى شأنها هكذا ضرورية ومثل ذلك الخمسة فرد وكذلك الأشياء المتساوية اذا أضيفت اليها أشياء متساوية الخ فان العقل يحكم هذا الحكم بواسطة قياس لا يغيب عنهُ عند تصور ذلك وهو عدم انضمام كمية اليها تزيل ذلك التساوى فكأن لديهِ قياساً هكذا الأشياء المتساوية المضاف اليها أشياء متساوية لم يطرأ عليها ما يغير التساوى وكل ما هذا شأنه لا يزال التساوى فيهِ باقياً وكذلك يقال فيما بعده .

الثالثة — المشاهدات وهى قضايا يحكم بها العقل بمجرد الحس الظاهر من غير تكرار ولا حدس ولا اخبار جماعة والا كانت من قبيل

المجربات أو الحدسيات أو المتواترات على ما سيأتى وذلك مثل الشمس طالعة وهى مضيئة والنار حارة وهذا العطر طيب الرائحة وذلك العاج أملس وهذا الصبر مر الطعم وهكذا فان هذه القضايا الجزئية المدركة بالحس تفيد أحكاماً جزئية صادقة متى كانت الحواس صحيحة لا خلل فيها (والحكم بان كل نار حارة وكل عطر طيب الرائحة الخ انما هو حكم نفسى أعدت الحواس النفس الى ادراكه بواسطة تكراره لدى الحواس المذكورة فى كثير من الجزئيات) أو الباطن كاعتقادنا بأن لنا فكراً وجوعاً وشبعاً ورياً وظماً واعتقادنا بوجودنا ووجود أفعالنا ويسمى هذا النوع بالوجدانيات

الرابعة — المجربات وهى ما يجزم بها العقل بواسطة الحس مع التكرار كالحكم بان الضرب بالعصا مؤلم وان الفحم مزيل للعفونة وحامض الفينيك كذلك وان زيت الخِرْوَع مسهل ولا بد معها من قياس وهو ان الوقوع المتكرر تكراراً دائمياً أو أكثرياً ليس اتفاقياً بل لا بد له من سبب ما (وان لم تدرك حقيقة السبب) ومتى وُجد السبب وُجد المسبب فكأن هناك قياساً صورته هكذا زيت الخِرْوَع دام ترتب الاسهال على تناوله ودوام ترتب الاسهال على تناوله لسبب فيهِ اقتضى ذلك وكل سبب لشىء اذا حصل حصل مسببه وهو الاسهال

الخامسة — الحدسيات وهى قضايا يحكم بها العقل لحدس قوى يزول معهُ الشك والحدس سرعة انتقال الذهن من المبادىء الى المطالب فهو سنوح المطلوب مع دليله للعقل دفعة واحدة فليس فيهِ حركتا النفس من المطالب التي لم يذعن بها الى أدلتها ثم انتقالها من هذه

الادلة الى تلك المطالب على وجه الاذعان والتصديق ولا يكون الاَّ للاذكياء أو الهاماً للنفوس المستعدة له كقولنا الصانع المتقن صنعته عالم بها اذا جاء ذلك للعقل مع أدلته دفعة واحدة اذ من المعلوم أن اجادة صنع جزء من المصنوع لاحتياج جزء آخر اليهِ في القيام بالميزة التى خص بها واحكامه صنع تلك الاجزاء احكاماً يؤدى الى احكام الوصول لما قصد منهُ يدل على ان ذلك ليس ناشئاً الاَّ عن علم بتلك الاشياء ولا ينكر ذلك الاَّ مكابر وكقولنا نور القمر مستفاد من نور الشمس اذا كان لنا ذلك حدسياً فان اختلاف أضوائه وتشكلاته بالنسبة لأوضاعه من الشمس يدل لذلك ولا بد فيها من تكرار المشاهدة والقياس فهى كالمجربات وليس بينهما من الفروق الاَّ ان ماهية السبب هنا معلومة بخلافها فى المجربات

السادسة — المتواترات وهى ما يحكم فيها العقل بمجرد تواترها عن جماعة يؤمن تواطؤهم على الكذب ولا يكون الاَّ فى المحسوسات كحكمنا بوجود مكة ودمشق وباريس ولوندره ولا يقبل التواتر الاَّ فى المحسوسات دون العقليات كما فى القضايا الهندسية والحسابية ووجود الصانع ووحدانيتهِ الى غير ذلك ولا بد فيها من تكرار وقياس والحاصل بها علم جزئى فلا يكون عنها علم كلى

السابعة — الوهميات فى المحسوسات فان حكم الوهم فيها صادق نحو كل جسم له جهة فان العقل يصدقه فى تلك الاحكام ولذا كانت العلوم الهندسية والجارية مجراها شديدة الوضوح لمطابقة العقل فيها الوهم بخلاف حكمه على المجردات وذلك كحكمه على كل موجود بأنه فى جهة ومكان فان هذا الحكم غير صادق بالنسبة للمجردات وذلك لان الوهم ينتزع

أشياء من المحسوسات فاذا حكم بتلك المنتزعات على غيرها من الاجسام التى لم تحس كان حكمه صحيحاً بخلاف ما لو حكم بهـا على المجردات فانه يكون حكماً كاذباً كما سلف . والغرض من البرهان معرفة الحقائق على ما هى عليه فى الواقع بحيث لا تكون الاّ كذلك

الدليل الخطابى

هو دليل لا يفيد القطع بل غلبة الظن وهى مما يبتنى عليها غالب أفعال الجمهور الشرعية وغيرها وعقائدهم أيضاً اذ لا يسلك طريق البرهان الاّ الخاصة الذين عنوا بالبحث والتدقيق وقليلٌ ما هم ومن ثم تقول كما قال حفيد بن رشد ان ما جاءت به الرسل عليهم الصلاة والسلام من الشرائع الاعتقادية والعملية دعت الكافة الى الانقياد اليه والائتمار به وفيهم من لا قوة له على تَقَصِّى البراهين القطعية فلو كلفوا فى عامـة ما اشتملت عليه بالبرهنة القطعية لكان تكليفاً لاغلبهم بما لا يطيقون لانهم لا يهتدون الى الوصول اليه وذلك يضاد المقصود من التشريع يرشد الى ذلك ما تراه في القرآن الكريم من الادلة الخطابية السهلة القريبـة الى فطرهم . أمَّن يجيب المضطر اذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الارض أإله مع الله قليلاً ما تشكرون . أمَّن يهديكم في ظلمـات البر والبحر ومن يرسل الرياح بشرايين يدى رحمته أإله مع الله تعالى لله عمـا يشكرون . أفلا ينظرون الى الأبل كيف خلقت . والى السماء كيف رفعت . والى الجبال كيف نصبت . ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً . وذكر فى التنبيه على وجوب الأفعال وحرمتها

الاوامر والنواهى . وأدلة افادة الاولى الوجوب والثانية التحريم لا تصل الى درجة القطعية المستفادة من البراهين العقلية والدليل الخطابى يتألف من مقدمات لا تخرج عن أربعة أنواع

الأول — المسلمات التى تقبل من غير دليل لأنه دلّل عليها في موضع آخر كقواعد أصول الفقه المسلمة لدى الفقيه لانهُ دلل عليها فيهِ كقوله الزكاة واجبة لأمر الشارع بها اذ الامر يفيدالوجوب فسلم القضية الثانيـة لانه دُلّل عليها في ذلك العلم

الثانى — القضايا المشهورة التى اتفق عليها الجميع او الكثير فالأولى نحو العدل حسن والظلم قبيح والثانية نحو الاله واحد فأنه لم يتفق عليهـا الجميع ألا يرى أن المانوية قالت بإلهين أحدهما للخير وثانيهمـا للشر وكقولنا التسلسل مطلقاً محال فان الفلاسفة لم يقولوا باستحالتـه الاَّ بشرائط مخصوصة أو يحكم العقل فيها بواسطة رقة نحو مراعاة الضعفاء محمودة أو حمية نحو حفظ شرف الأسرة والذود عنها ممدوح أو بواسطة انفعالات نفسية من آداب شرعية نحو كشف العورة مذموم والحسد محرم أو مزاجية نحو الغضب يمدح عند الاهانة والغرض منه اقناع الطالب القاصر عن البرهان أو الترغيب أو الترهيب

الجدل

هو ما تألف من مقدمات مسلمة عند الخصم فيبنى المستدل دليله عليها كى يفحم مجادله والغرض منه اسكات المجادل والزامه الحجة وذلك كما اذا قال شخص باستحالة تعدد القدماء فانا نقول له اذن لا يصح ان تقول

صفات الله القديمة زائدة على ذاته لانه يلزم من ذلك ما لا تقول به وهو تعدد القدماء

الأدلة

تنقسم الأدلة الى ثلاثة أقسام

الأول — الدليل العقلى وهو ما كانت مقدماته القريبة عقلية لا غير كقولنا العالم متغير وكل متغير حادث وكقولنا النفس الناطقة تقوم بها أعراض متضادة فى وقت واحد كالحرارة والبرودة والملاسة والخشونة المتصوّرة ولا شئ مما هو كذلك بجسم وكذلك البراهين التى تذكر فى العلوم الرياضية كدلائل الحساب والهندسة

الثانى — الدليل النقلى وهو ما كانت مقدماته القريبة نقلية نحو المخالف لأوامر الشرع عاص وكل عاص يستحق العقاب فان المقدمة الأولى نقلية لقوله تعالى أفعصيت أمرى والثانية كذلك لقوله جل شأنه ومن يعصَ الله ورسوله فان له نار جهنم الى غير ذلك من الادلة القائمة على الاحكام الشرعية

الثالث — المركب من المقدمات النقلية والعقلية معاً نحو أبو بكر رضى الله اختاره رسول الله لأمر الدين (فقد أمره رسول الله صلى الله عليه وسلم ان يؤم المسلمين بدلاً منه وفيهم عمر وعلى وعثمان وغيرهم رضوان الله عليهم) وكل من اختاره النبى لامر الدين فهو أجدر أن يختار لأمر الدنيا وهو تولى الأحكام بطريق الخلافة عن الرسول عليه السلام فالمقدمة الأولى نقلية والثانية عقلية

الدليل العقلي والنقلي

لا خلاف يعتد بهِ فى أن الدليل العقلى اذا روعيت مادته وهيئته حق المراعاة أفاد اليقين ولا ينازع فى ذلك الا مكابر كالسوفسطائيين وغيرهم ممن نحا نحوهم وأما النقلى فقد ذهب جماعة الى أنهُ لا يفيد اليقين محتجين بأن افادته معناه افادة قطعية متوقفة على ثلاثة أشياء

الأول — معرفة المعانى الافرادية والتركيبية

الثانى — معرفة ان تلك المعانى هى مرادة الشارع

الثالث — عدم معارضته بالدليل العقلى

والأول متوقف على معرفة المعنى الموضوعة له مادة اللفظ وعلى أختلافه باختلاف البنية وعلى هيئة التركيب وذلك يتوقف على معرفة علمى اللغة والصرف وعلى علم النحو وهى غير قطعية لثبوتها عن العرب برواية الآحاد

والثانى متوقف على عدم نقل الالفاظ من معانيها المرادة منها زمن الشارع الى معانى أخرى كى لا تكون المعانى المرادة الآن غير المعانى التى أرادها الشارع وعلى عدم الاشتراك حتى لا يراد منها أحد معانى المشترك الذى لم يرده وعلى عدم التجوز بها الى معنى آخر وعلى عدم تخصيص العام منها ببعض أفراده وعلى عدم حذف شئ من الألفاظ وعلى عدم اضمار شئ فى النفس لم يلفظ به وكل ذلك غير قطعى

والثالث ان لم يتحقق من عدمه بقى احتمال وجوده ومع هذا الاحتمال لا يكون الكلام قطعياً فى افادة ظاهره لانهُ ان وجد يجب تأويل الدليل

النقلى أو التوقف فى معناه اذ من المعلوم أنهُ لا يمكن الأخذ بالدليلين معاً لاجتماع النقيضين ولا الغاؤهما معاً لارتفاعهما ولا الاخذ بالدليل النقلى والغاء العقلى لان فى ذلك الغاء النقلى لأنه أصله فان التصديق بالنقلى انما جاء بعد اثبات عصمة القائل وهو فرع عن اثبات نبوّتهِ وهو فرع اثبات وجود مرسله وهو الله عزَّ وجلَّ وذلك لا يكون الا بالدليل العقلى فلو ألغى الدليل النقلى العقلى ألغى نفسه لأنهُ أساسه والاعتداد بهِ لم يكن الا بسببه فاذا بطل السبب لمجرد النقل فقد سقط المسبب واذا توقفنا فيهما معاً لم يكن الدليل النقلى مفيداً لليقين وكل هذه الأشياء ظنية وما توقف على الظنى ظنى بالاولى

وقد يقال قد تعلم ارادة الشارع المعانى بواسطة القرائن والافعال كما قال عليــه الصلاة والسلام صلوا كما رأيتمونى أصلى وكتبيينهِ الزكاة بدفع عشر المال على أن التشكيك فى أمثال ذلك تشكيك فى الضرورى فانا نعلم بداهة أن معانى لفظ السماء والأرض والماء وغير ذلك هى المعانى التى لها زمن الشارع والتعويل على تلك الاحتمالات يستلزم عدم الوثوق بالمحاورات والمراسلات والعقود ويخالف ما نجده فى أنفسنا من الاطمئنان واليقين فى فهم المراد منها واخبار الشارع دليل على عدم المعارض العقلى لان الكلام فى الشرعيات التى ليس للعقل طريق الى اثباتها أو نفيها فهى أمور جائزة فاذن لا معارض من جهة العقل مطلقاً نعم يرد هذا على الدليل النقلى فيما للعقل طريق الى اثباته أو نفيهِ

بان من هذا أن الدليل النقلى فى تلك الأشياء مفيــد لليقين كما فى البعث والنشور وما يتعلق بأحوال الجنة والنار الى غير ذلك

أقسام المطالب

تنقسم المطالب من جهة اثباتها بالدليل العقلى أو النقلى الى ثلاثة أقسام

الأول — ما تتوقف صحة الدليل النقلى عليهِ وللعقل طريق الى الحكم فيهِ كاثبات وجود الله جل شأنه فان ثبوت الرسالة وصدق الرسول فيما يقوله واعتبارنا ذلك دليلاً نقلياً مثبتاً للمطالب متوقف على اثبات الصانع لأنهُ ان لم يكن مثبوتاً مقطوعاً بهِ لا يحصل التصديق بمجئ رسول من لدنه فهذا المطلب لا يتأتى اثباته بالدليل النقلى عن الرسول عليهِ السلام للزوم الدور (١)

الثانى — ما ليس للعقل ولا للحس طريق الى الحكم فيهِ باثبات أو نفى وذلك كل أمر جائز الوجود بعيد عنا بحيث لا تدركه حواسنا كحكمنا ونحن فى مصر بوجود طاووس فوق سطح الجامع الأموى بدمشق اذ ليس للعقل طريق اثبات هذا الأمر أو نفيهِ ولا طريق لادراكه بالحس لبعده عنا فلا طريق لحكمنا به الا النقل ومن هذا القبيل الحكم بالبعث والنشور بعد الموت والجنة والنار وما فى الأولى من النعيم المقيم والثانية من أنواع العذاب وكذلك حال الموقف والبرزخ وغير ذلك من الأحكام المسميات بالسمعيات

الثالث — ما للعقل طريق الى اثباته أو نفيهِ ولا يتوقف عليهِ الاعتقاد بمجئ الرسول كوحدة الاله وبقائهِ وسمعه وبصره وكلامه وهذا يثبت بأحد الدليلين

---

(١) خلافاً للحشوية القائلين بان الأمرين يعلمان من الرسول دفعة واحدة بالمعجزة وهم القائلون بعدم الاعتداد بالبرهان العقلى

فلا يصح أن يقام برهان نقلى فى موطن ما تتعين فيهِ البرهنة العقلية ولا العكس

ابطال الدور

هو أن يكون الشيء علة لما هو علة له أو لما هو علة لعلته أو علة علته وهكذا ويسمى الأول صريحاً والثانى وما بعده مضمراً وهو محال بالبداهة كما قاله الفخر الرازى وقد ينبه عليه بأن العلة متقدمة على معلولها بمعنى أنه ان لم يتم وجود العلة لا يكون عنها المعلول وهو التقدم المصحح لقولنا وجدت العلة فوجد المعلول كما تقول وجد الكسر فوجد الانكسار دون العكس فلو كان الشيء علة لعلته وهى متقدمة عليه ذلك التقدم لكان متقدماً عليها التقدم المذكور ومعلوم أن المتقدم على الشيء متقدم على كل ما تقدم عليه ذلك الشيء فيكون متقدماً على نفسه بمرتبتين هذا اذا كان الدور صريحاً واذا كان مضمراً كان عدد مراتب التقدم مساوياً لعدد الأشياء التى ثبت لها وصف العلية والمعلولية

أسباب وجود الشيء

أسباب وجود الشيء — هى جزؤه وشرطه وارتفاع مانعه والتصديق بالغاية المترتبة عليه والمعد له وفاعله وصورته التركيبية والأول والأخير لا يكونان الا فى المركب فالشرط كاستقرار مجموع اللّبنات لحفظ الوجود المفاض عليها والغاية ما يقصد من العمل ويترتب عليه والتصديق بذلك الترتب هو الذى يبعث عليه والمانع ما يكون حصوله مانعاً منه كعدم سلامة أعضاء البنّاء المحركة للّبنة والمعد ما يكون موصلاً له

ويجب عدمه عند حصوله لحركة الوصول الى المنزل وحركة يدالبنَّاء لوضع اللَّبنة واستقرارها والفاعل هو الذي يفيض الوجود ومجموع هـذه الأشياء يسمى بالعلة التامة

وجوب وجود العلة الفاعلة مع معلولها

وذلك لأنه لو جاز وجود أحدهما بدون الآخر لانفكا عن بعضهما فلا يكون هذا علة ايجاده ولا الآخر موجوداً عنه وبيان ذلك أن بين العلة والمعلول تضايف كما أن الكسر علة للانكسار ودحرجة الحجر علَّة لتدحرجه والعلة مضايفة للمعلول وليس المضائف الشيء الكاسر أو المدحرِجَ . وما يتوهم من عدم وجودهما معاً كما في البنَّاء والبناء فمبناه التباس المعد بالموجد فان حركة اللبنة معدة لاستقرارها واستقرار مجموع تلك اللبنات شرط يحفظ الوجود الصادر من الواجب فكون المجموع على هذه الحالة شرط فى حفظ الوجود المفاض عليه من الواجب ومثل ذلك يقال فى وضع البذر وصلاحية الارض للانبات فالذى أفاض الوجود على النبات هو الواجب جل شأنه وكل هذه معدات وشروط . وأنت أرشدك الله ترى من هذا البيان بعد الامعان أن تلازم العلة والمعلول فى الوجود مما لايحتاج الى برهان بعد ما فسر الفلاسفة المراد بالعلة الفاعلية بقولهم ان العلم بها يوجب العلم بمعلولها لأنها شأن من شؤونه وبعد ما ذكروه هنا من التضايف ومن هذا يعلم أن المعلول طور من أطوار العلة ومظهر من مظاهرها كالضوء السارى فى الأمكنة فانه مظهر من مظاهر أصل الضوء فى مكانه الأصلى الخاص به وانما الاختلاف فيه بالشدة والضعف وهذا الاختلاف تمايز به

حقائق الموجودات عن بعضها فالاضواء المختلفة شدة وضعفاً هى أطوار الضوء الأول ومنبعثة عنه واختلافها بالشدة جعل كلا منها حقيقة مخالفة لغيرها فهى مرتبطة يبعضها فى وجودها وتمايزها هذا ما يؤخذ من أقوالهم وان لم يفصحوا عنهُ هنا حق الافصاح وقد أشار لذلك العلامة صدر الدين الشيرازى فى أسفاره الاربعة اذ قال فى الكلام على جعل الماهية ما نصه (ان صاحب الاشراق ومتابعيه ذهبوا على وفق الاقدمين من الفلاسفة الاساطين كأغاثاذيمون وانباذقليس وفيثاغورس وسقراط وأفلاطون الى ان الواجب تعالى والعقول والنفوس ذوات نورية ليست نوريتها ووجودها زائدة على ذاتها) ولنا فيه كلام بعد ابطال التسلسل

ابطال التسلسل

التسلسل هو ان يستند شئ الى آخر والآخر الى غيره الى ما لا نهاية (واذا عاد الاستناد الى واحد من الاغيار المتقدمة سمى دوراً وقد بينا لك استحالته)

استدل الشيخ الرئيس فى قسم الالهى من الشفاء على استحالته بالدليل الآتى :

قال اذا فرضنا معلولاً له علة ولعلته علة ونظرنا فى ذلك وجدنا العلة الاخيرة ذات وصف واحد وهى كونها علة للامرين اللذين بعدها أحدهما بدون واسطة والآخر بواسطة فليس لها الا وصف كونها علة واذا نظرنا للوسط وجدناه ذا وصفين وصف كونه معلولاً لما قبله ووصف كون علة لما بعده واذا اعتبرنا المعلول الأول وجدنا له وصفاً واحداً وهو كونه معلولاً

للغير فاذن لكل طرف من الطرفين حكم واحد يغاير حكم الآخر وهو المعلولية المحضة لاحد الطرفين والعلية الخالصة للطرف الآخر وللوسط أمران. ولو كان الوسط كثيراً بقي هذا الحكم فقد علمنا أن الحكم الثابت للطرفين والوسط لا يتغير وان كثر الوسط أيّ كثرة كانت فلو فرضنا عدم التناهي فى الماضى وقلنا ان كل علة لما بعدها معلولة لما قبلها الى ما لانهاية كان ما عدا المعلول الأخير الى ما لانهاية ثابتاً له ما ثبت للوسط فلا يكون الا حكمان هذا خلاف

قال أبو نصر الفارابى فى الاستدلال على ابطاله أيضاً

انا اذا نظرنا فى سلسلة الحوادث نجد ان كل واحد منها معلول لما قبله فما لم يوجد لايوجد واذا فرضنا ان تلك السلسلة ذاهبة فى الماضى الى غير النهاية كانت آحاد تلك السلسلة غير موجودة لان كل واحد منها لاينال ذلك الوجود الا من غيره فاذن لا بد من شئ آخر يتوقف عليه وجود آحاد تلك السلسلة وهو يكون علة لا معلولاً لغيره والا كان مع آحاد السلسلة فى التوقف على الغير فلا توجد وهذا باطلٌ بمشاهدة الكائنات

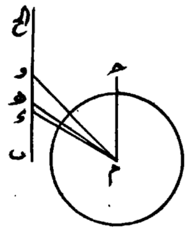
وبرهن على بطلانه ايضاً صدر الدين الشيرازى فى كتاب الاسفار بما مضمونه

ان بين العلة والمعلول تضايفاً كما قدمناه فيجب ان يكون عدد المعلول وعدد العلة متساويين كما تقضيهِ البداهة فلو فرضنا أن سلسلة الكائنات الحادثة ذاهبة الى غير النهاية كانت معلولية المعلول الأخير فى الطرف المتناهى مقابلة لعلية الذى قبله ومعلولية هذا بمقابلة لعلية ما قبله . وهكذا فلو امتد الأمر ولم يكن له آخرَ لما أمكننا الحكم بأن عدد المعلولية مساوٍ

لعدد العلية . وهذا باطلٌ فاذن لا بد من الوصول الى آخر تثبت له صفة العلية دون المعلولية حتى يتساوى العددان وهو المطلوب وفي المقام شكوك وبراهين أخرى كبرهان التطبيق وغيره وخلاف فى اشتراط أشياء في هذا البرهان بين الفلافسة والمتكلمين أضربنا عنها لطولها وشهرتها

غير أنا نقول انما ذهب اليهِ الفلاسفة فى وجوب وجود العلة الفاعلة مع المعلول القاضي بأنهُ مظهر من مظاهرها وقول بعضهم فى بيان ذلك ان النور ينبعث من مكانه الأصلى الى الأمكنة المجاورة له وان كل نور من تلك الأنوار أضعف مما قبله فى الجهة القريبة من النور الأصلى وفرضهم ذلك فى الواجب والعقول والنفوس الفلكية قاضٍ بأن ايجاد تلك الأشياء وصدورها انما هو عن الموجد الأول وهو الاله تبارك وتعالى بطريق الايجاب دون الاختيار تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيراً وقد تمحل لذلك بعض فلاسفة الاسلام كابن رشد فأجاز ان يقال ان الخلاّق جل شأنه نور يرى بالعين يوم القيامة فانهُ أطلق على نفسه ذلك قال تعالى الله نور السماوات والأرض . وأنت وفقك الله الى الحق تنزّه ربك ذا الجلال والاكرام عن سلب الاختيار الذى هو نقيصة فى المخلوق فكيف بالخالق القاهر فوق عباده

تناهى الابعاد



اختلف في تناهى الابعاد فقال قوم بتناهيها وقال علماء الهند بعدم التناهى مع اتفاق الكل على أن الابعاد أمور وجودية خلافاً للمتكلمين

احتج القائلون بالتناهى بأنها لو كانت غير متناهية لامكن أن نفرض غير متناه وليكن خط ب اح وكرة م وان الخط م ه الواصل من مركزها الى سطحها موازياً لذلك الخط ب اح الذى لا يتناهى فاذا حركت الكرة المذكورة الى وضع تزول فيــهِ موازاةِ الخط م ه المفروض فيها للخط ب اح زالت الموازاة مع ثبات طرفه م وعدم حركتهِ وصار الخط م ء الذى كان منطبقاً على الخط م ه قبل الحركة مسامة للخط ب اح بمعنى انهُ يتلاقى معهُ فى نقطة ومعلوم انه اذا كان البعد غير متناه وأن هذه المسامتة الحادثة لها أول وهو ابتــداء زوال الموازاة وأنهُ اذا كان البعد غير متناه كانت كل هــذه الفروض ممكنة وأن الممكن لا يترتب على فرضه محال فكلما كان البعد غير متناه أمكنت هذه الفروض وكلما أمكنت أمكن تعيين هذه النقطــة التى هى أول المسامتة وتقابل الخطين والتالى باطل فالمقدم مثله أما الملازمة فقد بيناها وأما بطلان التالى فلاستحالة تعيين تلك النقطة لان كل نقطة تفرض تكون التى فوقها من جهة عدم التناهى أسبق منها فلزم من فرض عدم التناهى محال فيكون محالاً واذن ثبت نقيضه وهو التناهى وايضاح ذلك أنك ترى ان نقطة المسامتة م التى هى نهاية الخط م ه المفروض فى الكرة نقطةً ثابتة ونهايةً للخط ه م المفروض من جهة المركز ونهايةَ الخط الذى حصل بحركة الكرة وهو م ء المسامت للخط ب اخ الذى لا يتناهى وهى رأس الزاوية التى بين الخطين وهى زاوية ه م ء وأن نقطة المسامتة فى الخط المتناهى م ء هى نقطة تلاقى أحد ضلعيها م ء مع الخط ب اح (الذى لا يتناهى) فى نقطة ء التى هى أيضاً نقطة المسامتة فى الخط الذي لا يتناهي ومعلوم أن هذه الزاويه يتوهم

تقسيمها الى ما لا نهاية كما نص عليهِ أقليدس فلو قسمناها الى زاويتين
حـ م هـ ، هـ م ء لكانت نقطة المسامتة فى الخط الذى لا يتناهى هى هـ
ولو توهمنا تقسيم الزاوية حـ م هـ الى قسمين حـ م و ، و م هـ لكانت نقطة
المسامتة هى و وهى فوق نقطة هـ وكذلك لو قسمنا زاوية حـ م و الى
قسمين فظهر من هذا أنا لا نتخيل نقطة أولى للمسامتة على الخط ب الخ
مع ان العقل يوافق الخيال فى المحسوسات كما هو الحال فى المسائل الهندسية
كما بيناه أولاً فى القضايا التى يتألف منها البرهان ويسمى هذا ببرهان
المسامتة وبعض العلماء فرض الخط الذى فى الكرة مسامتاً ثم فرض
تحريكه حتى صار موازياً وقال ان أول نقطة زالت فيها المسامتة لا يمكن
تعيينها بل كل نقطة تخيلناها نجد أن هناك نقطة فوقها هى الجديرة بأن
تكون آخر نهاية المسامتة وهكذا فلزم من هذه الفروض الممكنة محال
وسمى ذلك برهان الموازاة فلزم من ذلك استلزام فرض الممكن أمراً محالاً
وهو عدم تخيل تعيين نقطة المسامتة أو الموازاة وإما تناهى الخط الذى
فرض غير متناه وأن نقطة المسامتة أو الموازاة هى آخر الخط المذكور

وقد برهن عليهِ الشيخ الرئيس بانهُ لو وجد بعد غير متناه لأمكننا
ان نفرض فيهِ مثلثاً يكون بعد كل واحد من ساقيهِ عن نقطة الرأس
مساوياً لبعد ما بينهما فلو فرضناه ممتداً الى غير النهاية لكان بعد كل
واحد من ضلعيهِ عن رأسهِ المساوى للبعد الذى بينهما غير متناه من
الجهة المقابلة لرأسهِ مع انهُ مساوٍ للبعد الذى بينهما فيلزم ان يكون ما لا
يتناهى وهو ما بين الضلعين محصوراً بين حاصرين وهما ضلعاه وحصر ما
لا يتناهى محال وهذه فروض ممكنة نشأ منها محال وهو أحد أمرين إما

عدم الشيء على فرض وجوده أو حصر ما لا يتناهى بين الحاصرين المذكورين وسمى هذا برهان السلم وهناك براهين أخر كبرهان الترس والتطبيق فلا نطيل الكلام بذكرها واذا أمعنت النظر فيما أسلفناه من الكلام على ما يتألف منهُ البرهان علمت أن حكم القوى التخييلية فى المحسوسات قطعى اذا كان على نحو تلك المحسوسات بخلاف حكمه فى غيرها أو فيها على نحو غير النحو فى الاشياء التى تحس ومعلوم ان ما لا يتناهى لا يقع هو ولا أحكامه تحت الحواس بخلاف المتناهى

استدل القائلون بعدم التناهى بأن ما وراء العالم متميز فان ما يلى يمينه غير ما يلى يساره بدليل أن ما يلى القطب الشمالى غير ما يلى القطب الجنوبى وما يتميز لا يكون عدماً بل موجوداً وكمًّا لقبوله التقدير بل انه متقدر فان ما يوازي ربع العالم أقل مما يوازي نصفه فهو مقدر وكل ما يقدر فهو كم وعلى هذا فما وراء العالم بعد فيكون البعد غير متناه وذلك مردود لان ما ذكر مجرد وهم من قياس ما لم نحسه على ما أحسسناه ومثل ذلك من القضايا الكاذبة

الوجود

قبل التكلم على معنى الوجود نقول ان أول ما يدرَك ويعقَل هو الجزئيات التى تعلم بواسطة المشاعر الخمسة وهذه المشاعر تعِد النفس الى ادراك أشياء مرتبطة بها كالوجود والحقائق التى لتلك المحسوسات سواء كانت تمام ماهيتها أو جزءًا منها أو عرضاً لها فالمدرَك الاول الذي هو الجزئيات يسمى بالمعقولات الاولى والثانى يسمى بالمعقولات الثانية وتسمى

بالمعقولات الاولى أيضاً بالنسبة الى ما يعتريها من العوارض والبحث عن المعقولات الثانية وما يعتريها من الخواص مقصد صاحب الفلسفة النظرية كما أن البحث عن أحوالها من حيث الوصول الى المجهول التصوّرى أو التصديقي هو غرض الناظر فى علم المنطق . والوجود كما أوضحناه لك من مقاصد الفلسفة ولاجل تحقيق معناه نقول انهُ قد يطلق على كون الشيء موجوداً فى الخارج وهـذا مانسميهِ بالوجود الخارجى العام وهو عرض عام لانواع الوجود الخارجى وقـد يطلق على حصول صورة الشيء ومفهومه فى الذهن وهذا ما يسمى بالوجود الذهنى العام وهو عرض عام لانواع هذا الوجود وكلاهما من قبيل المشترك المعنوي بين عامة أنواعهِ وأولهما تتحقق معهُ اللوازم الخارجية فانا نجد الاضواء الخارجية لازمة لذوات الاشراق كالشمس والنار والكهرباء بخلاف ثانيهما فانهُ تسلب فيهِ تلك اللوازم فان البرودة تسلب فى ذلك الوجود عن الثلج كما تسلب الحلاوة عن السكر الى غير ذلك وهذا أمر وجدانى لا ينكره الاَّ المكابر

وما تراه لازمـاً فى الوجودين كالزوجية للاربعة والفردية للخمسة مثلاً فانما هو أمر عارض للمفهوم عروضاً اعتبارياً وهو معهُ أنى تحقق

وقد يطلق على ما بهِ الشيء هو هو لأن ماهية الأشياء منظور فيها الى أنحاء وجودهـا (وهذا هو الوجود الخاص) فاذن الوجود والماهية متغايران مفهوماً متحدان ما صدقا بمعنى ان أحدهما تمام حقيقة الاخر وان اختلفا مفهوماً فان مفهوم الماهية جنسها وفصلها القريبان ومفهوم الوجود الخاص ما بهِ الشيء هو هو (اي الجنس والفصل القريبان) مرعيا فيهما التشخصى الجزئى اذ هو مسارق للوحـدة على ما يأتى (وكل منهما فى

الماصدق عين الآخر) لان هذا الوجود لمّا كان ضعيفاً فى الممكن لكونه مستمَدًّا من واجب الوجود اعتراه ما أوجب فيه بعض المغايرة مفهوماً للماهية ويقرّب ذلك ما تراه فى تربيع الاضواء النافذة الى بصرك من نحو مربعات شباك صيد الاسماك فان تلك المربعات الضوئية فى محيطها ظلام فقد غايرت بما اعتراها من الضعف الضوء التام النافذ الى بصرك بلا حائل وعلى هـذا سقط ما يقال من انهُ لو كان الوجود نفس الماهية لكان مساوياً لها فى الاحكام واللازم باطل فالمقدم مثله أما الملازمة فبينة وأما بطلان اللازم فلأن الوجود يسلب عن الماهية ولا تسلب عن نفسها فنقول الخليل الصادق غير موجود ولا نقول الخليل الصادق ليس بخليل صادق ولأن حمل الوجود على الماهية مفيد بخلاف حملها على نفسها . فمن المفيد أن نقول الجبن موجود دون أن نقول الجبن جبن ولأن اثبات الوجود للماهية كسبيّ يحصل للنفس بالبرهنة عليهِ فلا يحصل لك التصديق بوجود حياة ثانية الاَّ بعد أن تبرهن أو يبرهَن لك عليها بخلاف ثبوت تلك الحياة لنفسها ولأن معنى مفهوم الوجود فى الانسان والفرس والجمل واحد مع تخالف ماهيات وحقائق كل واحد منها بالنسبة للآخر ولأنا قد نعقل الماهية ولا نعقل وجودها الخارجى أو الذهنى وان كان هذا الاخير حاصلاً بالتعقل والتصوّر الا أننا نغفل عن تصور هذا التصوّر الذى هو الوجود الذهنى

وكل ما ورد من هذه الشكوك على كون مفهوم الوجود عين مفهوم الماهية يرد على كونه جزءا من مفهومها وان لم يقل بهِ أحد لان جزء الشئ لا يسلب عنـهُ واثباته له غير كسبيّ وغير مفيد وتصوّر المركب بدونهِ

لا يتحقق كما هو الحال فى الشكوك الخمسة ما عـدا الرابع وقد ظهر لك من تحقيق معنى الوجود ردها لاننا قلنا انهُ متحد معها ما صدقا وان اختلفا مفهوماً ومعلوم أن هذه الشكوك لا ترد نقضاً على الشيئين المتحدين فى الماصدق دون المفهوم وعلى هذا فالوجود بالمعنى الثانى أمر عينيّ مساوٍ للماهية بخلافهِ على المعنى الاول لما تقدم من بيان معنى الوجود الخاص وابطال أدلة الرادين على العينية اذ بعد هذا يكون ثبوت العينية له بديهياً و ينبه عليهِ بما استدل بهِ الاشعري من أنهُ لو كان غير الماهية لـكانت اذا اعتبرت مجردة عنهُ عدماً محضاً فاذا اتصفت بهِ لزم اتصاف العدم بالوجود وهو محال وبأن الوجود أمر ثبوتى فيقتضى أن تكون الماهية التى يقوم بها ثابتة لأن ثبوت شيء لغيره يقتضى ثبوت ذلك الغير هذا خلاف . ونقض هذا خطأ نشأ من اعتبار الوجود العام دون الخاص على ما عرفت

ومن هنا تعلم أن الخلاف فى الوجود أهو عين الماهيـة فى الممكن وغيره كما ذهب اليهِ الأشعرى أو عرض عام للماهية في الممكن وغيره كما ذهب اليهِ بقية المتكلمين أو هو عين الماهية فى الواجب مغاير لها فى الممكن عند الحـكماء [1] مبنى على عدم ايضاحهم المعنى الذى أريد من الوجود

---

(١) واستدلوا عليهِ بأنه ان لم يكن عين الواجب لـكان صفة له فيكون ممكناً لاحتياجهِ في وجوده الى غيره ولا يجوز ان تكون علتهُ سوى واجب الوجود ومعلوم أن العلة متقدمة على المعلول فيكون الوجود متقدماً على نفسهِ كما تقدم في الـكلام على الدور أو يتسلسل ولا يعارض هذا الدليل بأنه يرد في وجود الممكن مع قولهم بانه غير الماهية فيه و بيانه أن نقول لو كان الوجود غير الممكن لـكانت ماهية ذلك

ولما كان الحكماء قائلين بأن البارى جلّ شأنه هو الوجود المحض الواجب وأن كل صفاته عين ذاته فهو عالم بنفسهِ وقادر كذلك كما أن الضوء مضئ بنفسه وأن ذلك نهاية الكمال وأنه واحد من جميع جهاته ليس له جهة تعدد مطلقاً قالوا ان وجود الخالق جل شأنه هو عينه فبعد أن يبين ذلك بياناً لا لبس فيهِ يكون اثبات الوجود له عزّ شأنه أمراً بديهياً لا يحتاج الى برهان لأن ثبوت الشئ لنفسه من الضروريات وما يذكر من الأدلة لذلك انما يكون من قبيل التنبيه ولنا كلام فى ذلك نبديه فى الالهيات ان شاء الله تعالى

الوجود الذهنى

اعلم أن الحواس الخمسة مظاهر لادراك النفس المحسوسات وانتزاعها منها أموراً مشتركة بين أفرادها المختلفة مثل الانسان المنتزعة حقيقته من أفراده الجزئية المدركة بتلك الحواس وهذا المشترك المنتزَع ليس موجوداً فى الخارج بل الموجود فيهِ جزئى خاص وكذلك القوى الباطنية كالخيال فانها مدركة للحقائق التى لم تنل حظ الوجود الخارجى وهى مظاهر لادراك النفس اياها وكلا هذين الأمرين هو الوجود المذكور وعلى هذا فالوجود

الممكن متقدمة على وجوده لانها قابلة له والقابل متقدم على المقبول وكذلك الحال بالنسبة للاجزاء المقومة للمركب لانا نقول انه يشترط فى القابل الخلو من القبول لا الوجود بخلاف العلة فانهُ يشترط فيها سبق الوجود لأن وجود المعلول لا يكون عنها الاَّ اذا كان لها الوجود فى نفسها وكذلك المقوم لا يشترط فيهِ سبق الوجود عن المقوم

الذهني عبارة عن حصول صورة ذهنية لدى المدرِك وتلك الصورة هي حقيقة المعلوم من حيث ظهورها الظلي الذي لا يترتب عليهِ أثرها المقصود منها . اذا فهمت هذا فاعلم أن قد اتفقت كلمة جمهور الحكماء على اثبات ذلك الوجود الذهني الظلي

قالوا في الاستدلال على دعواهم انا نتصور معدوم الوجود في الخارج بل مستحيله كشريك الباري واجتماع النقيضين وارتفاعهما ولا تصور الاَّ بمميز يميز الشيء المتصوَّر عما عداه حتى يقال علمهُ دون غيره ومعلوم أن المميز لا يكون الاَّ للأمور الوجودية دون العدمية لأن ثبوت المميز للشيء فرع عن ثبوته في ذاته ولما كان غير ثابت في الخارج تعين أن يكون له ثبوت آخر وهذا ما نعنيهِ بالوجود الذهني الظلي

وقالوا في اثباته أيضاً ان كل فاعل انما يفعل لغرض وغاية وحكمة يتصورها قبل الاقدام على ذلك الفعل وهي غير موجودة خارجاً قبل الاقدام واتمام الفعل بل قد لا توجد بعده ولو كان لها وجود قبل الاقدام لكان ايجادها بعد الفعل تحصيل حاصل واذا كانت قبل الفعل لا نصيب لها من التقرر كانت عدماً محضاً فلا تبعث الفاعل على الفعل فتعين أن يكون لها حين التصوّر قبل ايجادها بالعمل نوع من التقرر والثبوت وهذا ما نسميهِ بالوجود الذهني كيف وحركات عامة الحيوان انما تكون بتصوّر تلك الغايات ألا ترى أنك قد تهتز فرحاً لمجرد تصورك الوصول الى ما يلائمك ويمتلئ فؤادك رعباً وجزعاً عندما تتصور قرب وقوع فادحة بك وتعتريك قُشَعريرة عند ما تدرك شيئاً تشمئز منهُ نفسك ولا يرد على هذا ما قالوه من أن للطبائع غايات في أفعالها الطبيعية كميل جذور النبات الى

جهة الماء وصولاً الى الريّ الذي هو من أسباب النموّ وانحرافها فى الصعود عن الجدران التى تعوقها عن نمائها الطبيعى واحرازها لب الفواكه بين الاوراق التى تصونها عن المتلفات وكثرة الاوراق الحافظة لها من الآفات لانا نقول ان لها شعوراً على قدر ذلك ويقال مثل هذا فيما يصدر عن النحل والنمل من التدبير فان لأنواع النبات والحيوان شعوراً وادراكاً يناسبها كما أن لها حياة كذلك فانهم عرفوها بانها صفة تصحح لمن قامت به العلم والادراك غير أن تلك الحياة تكون على نسبة العلم قوة وضعفاً وأن ذلك الشعور النباتى والحيوانى ليس شعوراً يؤدى الى استنباط المجهولات من المعلومات بواسطة التعاريف والأقيسة ولو كان بها أكثر مما فى الانسان أو مماثلاً له لما استخدمها فى حاجهِ وانكار ذلك مكابرة لا نحفل بدحضها

أنكر جمهور المتكلمين الوجود الذهنى واستدلوا على ذلك بأنهُ لو كان للأشياء وجود ذهنى لكانت موجودة فيهِ خواصها معها فيحترق محل تصور النار من المخ وكذلك يبرد محل تصور الثلج وهكذا (وهذا معلوم الرد مما بيناه سالفاً فى الوجود المذكور) وبأنا نتصور أشياء عظيمة جداً لا تسعها قوانا العقلية كالجبال العظيمة والصحارى المترامية الأطراف والأشجار الضخمة ولو كانت صورها فى الذهن لزم المحال وقد علمنا مما سبق أن الذي فى الذهن ليس هو [1] تلك الهويات الخارجة باشباحها المعروفة بل الذى فيهِ هو صورتها من حيث ظهورها الظلى الذى

(١) يفهم من أدلة كل أنهم متفقون على أن تصور الشئ لا يترتب عليه آثاره الخارجية وان كلا منهما لا ينازع الآخر فيما يقول وانما النزاع فى تسميته وجوداً فتأمل

لا يترتب عليه خاصة من خواصها الخارجية من حرارة أو برودة أو كبر حجم أو صغره

أنواع الادراك

اعلم أن أنواع الادراك أربعة الاحساس والتخيل والتوهم والتعقل

فالاول — (وهو الادراك باحدى الحواس الخمسة الظاهرة التى هى السمع والبصر والذوق والشم واللمس) يشترط فى مُدرَكه ثلاثة أشياء الأول حضور مادته عند آلة الادراك التى هى احدى الحواس المذكورة الثانى ان تكتنف بهِ هيأته ككونه فى زمان ومكان مخصوصين ونسبة أجزائهِ الى بعضها ونسبتها الى الاشياء الخارجية ككونه أمام كذا أو وراءه وتجاه كذا وفوق هذا وتحت ذاك ولونه كذا أو طعمهُ الى غير ذلك من الكيفيات الثالث كونه جزئياً . والحاصل بالذات منهُ فى حاسة الادراك صورتهُ لا نفسهُ أما الأول فلأنهُ ان لم يحصل فى آلة الادراك أثر مخصوص عند الادراك بالفعل لكان هذا الادراك الفعلى مساوياً للادراك بالقوة وأما الثانى فلانهُ ان لم يكن ذلك الحاصل صورةِ المعلوم لما علمناه دون سواه غير أن تلك الصورة مجردة عن مادة المعلوم الخارجية من الطول والعرض مثلاً الخاصين بها بل عارية عن لوازمها الخارجية والاَّ لما أمكن العين أن تبصر الجبال الشامخة والمساوف الشاسعة ومع هذا فصورة المعلوم غير متجردة عند القوة المدرِكة تمام التجرد

الثانى — (وهو التخيل) ادراك لذلك الشئ الذى من شأنهِ أن يُحسّ ويشترط فيهِ الشرط الثانى والثالث اللذان تقدم ذكرهما فى ادراك

الحس فلا يكون فيهِ ذلك المُدرَك الجزئى بهيئته حاضر المادة لدى تخيله بل لا بد من فقدان هذا الشرط

الثالث — (وهو التوهم) ادراك معنى جزئى بسبب اضافته الى جزئى محسوس كادراك الشاة عداوة الذئب وادراك شخص مخصوص محبة آخر له ولا يشترط فيهِ الاَّ الشرط الثالث المتقدم ويجب فيهِ عدم تحقق الشرطين الأولين

الرابع — (وهو التعقل) ادراك الشئ من حيث ماهيته وحدها مع قطع النظر عما معها من المشخصات سواء كانت مدركة وحدها او مدركاً معها شئ من صفاتها الكلية فكل نوع من هذه الأنواع فيهِ تجريد أكثر مما قبله كما علمت من البيان السابق هذا كله بالنسبة للاشياء ذوات المادة والتشخص الخارجى وأما ما ليس كذلك كالمجردات فان النفس تعقلها بدون واسطة واحتياج الى التجريد

الوحدة

هى كون الماهية مشخصة تشخصاً مميزاً لها عن جميع ما عداها فهى مساوية للوجود الخاص واذا تشخصت بمشخصات عديدة بحيث كانت مع كل واحد من تلك المشخصات جزئياً مغايراً للجزئى الآخر الذى هو هى بالتشخص المغاير للتشخص الاول وهكذا سمى الجميع كثرة وقد تطلق الوحدة على الكثرة بالاعتبار والقياس الى ما هو أعظم منها كثرة كالعشرة فانها ليست ذات وحدة حقيقية بل ذات كثرة ولكن تعتبر وحدة للمئات والكثرة عرضت لها من حيث انها جملة وحدات

وفى هذا المبحث كلام طويل قليل الجدوى لا حاجة لنا بذكره هنا

واجب الوجود جل شأنه

اعلم أيها الناظر فى كتابنا هذا أرشدك الله الى طريق الفلاح أن الشريعة الاسلامية جاءت عامة للناس كافة ومن بينهم الجاهل الذى لا يعرف صناعة البرهان واذا حمل على ذلك عسر عليهِ ولم يكن فى طاقتهِ الاهتداء الى مسالكه الضيقة ومزالقهِ الصعبة فحمله على ذلك تكليف بما فوق الوسع والطاقة قال تعالى لا يكلف الله نفساً الا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا بهِ . فوجب اذن أن تكون دعوتها العامة الى التصديق بما جاء فيها والعمل بما اشتملت عليهِ مما لا يتعذر أو يتعسر ادراكه على كل فرد من الافراد الذين شملتهم دعوتها وذلك لا يكون الاَّ بالادلة الاولية على ما فيها من المعتقدات وببيان المنافع الظاهرة المترتبة على الاعمال التى أوجبتها عليهم أو ندبتها لهم والمضار الناشئة عن الافعال التى نهتهم عنها مما هو مشاهد لديهم أو مقاس عليهِ أو مركوز فى فطرهم

واما التعمق فى الادلة وتقصى البراهين فى الاثبات والبيان فليس مما قصده الشارع الشامل شرعهُ لمن ليس فى استطاعتهِ ادراك غير المحسوس وتصديق ما ليس مألوفاً وهو الصنف الكثير من الناس ولذوى الافكار الثاقبة النفّاذة الى ادراك المألوف وغيره بمنظار البرهان النافذ الى ادراك ما وراء ذلك وان لم يكن له مثال مما يشاهد لان هذا سبيل من عانى الصناعة البرهانية وعرفها حق المعرفة فلم تذهب بهِ فى

الطريق الجائر الذى غايتهُ ايباق وهلاك بمخالفتها

اذا علمت هذا قلت لك ان الذين بحثوا فى هـذا المقام سلكوا مسالك متعددة وكلها دلائل وبيانات لا تصل اليهـا أفكار غالب من كلفهم الشرع بتصديق ما أوجب عليهم تصديقهُ وفهم المرغبات فيما أمروا بهِ والمرهبات فيما نهوا عنهُ وعلى هـذا فالاجدر بنا أن نسلك فى بحثنا هذا المحجة البيضاء كى يستطيع سلوكها كل واحد من آحاد أمـة الدعوة المحمدية قياماً بما يقتضيهِ ظاهر الشريعـة المطهرة ولذلك طريقان الاولى طريق العناية والثانية طريق الابداع والاختراع

الكلام على الطريقة الاولى

هى مبنية على العناية بخَلق الانسان واتقان صنعهِ وعلى خلق الاشياء المغايرة له على طريقة تناسبهـا وتناسب وجوده ونموه وفوائده والدليل فى هذه الطريقة مترتب على مقدمتين بسيطتين أولاهما أن خلقة الانسان جاءت على الوجه الاكمل مع ما يناسبها من خلق سائر العالم على الوجه الذى هو عليهِ ثانيهما أن ما هو كذلك يكون صادراً عن موجد قادر عالم أما القضية الاولى فانا نرى أن لكل عضو من اعضاء الانسان عملاً نافعاً يتوقف عليهِ حصول الغرض المقصود من الانسان وأن له ارتباطاً بتأدية عضو آخر عمله ألا يرى أن حدقة الابصار مكوّنة من أجزاء متعددة موضوعة بنظام خاص بحيث لو زال هـذا الوضع لتعدد المبصَر لدى العين ووصل الى خزانة تلك الحاسة متعدداً وقد قيل ان بعض الناس بانكلترا كان يرى القمر الواحد خمسة عشر قمراً وكذلك

جميع ما فيها من الاعصاب الناقلة لصورة المبصَر الى الدماغ كاتحاد الجليدتين فى كل من الحدقتين وصيرورتهما جليدة واحدة ولو لم يكن كذلك لشوهد الشخص المبصَر شخصين كما يحصل للاحوَل على ما مثل بهِ متقدمو الفلاسفة وكذلك الجلد الذى يغطى بالارادة تلك الحدقة عند قصد عدم الرؤية أو قصد وقايتها من الطوارئ الضارة والهدب الذى له دخل فى الوقاية المذكورة الى غير ذلك من الفوائد وبالجملة ان شرح فوائد الاعضاء ومجيئها على غاية من الاحكام والاتقان وارتباط بعضها ببعض مما يحتاج شرحه وايضاحه الى كلام طويل والمزاولون للعلوم المتعلقة بحال تكوين الانسان وما لجميع أعضائهِ من المنافع والاغراض التى تقصد منهُ وما لبعضها من الارتباط فى تأدية البعض الآخر العمل المنوط بهِ على وجه الاحكام يعرفون ذلك على وجه أدق وأكثر ولا يسعهم الاَّ القول بان بيان ذلك يستدعى كتباً مطولة على أنهُ لا يزال المجهول من ذلك كثيراً وكلما بحثوا بدا لهم شئ منهُ لم يكن معلوماً لهم قبل ولا تزال الابحاث تظهر ما كان خفياً ما دام النظر والتنقير على تعاقب الازمان يدلنا على ذلك المعلومات التى يقف عليها الباحثون فى الازمان المتتالية فسبحان من لا تحيط العقول بحكم صنعهِ وأما خلق العالم على وجه مناسب له وللغرض المقصود منهُ فظاهر من خلق الشمس والقمر وغيرهما من الكواكب ونظام حركة الجميع والليل والنهار وفصول السنة الاربعة والارض وحجمها وحركتها المنتظمة انتظاماً لا يحس معهُ بيدء النظر الاَّ بكونها قارة ساكنة وصلاحها باوضاعها المخصوصة وما فيها من المعادن ووسائل الدفء ومواد تغذية النبات وموافقة درجة حرارتها الى حياة

الانسان وكذلك الامطار والأنهر الجارية والينابيع والآبار وموافقة الهواء للطيور والماء للاسماك والآجام والجبال الخالية من السكان لانواع الحيوان المفترسة وبالجملة كل ما خلق فى الكون اذا تأملتهُ وجدتهُ خلق على حال تناسبهُ وفى مكان كذلك ومساعداً على تكوين الانسان أو بقائهِ على حاله التى قصدت منهُ وشرح ذلك شرحاً وافياً لا يتم الاَّ للباحث فى علوم هذه الاشياء ولذا كان أكثر وقوفاً على الدليل المذكور

وأما القضية الثانية فلأن من يجد مصنوعاً على الوجه الذى قصد منه بحيث انهُ روعى فى صناعتهِ ذلك الغرض حق المراعاة يحكم لأول نظرة أن صانعهُ قادر على ايجاده على ذلك النحو وانهُ عالم بكيفية صنعه واحكامه وصولاً الى الغرض المذكور وأن ذلك المصنوع لم يحصل بطبيعتهُ كيف وقد يعتريه الفساد أو التغيير بعد ذلك من حال الى أخرى وما بالطبع لا يتخلف وأنه لم يكن كذلك من قبيل الصدفة وان قدرة موجده على هذه الحالة فوق القدر البشرية وغيرها من قدر الممكنات وأن له علماً أوسع فان العالمين المعتنين بالابحاث لم يصلوا الى الآن الى كل أسرار ذلك وله وجود أرقى وأكمل من الوجود البشري والمنكر لذلك مكابر لا تحسن مجادلتهُ

ألست تجزم اذا رأيت كرسياً موضوعاً وضعاً مخصوصاً يتمكن فيه الجالس من الوصول الى الغرض المقصود من الجلوس أن هذا الكرسى صنعهُ صانع لهذا الغرض وأنه قادر على ذلك عالم بكيفية صنعه الموصلة الى الغرض المقصود من الجلوس عليهِ واذا رأيتهُ على غير هذا النحو حكمت بأن وجوده هكذا على سبيل الصدفة أو أن صانعهُ عاجز أو جاهل بصنعه

الموصل الى الغرض المقصود وهذا من الاوّليات المركوزة فى طباع البشر وهم الذين دعتهم الشريعة الى التصديق بما جاء فيها . وايراد الشكوك على هذا الدليل مكابرة فيما تألفهُ الطباع وترضاه العقول فمثَل المشكك فى ذلك يقرب من مثَل الذين قال الله تعالى فيهم ذاماً لمكابرتهم فى الحق (ولو فتحنا عليهم باباً من السماء فظلوا فيهِ يعرجون لقالوا انما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون)

الكلام على الطريقة الثانية

هذه الطريقة مؤسسة على قضيتين كلتاهما مغروسة فى الفطر والطبائع أولاهما ان الكائنات مخترعة وثانيتهما أن كل مخترَع له مخترِع قدير عليم . أما كون الكائنات مخترعة فلما نراه من أن أنواع الجماد والنبات تصير كائناً حياً كما هو ظاهر فى تكوين الانسان وغيره من أنواع الحيوان فان ذلك يدل على أن الحياة مخترعة فى تلك الاشياء أى كانت بعد أن لم تكن وأما الثانية فظاهرة لأن ذلك لو كان لطبيعة تلك الاشياء لما تخلّف عنها ولو كان من قبيل الصدفة لما كانت أنواع الجماد والنبات على نظام خاص فبان من هذا أن لهذا العالم مخترعاً عالماً قديراً مريداً

وبعض الناظرين فى هذا المقام الذين سلكوا الطرق الغامضة التى ليست من مقاصد الشريعة فى شىء قسموا المعلوم الى واجب وهو ما كان وجوده ليس آتياً من غيره وهو الله جلّ شأنه والى ما ليس كذلك بان يكون وجوده من غيره ان وجد وسموه بالممكن أو بأن لا يتأتى وجوده وهو المستحيل وثانى الاقسام هو العالَم وبرهنوا على وجود الاول ببراهين

كثيرة منها أنهُ ان لم يكن لهذه الممكنات موجد واجب لزم الدور أو التسلسل وكلاهما باطل كما قدمناه فما أدى اليهِ باطل فثبت أن للممكن موجداً واجب الوجود وهو المطلوب وقد علمت مما أشرنا اليهِ سابقاً أن دليلّ ابطال التسلسل لا يخلو من شكوك وأنهُ بعيد الادراك عن الذين لم يعنوا بالبراهين وأن مطالب الشريعة شاملة لهم وللخواص الذين مارسوا صناعة البرهان ولذا عولنا فى الاستدلال على الطريقتين السالفتين وقد أرشدنا اليهما ما جاءت بهِ الشريعة المصطفية فان كثيراً من آى القرآن الكريم تشير اليهما قال الله تعالى فى الانسان منبهاً على الطريقة الأولى (ألم نجعل له عينين ولساناً وشفتين وهديناه النجدين) وقال أيضاً (خلق لكم ما في الارض جميعاً — ألم نجعل الارض مهاداً والجبال أوتاداً وخلقناكم أزواجاً وجعلنا نومكم سباتاً وجعلنا الليل لباساً وجعلنا النهار معاشاً وبنينا فوقكم سبعاً شداداً وجعلنا سراجاً وهّاجاً وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجاً لنخرج بهِ حباً ونباتاً وجنات الفافا — قل هو الذى أنشأكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلاً ما تشكرون — قل أرأيتم ان أصبح ماؤكم غوراً فمن يأتيكم بماء معين — تبارك الذى جعل فى السماء بروجاً وجعل فيها سراجاً وقمراً منيرا — فلينظر الانسان الى طعامهِ انا صببنا الماء صباً ثم شققنا الارض شقاً فأنبتنا فيها حباً وعنباً وقضباً وزيتوناً ونخلاً وحدائق غلباً وفاكهة وأباً متاعاً لكم ولأنعامكم) وقال تعالى (والانعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون وتحمل أثقالكم الى بلد لم تكونوا بالغيه الأَّ بشق الانفس ان ربكم لرؤوف رحيم والخيل والبغال والحمير لتركبوها وذينة ويخلق ما

لا تعلمون) وقال منبهاً على الطريقة الثانية (فلينظر الانسان مم خلق خلق من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب) — أفلا ينظرون الى الابل كيف خلقت الخ — يا ءيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له ان الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له — انى وجهت وجهى للذى فطر السموات ولأرض حنيفاً — وقال منبهاً عليهما معاً (يا ءيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون الذى جعل لكم الارض فراشاً والسماء بناءً وأنزل من السماء ماء فاخرج بهِ من الثمرات رزقا لكم فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون) فان قوله تعالى (الذى خلقكم والذين من قبلكم) تنبيه الى دليل الاختراع وما بعده ارشاد الى دليل العناية وكذلك قوله تعالى (وآية لهم الارض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حباً فمنهُ يأكلون وجعلنا فيها جنَّاتٍ من نخيل وأعناب) ومثل ذلك قوله تعالى (الذين يتفكرون فى خلق السموات والارض ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك فقِنا عذاب النار) فلو كان غير هاتين الطريقتين أحسن منهما مسلكا لاشار له الشارع فلما أرشد اليهما علمنا انهُ لا ينبغى سلوك سواهما لما قدمناه ولان الذين سلكوا غير ذلك من الحكماء والمتكلمين تخبطوا فى سيرهم وما وصلوا الى قصدهم لعنايتهم ببيان غوامض الاشياء البعيدة عما هو فى الفِطر واعتدادهم بدحض الشكوك الواهية فوقعوا فى بحر لجى لم يستطيعوا الخروج منه فالأجدر بالسالك فى هذا المقام الاَّ يطوح بنفسه فيما تنبو عنه العقول مجانباً ما أرشده اليه الشرع الشريف وعامة الكتب السماوية والله يهدى من يشاء الى طريق مستقيم

أيها الأخ فى الله قد وضح لك مما قلنا وجود اله قادر مريد عليم

غير أنك محتاج لحل ما سوف يرد عليك فى مجموعنا هذا من ايضاح غوامض مسألة القضاء والقدر الى زيادة بسط وايضاح فى صفة علمه جل شأنهُ فاعلم هداك الله الى اتباع طريقة الفرقة الناجية التى كان عليها رسول الله صلى الله عليهِ وسلم وأصحابه رضوان الله عليهم أن الشريعة الغراء لم تأمرنا بالبحث عن حقائق صفات الاله عزّ شأنه وعن كونها عين ذاته أو غيرها أو ليست عيناً ولا غيرا كما خاض فيهِ القوم وصار مزلقة للأفهام لما قلناه من أنها انما جاءت بالسمحة السهلة وهى العقائد الواضحة الى نبهت على اعتقادها بالأدلة السهلة المركوزة فى طباع أمة الدعوة وحضت على الأعمال الجالبة للرقى والسعادة فلا نطوح بالمطالع الى تقصى براهين الحكماء والمتكلمين وغيرهم مما لم تأمرنا بهِ شريعتنا المطهرة غير أنا وجدنا كثيرا من الناس خاضوا فى مسألة القضاء والقدر وتعدوا حدود الله فرموا الشريعة بما رموها وما ذلك الاّ من انحراف أحلامهم وعدم وصولهم الى أغراضها وانا وان كانت شريعتنا ذهبت بنا الى الاعراض عن الخوض فى هذا الخضم المظلم الذى لا يأمن السابح فيهِ من الغرق وعدم الوصول الى شاطئ السلامة رأينا أن نعتصم فيهِ بركوب سفينة النجاة راجين بأن يعصمنا القادر العليم مما وقع فيهِ غيرنا وما حملنا على الولوج فى هذا المعبر الحرج الاَّ ما رأيناه من شغف كثير من أبناء هذه الأمة بمعرفة الحق الواضح فى ذلك وأن تركهم وشأنهم مجلبة الضلال فانهم لا يالون بالقدح والطعن والاعتراض على ذلك حتى اذا رجوتهم الاعراض عنهُ كما تقتضيهِ الشريعة زادوا فى اللجاج والاعتراض ومعلوم أن للوسائل حكم المقاصد فاذا كانت وجهتنا فيما نقول إرشادهم وازالة ما لصق بقلوبهم سوغ لنا الشارع

أن نتكلم فى هذا الموضوع متمسكين بحبل الله الذى لا يضيع من استمسك به وقد عزمنا بعون الله على الكلام فيهِ بعـد انتهاء مبحث الرسل عليهم الصلاة والسلام وقد تكلم أبو الوليد حفيد بن رشد على ذلك المبحث ووفاه حقه ولكن بحثهُ فيهِ جاء ناقصاً لأنهُ وان أجاد القول احكاماً وترتيباً وتهذيباً فى صدور أفعال الانسان وبيّن وجه كونهِ مختاراً وأبان ترتب الثواب والعقاب على الأعمال الاَّ أنهُ أهمل الكلام على مسألة علم الله بتلك الافعال وبيان ان كان ذلك العلم موجباً لحصول الفعل أو لا فبقى بيانهُ مبتوراً غير مقنع لمن طالعهُ من أولئك القوم وكثيراً ما أحلنا بعض المتحيرين فى هذا المبحث على مطالعة ما كتبهُ فقرؤه وعادوا وعادت معهم الشكوك فلذا رأينا أن نذكر شيئاً من ايضاح معنى علمهِ جلّ شأنه لأن له فائدة فى بيان ازالة غوامض ذلك الموضوع كى نحيل المطالع عليهِ عند البحث فيهِ ان شاء الله تعالى

لعلك تعلم أيها الحبيب أن علم الله جلّ شأنه ليس كعلمنا ألست تعلم الحوادث التى تحصل فى الحال ولا تعلم ما أكنهُ المستقبل الاَّ اذا جاء وحصلت فيـهِ تلك الحوادث فاذن لا تبصر ولا تسمع ولا تشم الحادث الزمانى قبل أن يصل اليك الجزء الاستقبالى من هذا الامتداد الواقع فيهِ ذلك الحادث ويكون حالياً بعد ان كان استقبالياً ثم تتعقله كما أسلفناه لك فى الكلام على مراتب الادراك وليس هذا شأنك وحدك فى ادراكك بل هو شأن كل حادث زمانى يدخل تحت حيطة الزمن فلا يدرك من حوادثهِ الاَّ ما يمرّ عليـهِ ويسمى قبل المرور حادثاً استقبالياً وعنده حالياً وبعـده ماضياً وأما من ليس زمانياً فلا يدخل تحت حكم الزمن وحيطتهِ

بل يعلم كل الحوادث فى أزمانها وكذلك أطوار الشىء الواحد فى الأزمنة المختلفة فانت تعلم الثّماد وقت كونه ثماداً ثم تعلمهُ بعد ذلك نباتاً ثم بعد ذلك حباً ثم خبزاً ثم دماً ثم نطفة ثم علقة ومضغة ثم جنيناً وهكذا فى جميع أطواره ولم تبصر هذه الاطوار دفعة واحدة لان كلاً منها واقع فى جزء من الامتداد الزمانى فلا تراه الاَّ اذا مر أمامك ذلك الجزء بخلاف العالِم الذى ليس بزمانى ولا داخل تحت هذا الحكم فانهُ يعلم ذلك الشىء باطواره المختلفة مرة واحدة ولنضرب لك مثالاً فى المشاهَد كى تقيس عليه الغائب تقريباً لعقلك كما ضرب الشارع الامثال على هذا النحو فى مواضع كثيرة من القرآن الكريم وكذلك رسوله عليهِ السلام فى كثير من الأحاديث الشريفة تقريباً للافهام فان الناس انما يفهمون بما يألفون (١)

اذا فرضنا خيطاً يبلغ طوله نحواً من الف متر تقريباً وكان لون كل مائة متر منه غير لون مائة متر أخرى ومددناه تلك المسافة ووضعنا شيئاً

---

(١) قال الله تعالى يا ءيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له ان الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له وان يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقدوه منهُ وقال تعالى مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم وقال عليهِ السلام في فضل من عالِم وعلم فيما رواه ابو بردة عن أبي موسى مثل ما بعثني الله بهِ من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضاً فكان منها نقيةٌ قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعُشب الكثير وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا وأصاب منها طائفةً أخرى انما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأً فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعهُ ما بعثني الله به ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به

ضيق الحدقة كالنملة مثلاً أمام أحد طرفيه فانها لا تبصره ملوناً بلون الاَّ بلون المائة الأولى فاذا جز أمامها الخيط الى أن قاربتها المائة الثانية فانها تدرك لونها وهكذا واذا أبصر انسان سليم الحدقة ذلك الخيط من عند أحد طرفيه فانهُ يدرك هـذه الالوان المختلفة دفعة واحدة فهذا الخيط الممتد شبيه بالامتداد الزمانى كما أن النملة كالعالِم الزمانى الذى حَكم عليه هذا الامتَداد الطويل فلم يبصر الاَّ بعضه الملون باللون الخاص به والانسان ذو النظر العالى عن نظر النملة لم يحكم عليهِ هذا الامتداد بحصر حسه فى جزء خاص منه كالخارج عن حكم الزمان وحيطته فمن هذا يضح لك أن العالم جل شأنه ألذى لا أول ولا نهاية له وهو خالق كل شئ وأنهُ ليس فى زمان (لان الزمان اما مقدار حركة الكوكب أو أمر توهمى هو مقارنة متجدد موهوم لمتجددٍ معلوم والله خالق الكوكب وحركته) لا تسرى عليه الاحكام الزمانية فليس عند ربك ماض ولا مستقبل وهذا سر ما سمعت فى مباحث النحو الابتدائية من أن الفعل اذا أسند الى الله تجرد عن الزمان

لا إخالك الاَّ قد عرفت أن العالَم ما زال ولا يزال كما علمهُ ربك وأنه لم يتغير عن تلك الحال فى جميع أطواره فعلى هذا الله عالم بالعبد وبجميع أطواره لانهُ حاضر لديه بهذه الاحوال فالله عَلِمهُ نطفة وعلقة وطفلاً ويافعاً وشيخاً وهرماً وهكذا وعالم بالقدرة والاختيار اللذين منحهُ اياهما وأنهُ أساء استعمالهما أو أحسن كما بين له فعلمهُ بذلك تابع لتلك الاحوال اذ من المقرر أن العلم تابع للمعلوم فعلمهُ اياه على هذه الحال تابع لكونهِ يكون كذلك لا أن العلم هو الذى أوجب عليهِ ذلك الأمر ومعلوم أن

العلم الصحيح يكون مطابقاً للواقع لا محالة فلا بد أن تكون أحوال العبد وأطواره على وفق العلم لكونه علماً حقاً لا أن العلم هو الذى اقتضى ذلك ويقرب لك هذا ما يحصل كثيراً فيما نشاهده وهو أن السيد قد يسلم مفاتيح داره لبعض خدمه ويقول ان سرقت أعاقبك بكذا وكذا ويعلم انهُ لا بد له من السرقة أو يعلم انهُ أمين غير سارق فاذا حصل منهُ الاول كان علمه حقاً وهذا العلم مع كونه حقاً ليس مجبراً للخادم على السرقة وغير مانع من العقوبة كما أن الحال في الفرض الثاني (وهو عدم السرقة) كذلك ولو كان علمه تعالى ذلك جابراً للعبد على الفعل أو الترك سالباً لاختياره لما ذمهُ على فعل المحرم ومدحهُ على فعل الواجب ألا ترى انهُ عزّ شأنه ذم القائلين ذلك بقوله (وقالوا لو شاء الله ما أشركنا نحن ولا أباؤنا) وكذلك ما ورد فى صحيح البخارى مما معناه أن رسول الله صلى الله عليهِ وسلم جاء الى منزل على كرم الله وجههُ وطرق الباب فوجده وفاطمة نائمين فقال ما منعكما أن تقوما فقال على رضى الله عنهُ ان أنفسنا بيد الله ان شاء أرسلها وان شاء لم يرسلها فتركهما عليهِ السلام وولى مغضباً يضرب بيده على فخذه ويقول لا إلٓه الاَّ الله وكان الانسان أكثر شئ جدلا

هذا وما قيل فى تقسيم العلم الى قسمين أحدهما انفعالي وهو حصول صورة المعلوم فى الذهن وان هذا هو التابع للمعلوم وثانيهما فعلى وهو تصور ما لم يكن موجوداً ثم ايجاده فى الخارج على وفق تلك الصورة وفى هذا المعلوم تابع للعلم على عكس القسم الأول فان هذا خاص بعلم الحادث الزمانى أما علم القديم واجب الوجود فليس على هذا النحو بل على حسب البيان الذى ذكرناه وانما أطلنا فى هذا المقام وبيناه البيان الذى يستطاع

مع صعوبة ادراكه لدى الجمهور الذين لم يعتادوا تصور مثله قياماً بحل الشكوك التى نوهنا بها

الوحدانيـة

اتفقت الطوائف كافة على وحدانية الخالق جلّ شأنه ما عدا الثانوية فانهم خالفوا فى ذلك وقالوا انا نجد فى العالم خيراً كثيراً وشراً كثيراً وأن الواحد لا يكون خيّراً شرّيراً بالضرورة فتعين أن يكون للاول موجد وهو النور وللثانى موجد آخر وهو الظلمة وما ذهبوا اليهِ مردود بأنهم ان أرادوا بما قالوه أن الواحد لا يصدر عنهُ خير كثير وشر كذلك قلنا هو غير ممنوع بالضرورة وان أرادوا به أن الواحد لا يكون غالباً خيره على شره وشره على خيره فان ذلك هو معنى الخيّر والشرّير سلمناه وقلنا ان كل ما فى الوجود خير بهذا الاعتبار

ومنهم المانوية والديصانية والمزدكية والمزقيورية والكينوية أما المانوية فهم أصحاب مانى الحكيم الذى ظهر فى زمان سابور بن أردشير بعد ما بُعث عيسى عليهِ السلام وقتله بهرام بن هرمز بن سابور ومن شريعتهم ايجاب أربع صلوات فى الليل والنهار وتحريم الزنا والقتل والسرقة والكذب والسحر وعبادة الأوثان وغير ذلك ويعتقدون الشرائع والأنبياء وأن أول من بعث بالحكمة والنبوة آدم عليهِ السلام ثم شيث ونوح وابراهيم عليهم السلام وزرادُشت والمسيح صلوات الله عليهِ ومحمد صلى الله عليهِ وسلم عند متأخريهم الذين كانوا بعد بعثته عليهِ الصلاة والسلام ويقولون ان للخير الهاً وهو النور وللشر الهاً وهو الظلمة وكل منهما قديم وأما

الديصانية فهم أصحاب ديصان وهو من أتباع مانى وقد خالفهُ فى بعض أشياء وادعى النبوة

ومعتقدهم معتقد المزدكية أصحاب مزدك الذى ظهر فى زمن أنو شروان وقتله الملك المذكور وهو قدم النور والظلمة على الوجه الذى اعتقده المانوية الاَّ ان المزدكية يقولون النور عالم حساس وانهُ يفعل ما يفعله بالقصد والاختيار بخلاف الظلام فانهُ جاهل أعمى ويفعل ما يفعل بحكم الاتفاق والخبط والديصانية يخالفونهم فى ذلك ويقولون ما يحدث من الشرور انما يحدث عن الظلام بطبعه لا بحكم اتفاق واما المزقيورية وهم التابعون لمزقيور وهو رجل من فارس ادعى النبوة قبل بعثة النبي عليهِ السلام فقد وافقوا أولئك المذكورين فى اثبات الوهية النور والظلمة وخالفوهم في اثبات أصل جعلوه إلهاً ثالثاً وهو المُعدل الجامع بين النور والظلمة وقالوا انهُ دون النور فى المرتبة وفوق الظلمة وحملهم على هذا ما رأوه فى الوجود من الخير والشر وما هو بينهما فقالوا ان الموجد كما لا يكون خيّراً وشرّيراً معاً كذلك لا يكون خيّراً ومتوسطاً بين الخيّر والشرّير ولا يكون شرّيراً ومتوسطاً بين الخيّر والشرّير وأما الكينَوية فقد قالوا ان الاصول ثلاثة النار والماء والارض فالنار خير بطبعها يصدر منها الخير المحض والماء ضدها فيحصل عنهُ الشر الخالص والارض يصدر عنها ما كان وسطاً بين الخير والشر وهو ما كان فيهِ أحد الأمرين مشوباً بالآخر . واتخاذ بيوت للنار وتعظيمها بالعبادة ناشئ عن مذهب أولئك القوم وأما الوثنيون فقائلون بوحدة الاله وما اتخذوه معبوداً لهم من أنواع الأوثان انما هو مثال للكواكب والعظماء من الانبياء

أو الملائكة أو البشر فعدهم من المشركين نظراً لقولهم بأن تلك الاوثان تستحق العبادة فأشركوا مع الآله غيره من الاوثان فى هذا الاستحقاق لا لانهم يقولون بتعدد الآلهة . وظاهر أن ما ذهب اليه الثانونية باطل بالنظرة الاولى فان الضوء والظلمة من الاعراض التى تقوم بالجسم واذا كان الجسم جائز الوجود فمن باب أولى ما افتقر فى وجوده الى ذلك الجائز وهو العرض القائم به والاله جلّ شأنه واجب الوجود

دليلنا على أن الله واحد ما هو مركوز فى الفطر والطباع من أنه لو كان اثنين لكان وجود العالم منسوباً الى كل واحد منهما لما قدمناه من أن ذلك الواجب هو الموجد للعالم ومعلوم أن المادة الواحدة لا تقبل فعلين من نوع واحد لفاعلين واذا كان الامر كذلك ففعل احدهما بالمادة ما فعله الآخر لا يتأتى مع بقائها بل يكون ذلك قاضياً بفسادها فلا يوجد شىء من العالم وهذا باطل . ألا ترى أنهُ اذا شكل جسم من الاجسام بشكل مربع مثلاً يستحيل أن يشكل بهذا الشكل بعد التشكيل الاول وأنك اذا ذهبت بهِ الى ذلك أفسدت مادته فاتضح لنا من هذا برهان على عدم تعدد الاله وصورته هكذا . لو تعدد الاله لفسد العالم والتالى باطل فالمقدم وهو تعدد الاله مثله واذا انتفى التعدد فقد ثبت نقيضه وهو وحدته أما الملازمة فبينة مما قلناه وأما بطلان التالى فلما نشاهده من وجود العالم ولو انفرد كل منهما بعمل مخالف لعمل الآخر فاما أن يتكافئا فلا يوجد شىء وهو محال وأما أن يتغلب أحدهما على الآخر فيكون هو الاجدر بالالوهية ويكون الثانى عاجزاً فلا يكون الهاً والى الشق الاول الاشارة بالآية الكريمة وهى قوله تعالى (لو كان فيهما آلهة الاَّ الله لفسدتا)

والى الثانى الاشارة بقوله تعالى (ما اتخذ الله من ولد وما كان معهُ من اله اذن لذهب كل اله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله وتعالى عما يقولون علوا كبيرا) ولو اختص واحد منهما بخلق شىء واختص الآخر بخلق غيره فاما أن يجوز لكل منهما أن يخلق ما خلقه الآخر أو يعدمه وكلاهما محال كما تقدم أو لا يجوز وهو باطل أيضاً لان كلاً من المخلوقين ممكن وموجده هو الاله كما قدمناه فعدم جواز خلقه اياه ناشىء من تعلق قدرة الآخر به فيكون عاجزاً والآخر قادراً فلا يكون الهاً

وما قلناه هو الظاهر لدى الجمهور الذين خوطبوا بالشريعة فانهُ يستوى فى التصديق به من زاولوا البحث البرهانى ومن لم يزاولوه وهذا ما عُنينا بذكره بخلاف ما قالته الحكماء وغيرهم فى الاستدلال على هذا المطلوب فانه خاص بأهل البحث والنظر لا تسهل فقاهته الاَّ لهم ولمن على شاكلتهم . ولا بأس بأن نشير اليه سالكين طريق الايجاز

قالوا لو وجد الهان لاشتركا فى شئ وتمايزا فى آخر لان الاثنينية تستدعى التمايز ومعلوم أن ما بهِ الاشتراك غير ما بهِ الاختلاف فهذان الأمران اما أن يكونا داخلين فى الذات فيجئ التركيب المستلزم للامكان واما أن لا يكونا كذلك بأن كان أحدهما ذاتياً والآخر ليس كذلك أو يكونا عرضيين فمنشأ عروض أحد المختلفين غير منشأ عروض الآخر فهذان المنشآن اما أن يكونا ذاتيين أو عرضيين فان كان الثانى قلنا فى شأنهما ما قلناه فى العارضين لأجلهما وهكذا فاما أن يدور الأمر أو يتسلسل أو ينتهى الى تركيب فى ذات كل منهما وكل ذلك باطل فما أدى اليهِ وهو تعدد الاله باطل واذا بطل ثبت نقيضهُ وهو الوحدانية وهذا

البرهان كما قلناه لا يفقهه الاَّ من زاول النظر على أنه يرد عليه الشكوك الواردة على برهان ابطال التسلسل كما قدمناه

قد ثبت لك مما سبق وجود الاله وأنهُ عالم قادر مريد وما عدا ذلك من صفات الكمال التى أطلقها على نفسهِ جلَّ شأنه فى كتابهِ الكريم وصرحت بها الاحاديث النبوية منها ما يثبت بالعقل والنقل ومنها ما يثبت بالنقل لا غير كالسمع والبصر والكلام وانا من القائلين بأن للدليل النقلى الذى اشتمل عليهِ الكتاب المجيد والحديث الشريف تأثيراً فى النفوس واذعاناً من القلوب وانهُ جاء موافقاً لها ولما هو مركوز فى الطباع البشرية فهو عام شامل يخاطب بهِ العالم وغيره من هذه الأمة ولذا ضربنا صفحاً عن تعداد تلك الصفات واثباتها للواجب جلَّ شأنه اكتفاء بما جاء فى الكتاب العزيز والسنة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام وهذا بخلاف الدليل العقلى فانهُ مزلقة العقول لا يدركه الاَّ الخاصة مع ما يرد عليهِ من الشكوك وما يعتوره من المشاغبات فان أرباب النظر أطلقوا للعقول سراحها فيما هو فوق مداركها فتخبطت فى البحث وكلما جدت فى الوصول الى الحق بعدت عنهُ يتضح ذلك أجلى اتضاح لمن نظر فى كتب القوم وشاهد ما وقعوا فيهِ من الابحاث الطويلة وما وصلوا الى شئ حتى انك لتجد كل دلائلهم غير خالية من الشكوك . راموا أن يصلوا بقواهم العقلية الى مطالب لا يعوق العقل عن الوصول اليها أقل شك وحملوه على غير المستطاع فاجهدوا الفكر وأطالوا النظر ولم يصلوا الى ما أملوا ولو عولوا على ما جاء فى الشريعة لما حاروا تلك الحيرة ولصرفوا أزمانهم فى الاعمال التى تصل بهم الى طريق السعادة والله الموفق للصواب واليهِ المرجع والمآب

الرسل عليهم السلام

اعلم هداك الله الى ادراك الصواب وعصمك من الزلل ووفّقك الى التمسك بشريعة حبيبه وصفيه محمد صلى الله عليه وسلم أنك اذا أجلت النظر فى أنواع الموجودات من أول المواليد الثلاثة راقياً الى ما فوقها وجدت أن أفق الجمادات مرتبة أنواعه ترتيباً غريباً بديعاً منها ما هو عريق فى أفق الجمادية ومنهـا ما يترقى عنه شيئاً فشيئاً الى أن يصل الى نهاية هذا الافق ويقرب مما هو فى الدرجـة السفلى من النبات كما هى خاصة النبات فمنه ما هو قريب من الجماد (كالحشائش التى لا بذر لها يحفظ نوعها) وكذا الحال بالنسبة لافق النبات فان بعضه يترقى عن الآخر شيئاً فشيئاً حتى يقارب أول افق الحيوان [1] فيرى فيه بعض

---

(١) وذلك كالنخل فانهُ كالحيوان فى أنه اذا قطع رأسه لا ينمو وكذا شجر الفاكة فان فيه شيئاً من الادراك الحيوانى ألا يرى أنهُ يحفظ ثمره من الآفات بما يحيطه من الاوراق وأن جذوره تذهب الى جهة الماء لأجل الرى والى الجهـة التى فيها الغذاء والنماء ومثال الحيوان السافل الذى يشبه الطبقة العالية من النبات الاسفنج والمرجان فان الاول يتنفس في الماء ويتغذى بواسطة الاجزاء الممتدة من فمه ويفرز الاسفنج وأن الثاني ذو معدة تحفظ الغذاء وتفرز فروعاً على شكل شجرة تتفرع منها فروع كثيرة وهذه الفروع فيها جملة من هـذا الحيوان صغيرة الجسم معداتها متصلة ببعضها بحيث ان تغذية بعضها تغذية للبعض الآخر وهـذه تفرز فروعاً في تلك الشجرة وهكذا ويسمى ذلك في التاريخ الطبيعى بالمستعمرة المرجانية وما فى الاسفل يسمى هرما وما فى الاعلى من هذه الفروع يسمى شابا والاول يموت بعد الافراز وما ينشأ عنه وهو الشاب لا يسمى هرما ولا يموت الا بعد افرازه فروعا أخرى وهكذا . والذى يشبه الطبقة السفلى الانسانية من النوع الراقى الحيوانى مثل

خصائصه كالاحساس وكذلك الحال فى أفق الحيوان فان الصنف العالى منه يقارب السافل من الانسان فكل هذا يرشدك الى أن الانسان على هذا السنن فيكون فيه نوع راق يقارب أول أفق الملائكة التى تدرك الحقائق الكلية بذاتها بدون توسط آلات الادراك والاحساس التى للانسان كما أسلفناه عند الكلام على النفس الناطقة وهذا الصنف منه ما يكون اتصاله بذلك الافق فطرياً من الله سبحانه وتعالى وهؤلاء هم الانبياء الذين اجتباهم الله لقيادة النوع الانسانى الى ما فيه نجاحه وفلاحه ومنه ما يكون له ذلك بوسائط يستعين بها كشغل حواسه بوسائل أخرى من النظر فى الاجسام الشفافة أو بعض العظام أو السجع كى يشغل حواسه عن ايرادها المحسوسات الى القوى التى تجردها عن العوارض تدريجياً حتى تعلمها النفس الناطقة أمراً كلياً مجرداً عن تلك العوارض الجزئية وأنواع هذا الصنف هم أرباب الكهانة ولما لم يكن اتصال نفوس هؤلاء بعالم الملائكة فطرياً بل ناقصاً لما فيه من الاستعانة على الوصول اليه بالوسائط الخارجية جاء فيه الخلط والخطأ بخلاف أهل الصنف الاول ولذا ندبهم الله للارشاد

القرد فانه يشبّه بالادون من الانسان فى الادراك واستنباط الحيل قال الدكتور فلورى الفرنسى الذى عنى بدراسة مخ أنواع الحيوان فى سنة ١٨٥٠ بحيث اذا عرض عليه مخ أى نوع من أنواعه يحكم بانه مخ نوع كذا منه (ان مخ القرد يشبه مخ الانسان غير أنه أصغر منهُ حجماً فهو كمخ الطفل) وهو شبيه به أيضاً من حيث انتظام جذعهِ الاعلى والتقاء ابهامه مع كل اصبع من أصابع يديه كما هي الحال بالنسبة للانسان لاجل سهولة المسك والقبض بالاصابع كما تقتضيه الصناعات اليدوية

واذ قد علمت ان المدرَك المحسوس يصل بواسطة قوى الادراك الى النفس كلياً مجرداً عن العوارض الجزئية فاعلم أن أولئك الاخيار الذين تتصل نفوسهم بأفق الملائكة وتدرك العلوم الكلية الرحمانية مما يتعلق بتشريع الاحكام وتهذيب الاخلاق وبالحكم والمواعظ والاخبار الماضية والآتية التى لها ارتباط بالتشريع والتهذيب تتدرج مدركاتهم هابطة من النفوس الى قوى الادراك حتى الحواس فتلبس لباس تلك القوى التى تكسوها لباس العوارض الخارجية والمدارك البشرية حتى يتأتى تبليغها الى البشر من أمته الذين ندبه الله الى القيام بهدايتهم اذ من المعلوم أنهُ لا بد من مناسبة بين المتلقِي والمتلقَّى عنهُ كما أنه لا بد من ذلك بين المبلِّغ والمبلَّغ وهذا الاتصال الذى يتأتى بهِ الوقوف على تلك المعارف التشريعية والكمالات البشرية هو المعبر عنهُ بالوحى وما ذكر فيهِ من أن له صلصلة كصلصة الجرس أو أن الملك يتمثل له أحياناً الخ ما هو مذكور فى حديث البخارى جواباً للحارث بن هشام الذى سأله صلى الله عليه وسلم عن الوحي هو اشارة الى تصوره بالمدارك البشرية ولباسه ثوبها واذ كان هذا الاتصال بأفق الملائكة فيهِ شيء من انسلاخ الروح عن البدن وجب أن يكون شديداً على صاحبهِ كما يشير الى ذلك الحديث الشريف فانهُ ذكر فيهِ أنه كان يعانى من ثقل الوحى معاناة شديدة وأن جبينهُ ليتفصد عرقاً الى آخر ما هو معلوم ومن البين أن الصعب اذا تكرر اعتيد وأصبح أقل صعوبة مما كان قبلا وهذه حكمة نزول القرآن منجماً لا دفعة واحدة وطول المنزل فى المدينة عن المنزل فى مكة

ظهر من هذا أنهُ يجوز أن يبعث الله من هذا النوع انساناً يهديه

ويرشده الى طريق الرشاد . انا نشاهد فى الطيور والنحل والنمل قادة لها من أجناسها فمن الممكن أن يكون الامر فى النوع الانسانى كذلك فيجوز أن الحىّ العالم يرسل من قبله من يختاره لذلك غير أنهُ قد يدعى ذلك من لم يختصه الله بهذه المنحة واذن فلا نقبل قول من يدعى هذه الدعوى الا اذا قامت لدينا بينة وأمارة على صدقهِ فيما ادعاه فاذا تم ذلك صدقناه فيما يقوله من أمر التشريع واعتقدنا عصمته من الخطأ فيه ومن كتمانه اياه وأمانته على ما ائتمنه الله عليهِ من تلك الاحكام الشرعية وما يتعلق بها ونفاذ ادراكه فيها كى يجلى ما غمض علينا أمره مما تدعو الى ضرورة بيانه حاجة التشريع واعتقدنا فيـهِ العصمة من كل أضداد ذلك والاَّ ذهب الغرض المقصود من ارساله

أمارات صدق مدعى النبوة

هى المعجزة وذلك بأن يطلب منه ما يدل على أن الله بعثه لقيادة بنى النوع الانسانى فيأتى بشئ لا يدخل تحت القُدَر البشرية بحال من الاحوال ولا يتطاول واحد الى الاتيان بمثله سواء كان هذا الامر وجودياً أو عدمياً بأن يقول مثلاً انى أرفع يدى ولا أحد منكم يقدر على ذلك مع سلامـة أعضائهم ويتم له هذا دونهم فيكون ذلك بمنزلة قوله تعالى صدق عبدى فيما قاله عنى ويقوّى ذلك ما نجده من أولئك الـكملة كاتصافهم بفاضل الاخلاق وعكوفهم على التقوى ومجانبة الهوى واعراضهم عن زخارف هذه الحياة وانصراف كل قواهم الى هداية أبناء أمتهم وفرحهم بحصول ذلك وبوصول السعـادة اليهم وترحهم وحزنهم من ضده .

واحساس من يعارضهم بعدم القدرة على ذلك لما يبهره من فضلهم العالى ومعرفتهم الشاملة حتى يرى من نفسه أن جحوده لو استطاعه مكابرة وقد نقلت الينا معجزات الانبياء عليهم السلام على وجه تطمئن اليه النفوس والتشكيك فى ذلك مجرد سفسطة وأوهام لا تؤثر فى الاذعان بما جاء منها ولو تابعنا مطلق التشكيك وظاهر السفسطة لما وثقنا بما نعلمه من المحسوسات كيف وأغلب المحرك لسعادة الانواع الحية من العالَم علوم لا يخلو شىء منها غالباً من نحو تلك الشكوك

نبوة سيدنا ومولانا محمد صلى الله عليه وسلم

الدليل على ذلك ظهور المعجزة على يديه وأعلاها وأبعدها عن شبه القادحين القرآن الكريم وذلك لانه دعا قومه وفيهم فطاحل البلغاء على أن يأتوا بمثله وتكرر ذلك لديهم بحيث لم يجهله واحد منهم وهم أحرص الناس على عدم اتمام أمره لما فى طباعهم من الثبات على القديم وعدم الميل الى المستحدث مع ما جبلت عليهِ العرب من الشدة فى الخصومة والتمسك بالرأى قال تعالى (فأتوا بسورة من مثله) وقال ايضاً (فأتوا بحديث مثله) وقال جل شأنه (فأتوا بعشر سور مثله مفتريات) فلو أمكنهم ذلك أو ما قاربه لما أحجموا عنه بل كان يقبل عليهِ بلغاؤهم وفصحاؤهم ويصل ذلك الينا

فكيف لا يعتقد الناظر أن ذلك أمر معجز على أن المنزل عليهِ هذا الكتاب أمى لا يقرأ ولا يكتب ولا تحول من جزيرة العرب الى غيرها وأن تنقلاته بها معلومة لا يتوهم فيها أنهُ مارس علماً ونشأته منذ طفوليته

الى دعواه النبوّة معلومة الاطوار والاحوال تقضى على من عرفها بان يقول ان ذلك الكتاب العزيز ليس من عنده ولا تعاليم بشرية لديه تطرّق لهُ الولوج الى هذا الباب صرفُ القوم عن معارضتهِ وهم هم أرباب القوة العظمى فى اجادة التراكيب واحكامها مع حرصهم الشديد على ذلك أمر خارق للعادة . قال قوم فى بيان اعجازه هو ما اشتمل عليهِ من التركيب الغريب والاسلوب العجيب المخالف لنظم العرب فى أوائل السور وخواتيمها وأواخر الآى

وقال آخرون كونه فى الدرجة العالية من البلاغة التى لم يعهد مثلها فى تراكيبهم وقصرت عنها درجات بلاغتهم وفسر هؤلاء البلاغة بأنها التعبير باللفظ الرائع عن المعنى المناسب للمقام الذى أورد فيه الكلام بلا زيادة ولا نقصان فى البيان والدلالة على المعنى قال الوليد بن المغيرة بعد طول محاولته المعارضة وتوقع الناس منهُ ذلك . عرضت هذا الكلام على خطب العرب وأشعارها فلم أجده منها ولذلك كان اذا نظر فيه أى بليغ منها أيقن من نفسه باستحالة معارضته فأمسك عنها الا من كابر كمسيلمة الكذاب فهذى فيما قال وهو (والزارعات زرعاً فالحاصدات حصداً فالطابخات طبخاً فالآكلات أكلاً) وقال (الفيل ما الفيل وما أدراك ما الفيل له ذنب وبيل وخرطوم طويل)

وقال آخرون وجه اعجازه أنه جاء مشتملاً على أنواع التشريع وأحكامه من تهذيب النفوس وأنواع العبادات والعقوبات وحقوق العباد سواء فى الحياة أو بعد الممات بحيث ان كل حكم يعلم منه صراحة أو ضمناً أو بطريق القياس على ما فيه كما نبه فيه على ذلك وهذا الاخير استحسنه بعض الباحثين

وعللوه بأن أمارة التصديق يحسن أن تكون عامة يعترف بها كل واحد من أمة الدعوة عربياً كان أو غير عربي وسواء كانت لديه ملكة اللغة العربية حتى يعرف أنه معجز من حيث بلاغته أو لم تكن لديه تلك الملكة وأيضاً فان المناسب لتصديق دعوى المدعى فيما يدعيه أن يأتى ببرهان من جنس دعواه فاذا ادعى شخص أنه طبيب يفعل من العلاج الطبي أو يذكر من مسائل ذلك الفن ما يدل على صدقه فى هذه الدعوى ولا يأتى فى اثباتها بما يدل على أنه ماهر فى الهندسة أو البلاغة فكذلك ما هنا . ومعلوم أن أوجه الاعجاز الاول فى هذا المقام تدل على صدق دعوى الرسول عليه السلام فيما ادعاه لانه اتيان بأمر خارق العادة لم يستطع معارضوه الاتيان بمثله كما نص على ذلك أبو الوليد بن رشد بخلاف ما ذكر فى مسألة الطبيب ولا مانع من أن يكون كل مما ذكرناه سبباً للاعجاز فتعداد أسبابه لا يدل على خفائه

لا يتسنى لمنصف ألاَّ يقر لسيدنا ومولانا محمد عليه الصلاة والسلام بالرسالة اذا قرأ سيرة نشأته وسنّته وما جاء به من القرآن الكريم وعرف معنى النبوّة والغرض المقصود منها

وقد يكتفى بعض الناظرين فى تصديق دعوى النبوّة بأمارات أخرى ليست من طرق الاعجاز . منها أن يكون ذو الدعوى مطبوعاً على حبّ الخير وفعله وعلى بغض الشر ومجانبته آمراً بالصلاة والزكاة وسائر أنواع العبادات وحاثاً على فاضل الأخلاق ناهياً عن رذائلها مفطوراً على حب العبادة وكراهية اللهو وأنواع الرجس ذا نسب وحسب فى قومه كى يكون ذا شوكة وسطوة تمكنه من تبليغ ما أمر بتبليغه ومن هنا يتبين لك

كيف استدل أبو بكر وخديجة رضى الله عنهما من أحواله وأطواره على نبوته ولم يحتاجا فى ذلك الى ظهور أمر معجز وكذلك هرقل فانه لما جاءه كتاب رسول الله عليه السلام يدعوه فيه الى الايمان وقد سأل عمن شاهده فاحضروا له أبا سفيان ومعه أناس من قومه وسأله عما أمرهم به فقال بالصلاة والزكاة والعفاف الى آخر الاسئلة والاجوبة كما هو مذكور فى حديث الصحيحين . قال ان كان ما تقول حقاً فهو نبىّ وسيملك ما تحت قدمى هاتين

الكلام على الميعاد

قالت الفلاسفة ان للارواح بعد مفارقتها الابدان بقاءً وثبوتاً وقد تقرر لدى افلاطون ومن تبعه أن النفس قديمة بالزمان حادثة بالذات وأنها من عالم الملائكة فهى جوهر بسيط مجرد ولمَّا خلق الله العالم أبدعه على أتم نظام ولا يكون كذلك الا اذا هبطت النفوس الى ذلك العالم وتعلقت بأبدان نوع من الحيوان فكان انساناً ودبرت شئونه على أحسن حال فاستخرج ما خلق فى هذا العالم الذى وجد على حال موافقة لنجاحه وفلاحه ومناسبة لكل نوع منها نفسها كما نبهنا عليهِ سالفاً من الخواص والفوائد المفضية الى سعادته وانتفع بها غير أن تنزلها وارتباطها بالابدان الظلمية ذات الشهوات عاقها عن كمالها الملكى الذى هو حضور المعلومات لديها وعن غيره من ذلك الكمال فاستعاضت عنه باستعمالها القوى المدركة الجسمية الظاهرة والباطنة فى الحصول على المعلومات والصفات الفاضلة فان ظهر لها شئ طفيف من ذلك وعاقتها

العوائق البدنية عن الاستكمال منه كانت بعد مفارقتها البدن فى غصة وعذاب الى أن تتخلى من تلك الارجاس التى عرتها من جراء تعلقها بالبدن وعكوفها على لذاته حتى يتجلى لها بعد ذلك ما هو كمالها ومعشوقها وكانت فى ألم من عدمه وان ظهر لها كل ذلك بمظهر غير حق بأن كانت كل معارفها من قبيل الجهل المركب كان تألمها بعد مفارقتها البدن أبدياً لشعورها ببعد معشوقها وغلبت الارجاس البدنية عليها غلبة أيئستها عن الطمع في خلوها منها ووصولها الى ما هو كمالها فهى فى هذه الحالة بمنزلة الكافر المخلد فى النار عندنا كما أنها فى الحال الأولى لدينا بمنزلة المسلم العاصى الذى لا يخلد فى النار وأما اذا كانت عالمة نقية من الارجاس البهيمية فانها تكون بعد مفارقتها البدن منعمة بكمالاتها ومعشوقها الذى حصلت عليه فهى فى هذه الحال لدينا بمنزلة المؤمن المتقى الذى يكون له فى الآخرة النعيم المقيم وانما شعرت بذلك بعد مفارقتها البدن لان نمو القوتين المختصتين بالجسم لديها حال الحياة (وهما القوة الغضبية والشهوية) ستر عنها ذلك وجعل للذات الجسمية المقام الاول وأغفل اللذات الروحية وذلك بخلاف حال التجرد عن البدن فأنها تدرك اللذة الحقيقية ادراكاً واضحاً لا لبس فيه لعدم مزاحمة القوتين المذكورتين لها

كل هذا اذا لم تكن النفس نازلة الى أفق الحيوان بعيدة الادراك والاّ كانت بعد مفارقتها البدن لا تشعر بألم هذا النقص والبعد عن كمالها وقد تقدمت الاشارة لذلك فى الكلام على النفس وهؤلاء بمنزلة غير المكلفين عندنا اذ من المعلوم أن كمال كل شئ انما يكون بتمام خواص جنسه فيه واحراز بعض خواص ما فوقه فالنبات الذى استكمل الخواص

النباتية وأحرز شيئاً من خواص الحيوان كالنخل أكمل فى جنس النبات
من الحشائش التى لا بذر لهـا يحفظ نوعها فان فى الاول زيادة عن
الخواص المشتركة بين أنواع النبات الذكر والانثى كالحيوان وكذلك
التلقيح والاثمار فى مواعيد مخصوصة والفناء بقطع الرأس . وكذلك القردة
أكمل فى الحيوانية من غيرها لمـا فيها من بعض خصائص الانسان
كانتظام الجزء الأعلى والمشابهـة فى المخ والتقاء الابهام مع كل اصبع .
وكذلك الانبياء والحكماء أفضل وأكمل فى الانسانية من غيرهم لاحرازهم
بعض خصائص عالم المجردات من حيث جنوحهم الى اللذات الروحيـة
واتصافهم بالفاضل من الصفات ونفوذ مداركهم الى المعلومات الكليـة
بخلاف السافل من الطبقة الانسانية فان أغلب صفاته حيوانية كالبُله
والبلداء فأن أولئك يكونون أحط طبقات الانسان فاذا تجردت نفوسهم
عن أبدانهم بالموت بقيت منحطة عن أفق الملائكة ومعلوم أن وصولها الى
أفقها لا يكون الاَّ بالتخلى عما لحقها من تلك الادران والتحلى بالصفات الملَكية

هذا ولم يبينوا لنا مقدار العلم الذى اذا حصل للنفس كانت سعيـدة
بعد مفارقتها البدن وقد نقل عن الشيخ الرئيس أنه قال أما قدر العلم الذى
تحصل به السعادة الاخروية فليس يمكنني أن أنص عليـه الاَّ بالتقريب
وأظن أن ذلك يكون بتصور الانسان المبادئ المفارقة (عالم المجردات
وهو الله جل شأنه والعقول والنفوس) تصوراً حقيقياً ويصدق بهـا
تصديقاً برهانياً ويعرف علل الحركات الكلية (يعنى بها الحركات الفلكية
وأسبابها)

ويتقرر عنده هيئة كل ونسبة أجزاء بعضها الى بعض والنظام الآخذ

من المبـدأ الاول الى أقصى الموجودات الواقعة فى ترتيبـه (يعنى بذلك ترتيب الموجودات الذى قالته الفلاسفـة فى العقول والنفوس الى العقـل العـاشر الذى يقولون انه هو الواسطة فى افاضة أنواع الوجود على المادة بواسطة الحركات الفلكية وما يحدث فيها من طبائع الحرارة والبرودة وغيرها والى فلك القمر الذى هو آخر الافلاك التسعة كما هو معروف) وأن يتصور العناية (التى قدمنا الكلام عليها فى برهان الوحدانية) ويعلم أىّ الوجود وجود الفاعل الاول (تبارك وتعالى) وحقيقة أحديته وأنه لا تكثر فيها وكلما زادت علومه عن ذلك ونما استبصاره زادت سعادته كما هو شأن المؤمنين المتقين لدينا فان بعضهم أعظم منزلة فى النعيم المقيم من غيره لأن ذلك النعيم على نسبة الايمان والتقوى

الميعاد الجثمانى

اتفقت كلمـة عامة الشرائع السماوية على أنه جائز حاصل ما عـدا الفلاسفة — دليلنا عليه ما نقـل عن الشارع فى غيرما آية وحديث واذ كان هذا المطلب غير عقلى بمعنى أن العقل ليس له طريق الى اثباته أو نفيه فلا يكون اثباته الا بالدليل النقلى وقد علمت مما تقدم أن الانبياء عليهم الصلاة والسلام معصومون عن الخطأ فى كل ما يتعلق بالتشريع فقولهم فى هذا دليل واضح على ما هو الحق فيـه ولا ريب فى أن أمر البعث من أخص الامور وأعلقها بالشرع الشريف لأن ما جاء من الترغيب فى الاعمال والترهيب منها بما ذكر من النعيم والعقاب فى دار الجزاء التى نصير اليها بعد الحياة الثانية يكون غير حق اذا لم تكن حياة

وجزاء بعد هذه الحياة ومعلوم أن اعادة الحياة بعد ذهابها وقيام الاجسام التى تفرقت أجزاؤها أو عدمت أمر ممكن وأن ايجاد الانسان أول مرة أصعب فى اعتبارنا من اعادته قال تعالى (وهو الذى بدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه) فان أجزاء النطفة من أغذية مختلفة مكونة من أشياء كذلك متباعدة بل قد يكون أحدها من بقعة والآخر من أُخرى ربما كانت بعيدة عنها بعداً شاسعاً ومعلوم أن الانسان حين ولادته هو بعينه حين شبوبيّته وحين شيخوخته وهرمه ومرضه وصحته ونموه وذبوله واختلاف لونه فعلى هذا يكون المعاد هو الاجزاء الاصلية التى يتغير الشخص بتغيرها وهى الباقية معه من حين ولادته الى موته دون التى يعتريها الفقد ودون الاعراض . ويقرب من ذلك ما قاله الامام محيي الدين ابن العربى فى بيان مقام الخلود فى الدار الآخرة وهو أن هذا الجسم لا يحتمل البقاء الابدى لأنه مبنى على الفقد والتعويض فالذي يبعث ويخلد هو الجسم الجوهرى الباقى مع الانسان منذ بداية خلقته وهو الذى لا يعتريه التغيير لا هذا الجسم المبنى على الذهاب والاستعاضة

واعلم أن الأقوال فى الميعاد مختلفة فقوم قالوا بالميعاد الجثمانى لا غير وهم أكثر المتكلمين النافين للنفس الناطقة وآخرون قالوا بالروحى فقط وهم الفلاسفة الالٰهيين وقوم قالوا بهما معاً وهم كثير من المحققين كالغزالى والراغب وأبى زيد الدبوسى من قدماء المعتزلة وجمهور من متأخرى الامامية وكثير من الصوفيه فانهم قالوا ان الانسان فى الحقيقه هو النفس الناطقه وهى مناط التكليف فهى المطيعة والعاصية والمثابة والمعاقبة والبدن يجرى منها مجرى الآلة وهى باقية بعد فساده فاذا أراد الله حشر الخلائق

جعل لكل بدن نفساً تدبره وتتصرف فيه كما هو الشأن فى الحياة الدنيا ومنهم من نفاهما وهذا قول الفلاسفة الطبعيين ومنهم من توقف وهذا منقول عن جالينوس فانه قال لم يتبين لى أن النفس مزاج يعدم عند الموت فتستحيل اعادتها أو جوهر باق بعد فساد البنية فتمكن اعادته

نعيم الجنة وعذاب النار

يعلم مما قدمناه أن نعيم الجنة وعذاب النار وما يتعلق بهما من ذكر الأنواع وكيفياتها أمر لا يصل البرهان العقلى الى اثباته أو نفيه ولذلك لم تكن طريقة لاثباتهما الا ما جاء من الدلائل النقلية عن صاحب الشريعة المطهرة فيجب علينا ما دمنا مقرّين لرسولنا عليه السلام بالنبوة المستلزم تصديقنا اياه فى كل ما جاء به من التشريع وما يتعلق به أن نصدق بحصول ذلك النعيم والعذاب والجنة والنار الى آخر ما جاءت به الشريعة من هذه الاشياء الأخروية ونعتقدها كما جاءت بدون تأويل ما دام ذلك أمراً جائزاً لا يحيله العقل وقال قوم من الذين فى قلوبهم دخل من التصديق بالميعاد الجثمانى ان ما ذكر من النعيم في المأكل والمشرب والسكنى والحور العين رمز الى لذات[1] أخروية نفسية كمالية ليست كاللذات البدنية وعبر عن

(١) فعبر بلذة الرؤية مثلاً عن لذة انكشاف الحقائق للنفس ألا ترى أن الذين ينكرون الميعاد الجثمانى كالفلاسفة يقولون ان العلم الكامل الواضح بالعلة يوجب العلم بالمعلول لانهُ من أطوارها وكل ما في الوجود معلول له جل شأنه وعبر بقصور الجنة وملابسها ومآكلها عن الوقاية من الادران الشهوية التى كانت تلحقها حال تعلقها بالبدن وبالاستمتاع الذى من شأنه حفظ النوع وبقاؤه عن لذة البقاء الكامل وهكذا

كل جهة من تلك اللذات الروحية بما يشابهها من اللذات البدنية وأن سبب ذلك التغيير اختلاف مظاهر الوحى فيظهر فى بعضه بأنها لذّات روحية كما ورد فى غير شريعتنا ويظهر فى مظهر آخر لابساً لباس المدركات الحسية كما ورد فى شريعتنا لقوة المظهر فيها وهؤلاء هم القائلون بالميعاد الروحى وقد علمت من غير موضع من المواضع التى ذكرناها أنهُ لا يؤول فى الشريعة ما جاء موافقاً لفطر أبناء الأمة وأفهامها فانها عامة للبرهانى وغيره فلا نذهب بظواهرها مذاهب الغموض وما يعسر فهمه على الجمهور على أن بقاءها على ظاهرها يجعل لها تأثيراً خاصاً فى النفوس يحملها على الرغبة أو الرهبة وهذا هو الذى قصده الشارع بآيات الترغيب والترهيب وأحاديثهما

الرؤية

قبل أن نخوض فى هذا المقام نقول انه لا يسع مسلم انكارها لورودها فى القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة فجاحدها مكذب لها ولا ايمان مع عدم تصديق الله ورسوله قال الشيخ أبو الحسن الأشعرى وأتباعه انها جائزة وحاصلة في الآخرة للمؤمنين لقوله تعالى (وجوه يومئذٍ ناضرة الى ربها ناظرة)

وروى جرير بن عبدالله البجلى قال كنا جلوساً عند رسول الله صلى الله عليهِ وسلم فرأى القمر ليلة البدر فقال انكم ترون ربكم كما ترون هذا القمر لا تضامون فى رؤيته . واستدلوا على امكانها أيضاً بدليل نقلى وهو قوله تعالى حكاية عن موسى عليهِ السلام (رب أرنى أنظر اليك قال لن ترانى ولكن انظر الى الجبل فان استقر مكانه فسوف ترانى فلما تجلى ربه

للجبل جعله دكاً وخرّ موسى صعقا) ووجه الاستدلال أن موسى صلوات الله عليه عالم بجميع ما يمتنع ويجوز ويجب لله تعالى كيف وهذا لا يجهله أقل المؤمنين علماً فكيف بنبي الله وكليمه ولا يداجى قومه فى شئ من ذلك ألا يرى ما ورد فى الكتاب الكريم وهو قوله تعالى (وقالوا يا موسى اجعل لنا الهاً كما لهم آلهة قال انكم قوم تجهلون) وأنه علق الرؤيا على استقرار الجبل وهو أمر ممكن فى ذاته والمعلق على الممكن ممكن وقد ردّ منكرو الرؤية من المعتزلة هذا الدليل بأن المراد بأرنى أعلمنى علماً واضحاً وعلى هـذا يكون معنى انظر فى الآية الاعلام الواضح ومعلوم أنه لا يتعدى بالى فردهم ما قاله الأشاعرة بعيد وردوه ثانياً بأن هذا السؤال حصل منه عليه السلام لافحام قومه والاضرار بهم فانهم طلبوا منه أن يريهم الله جهرة فلما ألحوا عليه فى ذلك قصد اعناته كان منه ما كان وتدكدك الجبل وصعق سبعون من — عليتهم ودفع ذلك الأشاعرة بأنه لا يوافقهم فى الممتنع ألا يرى انه ردّ عليهم ولم يجبهم اذ قالوا له اجعل لنا الهاً الخ وبأن الاستقرار المعلق عليه ممكن كما تقدم وقد أطال مثبتوها من الأشاعرة ونافوها من المعتزلة القول في ذلك وقد اكتفينا بذكر طرف منه

استدلوا عليهـا أيضاً بالدليل العقلى وحاصله أنا نرى الأعراض من الالوان والابعاد والجواهر كالجسوم ذات الابعاد متى كانت موجودة ولا نراها اذا كانت معدومة فلا بد أن يكون لتلك الرؤية سبب وهذا السبب لا بد أن يكون مشتركاً بين المرئيات وهي الجواهر والاعراض على ما قدمنا وهي مشتركة فى الوجود والحدوث ولا يصح ان يكون الثانى علة لأنه وجود بعد عدم والعـدم لا يصلح أن يكون هو أو جزؤه سبباً لأمر وجودي

فتعين أن يكون السبب الوجود وهو مشترك بين الاله والعالم فرؤيته جلّ شأنه ممكنة وهو المطلوب

وقد رد المانعون هذا الدليل بردود كثيرة أولها أن المرئى أصالة هو الاعراض وثانيها بعدم لزوم اتحاد العلة فيهما وثالثها بجواز أن تكون العلة فيهما هى الامكان وهى منتفية بالنسبة لله تعالى ورابعها أنه يجوز على هذا أن نبصر الطعوم والروائح والالفاظ وغيرها من الاعراض التي لا نبصرها كالحرارة والبرودة مثلاً وقد التزم الاشعري وأصحابه ذلك وقالوا لا مانع منه غير أن الله تعالى لم يجرِ العادة بابصارها ولو أجراها لابصرناها وقد شدد المعتزلة النكير على ذلك وقالوا ان مثل ذلك خارج عن دائرة التعقل والبحث وقالت المجسمة والكرامية بجواز رؤيته تعالى لكونه جسماً وله جهة لديهم فوافقا الأشاعرة فى الرؤية وخالفاها فى كيفيتها فهما يقولان برؤية بصرية كالرؤية التى لنا فى هذه الحياة الدنيا بشروطها بخلافها عند الأشاعرة فانها تكون بخلق الله تعالى ذلك بدون مواجهة ولا مقابلة وبلا ضوء وتحيز المرئى الى غير ذلك من الشروط (والكرامية طائفة اتبعت محمد بن كرام الذى أظهر مذهبه زمان ولاية محمد بن عبد الله بن طاهر وتبعه من أهل سواد نيسابور شرذمة من القرويين) قال ان المعبود جسم له حد ونهاية من تحته ومن الجهة التى يلاقى بها عرشه وزعم أن ما ليس بجسم ولا له جهة معدوم وزعم أنه مماس لعرشه وأنه مكان له وقالوا انه محل للحوادث وان أقواله وارادته وادراكاته للمرئيات وللمسموعات أعراض حادثة فيه وهو محل لتلك الحوادث وقد مال الوليد بن رشد فى كلامه على هذا المبحث الى ابقاء الرؤية على حقيقتها

وقال لا ضرر في اثبات الجسمية والجهة لله تعالى فانه أطلق على نفسه ما يقتضى ذلك اذ قال (يد الله فوق أيديهم) ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام — وفى الحديث ما معناه قلب المؤمن بين اصبعين من أصابع الرحمن — وقال ايضاً (الله نور السموات والارض — كل شئ هالك الاّ وجهه)

قالت المعتزلة الرؤية غير واقعة ولا جائزة واستدلوا على دعواهم بالمنقول والمعقول أما الاول فقوله تعالى (لا تدركه الابصار وهو يدرك الابصار) فقد تمدح بأن الابصار لا تدركه والصفات التى عدمها مدح يكون وجودها نقصاً يجب تنزيه الله عنه ومعلوم أن الادراك المضاف للبصر انما هو الابصار المعروف ودحض الاشاعرة ذلك بأن معنى الادراك البصرى الرؤية المحيطة بجوانب المرئى لان معنى الادراك النيل والوصول يقال أدركت الثمرة اذا وصلت الى حد النضج وأدرك الغلام بلغ ثم نقل الى الرؤية على الوجه الذى قلناه ولا يلزم من نفى الرؤية على هذا الوجه نفى الرؤية المطلقة فان رفع الخاص لا يستلزم رفع العام على أنا نقول فى دحض هذا الاستدلال أيضاً ان لا سلب دخل على الموجبة الكلية فتكون سالبة جزئية ونحن قائلون بذلك فان الكفار لا يرونه جل شأنه يوم القيامة وأيضاً فان الآية تدل على أن الابصار لا تراه وهذا لا يستفاد منه أن المبصرين لا يرونه لجواز أن يكون ما فى الآية نفياً للرؤية بالجارحة على شروطها الآتية — ولأنه تعالى ما ذكر سؤال الرؤية فى كتابه الاّ استعظمه قال تعالى (واذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون) ولو كانت ممكنة لما

عاقبهم عليها فى الحال لانهم طلبوا معجزة ثانيـة قال تعالى (وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا لقد استكبروا فى أنفسهم وعتوا عتواً كبيراً) ولو كانت جائزة لما كان طالبها عاتياً — وقال ايضاً (يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتاباً من السماء فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا أرنا الله جهرة فأخذتهم الصاعقة بظلمهم) فعد هـذا ظلماً وآخذهم عليهِ فى الحال ولو كان ممكناً لكان طلباً للزيادة من المعجزات وهذا لا يقتضى وصفهم بالظلم واهلاكهم

وأجاب الأشاعرة عن هـذين بأن ذلك لتعنتهم ومكابرتهم ولذا استعظم انزال الملائكة فى الآية الأولى واستكبر انزال الكتاب من السماء فى الثانية مع امكانهما

وأما الثانى فهو أنه لو جازت رؤيته تعالى لرأينـاه الآن والتالى باطل فالمقدم مثله بيان الملازمة انها لو كانت جائزة لكان ذلك الجواز ثابتاً لها فى كل حال لأن جوازها اما لذاته أو لصفة لازمـة لهـا فلا يتصوّر انفكاكها عنه ما دامت شروط الرؤية متوفرة فلو جازت فى الآخرة جازت الآن كذلك أما بطلان التالى فظاهر والا لجاز أن يكون بحضرتنا جبال وآكام ولا نشاهدها وذلك باطل بداهة واذا بطل التالى بطل المقدم وهو جواز الرؤية فثبتت استحالتهـا . وشروط الرؤية سلامة الحاسة والتفاتها (بألاّ تكون فى حال النوم أو الغفلة) والتوجه الى المرئى ومقابلته وعدم غاية الصغر وعدم غاية اللطافة بأن يكون كثيفاً ذا لون فى الجملة وعدم غاية البعد (وهذا يختلف بالنسبة لقوة الباصرة وضعفها) وعدم غاية القرب فان المبصر اذا التصق بسطح البصر بطل ابصاره بالكلية وعدم الحجاب

الحائل وهو الجسم الملون المتوسط بينهما وأن يكون المبصر مضيئاً بذاته أو غيره ولا يعقل فى رؤية الله تعالى من هذه الشرائط سوى سلامة الحاسة والتفاتها ومعلوم أن غالب هذه الشروط واجبة الانتفاء بالنسبة له تعالى واذا انتفى الشرط انتفى المشروط وهو رؤيته جلّ شأنه

وقد دحض الأشاعرة ذلك بأن الأمور العادية جائزة مع عدم وقوعها فالقول بعدم الرؤية مع توفر الشروط التى قلتموها وأن ذلك يقتضى أن لدينا جبالاً ولا نراها أمر مخالف للعادة لم يقع وان كان جائزاً وبأن الشروط التى ذكرتموها انما هى شروط فى الرؤية بالحدقة ونحن نقول ان المراد من الرؤية التى قلنا انها جائزة وواقعة انكشاف نسبتهُ الى ذاته تعالى كنسبة الانكشاف المسمى بالابصار الى سائر المبصرات على وفق المكشوف من كل وجه

قد أطلنا الكلام فى الرؤية وحملنا الناظر فى كتابنا هذا على اطالة البحث بما قلناه وولجنا به المسالك الوعرة على خلاف ما عوّدناه وقلناه من وضوح الأدلة الشرعية مراعاة للجمهور وقلنا بتفضيل هذا المسلك على سواه ولكن ملنا عن ذلك فى مقالنا هذا بعض الميل كى يكون المطلع على بصيرة من أدلة كل فريق وغاية ما ترمى اليه فاذا توخينا من خلال ذلك منهجاً واضحاً يناسب الجمهور سلوكه كنا سالكين المسلك الذى عولنا عليه ومنبهين القارئ الى أن ذلك هو الحق الذى ترمى اليه الانظار غاية ما فى الباب أنه خفى فى ثنايا أدلة القوم وشكوكها واليك الحق الواضح فى هذا المقام

تطلق الرؤية على معنيين أحدهما البصرية ولا شبهة فى أنها لا تكون

الاَّ بشروطها التى قدمناها وثانيهما العلم الواضح والانكشاف الجلى وهذا مخالف للأول فى اللوازم وان كان مماثلاً له فى الانكشاف والوضوح ولا يشترط فيه شئ من الشروط السالفة فى الرؤية البصرية ولا يخالف الاول فى الوضوح وان خالفه بتأثر الحدقة فيه دون الثاني فان من يبصر الشمس ثم يغمض عينيه يكون عالمها ومن تأثر حدقته برؤيتها يتخيل أنها لديه بخلاف من علمها بعد رؤيتها علماً واضحاً. وكذلك اذا تقصى نظر شخص شيئاً أخضر ثم نظر ذا لون آخر فانه يتخيل فيه لون الخضرة وكذا اذا أمعن شخص نظره فى البياض الشاهق أو الضوء ثم نظر الى ما سواهما فانه لا يبصره بادئ بدء حق الابصار لما يبدو له من الظلام

ويؤخذ من أدلة القوم والشكوك الواردة عليها أنهم متفقون على استحالة الرؤية بمعنى الابصار بالحدقة على الحال المعروفة لنا بالنسبة لله تعالى كما أنهم متفقون على جوازها بالنسبة للمعنى الثانى فلم يبق مبحث الرؤية الا مبحثاً لفظياً وهو (أتطلق على العلم الواضح أو لا) والصحيح الاطلاق قال تعالى (وتوكل على الحى الذى يراك حين تقوم وتقلبك فى الساجدين) فان الرؤية المنسوبة اليه تعالى لا تكون الا علماً واضحاً وقال تعالى ما كذب الفؤاد ما رأى. وقال أيضاً وكذلك نورى ابراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين وهذا فى مقام الامتنان على ابرهيم عليه الصلاة والسلام فيكون المراد منه الاعلام لا الرؤية البصرية فانها لغيره وضدها يسمى عمى أيضاً كما قال تعالى فيها (فانها لا تعمى ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور ومن كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى وأضل سبيلا)

قال صاحب الأسفار فى معنى قوله عليه الصلاة والسلام — رب أرنى الأشيـاء كما هى — ان المراد بالرؤية العلم الشهودى ونقل أيضاً أن حبراً من اليهود سأل علياً كرم الله وجهه (هل رأيت ربك حين عبدته) فقال له ويلك ما كنت أعبـد رباً لم أره فقال فكيف رأيته أو كيف الرؤية فقال ويلك لا تدركه العيون فى مشاهدة الأبصار ولكن رأته القلوب بحقائق الايمان . واعلم أن النفوس الانسانية لا تصل الى ادراك الحقائق التى لا تحس ادراكاً جلياً ما دامت متعلقة بالأبدان فانها لا تصفو الصفاء المَلَكي الكامل ولذا لا بد من تنقيتها مما فيها من الأدران البشرية حتى تمحص وتخلص منهـا والى هذا الاشارة بقوله تعالى وان منكم الا واردها كان على ربك حتماً مقضيا غير أن مدة ذلك تختلف باختلاف تلك الأدران قلة وكثرة وبعد الخلو منها تكون ذا صفاء مَلَكى تام فتتجلى لها معرفة ربها السابقة تجلياً واضحاً لا خفاء فيه كما هى متجليـة لعالم الملائكة وهذا ما يقصد بالرؤية كما نص عليه الغزالى فى كتاب الأحياء

وضح لك من هـذا كله ألاَّ غرابة ولا عجب فى تجويز الأشاعرة رؤية أعمى الصين بقة الأندلس وأن جميع ما ذكر من الأدلة يتمشى على هذا الذى حققناه أرشدنا الله واياك الى الصواب

القضاء والقدر والأفعال الانسانية

اذا نظرت أيها المطالع الى الانسان وأفعاله وجدت أنه لا يصدر عنه فعل من الأفعال الا اذا توفرت الأمور الآتية وهى سلامة أعضائه بأن تكون على نظام خاص ينشأ عنه الفعل وأن يتصوّر حصول أمر يبتغيه

من الفعل المذكور وأن تكون الأشياء الموصلة اليه موجودة على النظام الذي يؤدى اليه وأن ترتفع الموانع والعوائق التى تحول دون ذلك الفعل مثلاً اذا أردت زراعة شئ من أنواع المزروعات فلا بد أن يكون فى ذاتك ما يمكنك من الذهاب الى الارض والبذر وتعهده من القوة وسلامة الاعضاء التى يتوقف عليها ذلك حتى ينبت وينمو ولا بد أيضاً أن تتصور حصول الفائدة التى تترتب على هذا الزرع وأن تكون الآلات الموصلة له موجودة (كالمحراث أو ما يقوم مقامه) على حالة تؤدى الى الوصول لوضع الحبة الوضع الذى تنمو به دون سواه وأن يسقى ذلك النبات بماء البئر أو النهر أو المطر الذى ليس من صنعك ولا فعلك وأن تكون الحالة من الحرارة أو البرودة أو الاعتدال الحاصلات من حركة الشمس مما يساعد على هذا النمو ولا يناقضه والاّ يعوقك عائق عن ذلك لا قبل لك بدفعه ومثل ما قيل فى الزرع يقال فى غيره من أنواع الأفعال على ما قدمناه فيما يتوقف عليه أى عمل من الأعمال

اذا تأملت فى كل ذلك وجدت أن عمل الانسان متوقف على هذه الاشياء وهى على نظام خاص خارج عن قدرته واختياره وأن ارادته وشوقه الى العمل انما هى ناشئة عن تصوره حصول غاية ذلك العمل وفائدته وهذا التصوّر ليس اختيارياً له فى الحقيقة لانه انفعال ناشىء عن الاشياء الخارجية فان ما يعلم من الدلائل الحسية على فوائد الزرع تنفعل منه النفس بتصديقها بترتب ذلك عليه فتميل الى عمله وتبعث الجسم اليه فاذا كان نظام أعضاء الانسان الداخلي موافقاً لمزاولته موافقة تؤدى الى الغرض المقصود وكذلك نظام الاشياء الخارجية التى هى بمنزلة الآلات الموصلة

اليه وارتفعت العوائق والموانع حصل العمل المذكور وهذا النظام السارى فى الكائنات من داخل الانسان الى بقية أفراد العالم هو القضاء والقدر على ما قاله بعضهم وأنت اذا دققت البحث وجدت أن وضع الحبة فى الارض لا يوجب تأثرها الاَّ بالحرارة التى وضعها الله فى عنصر تلك الارض بواسطة حركة الشمس وكذلك الرطوبة التى لحقتها من الماء وأن افاضة السنبلة انما هى ناشئة من غير ذلك وهو الخالق جلَّ وعلا ألا ترى أن ماء الرجل لا يكسب من ماء الطمث الاَّ حرارة لا غير وأن خلقة الجنين ونفسه قد أفاضهما الله سبحانه وتعالى وقد خفى على كثير ممن زاولوا العلوم المتعلقة بذلك هذا السر الالهى فظنوا أن مفيض الخلقة والحياة هو تلك الحرارة المخصوصة فوضعوا ذلك الكائن فى حرارة لا تختلف عن تلك الحرارة وحاطوه بما يمنع عنهُ الآفات الطارئة فما وصلوا الى وجود انسان كما خلق الله جلت قدرته وعظمت حكمته

لعلك علمت من هذا أن الانسان له دخل فى ايجاد أفعاله (ويستحق به الثواب أو العقاب) وأن النظام الداخلى والخارجى وارتفاع العوائق والموانع له دخل أيضاً وأن الكل أبدعه الله على هذا النظام الذى ينشأ عنه الفعل بخلق الله تعالى كما علمت من الكلام على علمه جل شأنه أنه ليس بموجب لذلك بل انه علم « بهذا النظام وما يترتب عليه وهذا هو مفاتيح الغيب اذ العلم بوجود الشئ أو عدم وجوده غيب والعالم بالاسباب ونظامها وما يترتب عليه عالم بالوجود أو عدمه والاسباب التى قلناها هى موجدة لله ولها تلك الخواص باذنه وارادته والقول بتجرد الاسباب عن مسبباتها والملزومات عن لوازمها يؤدى الى الانحراف عن باب اثبات

الصانع فانا انما استدللنا على موجِد للعالم غير مشاهَد بما نشاهده من أن كل مصنوع له صانع لا محالة فاذا قلنا بجواز انفكاك المسبب عن السبب وعطلنا ذلك فى المشاهَد فكيف نقيس عليه الغائب فلابد لنا من القول بأن خصائص الشيء لازمة له وأن هذا سنة الله في خليقته وأنه خالق لذلك فهو باذنه وارادته ولا ضرر فيه فاذا تم لنا هـذا القياس وثبت لنا وجود الصانع جل شأنه ونظرنا فى الاعمال والافعال وجدنا انه هو الموجِد للجواهر وأن ذلك النظام الداخلى والخارجى انما هو وسيلة للوجود الذي يفيضه الحق جل وعلا

لاريب أن قد وضح لك من هذا كلهُ أن الفعل يصح أن ينسب للعبد وأن اثابته على الحسَن منه وعقوبته على القبيح لا تشكيك فيهما — ولما كان هـذا المقام دقيقاً وقع فيه الخلف بين العلماء فقالت المعتزلة ان العبد يخلق أفعال نفسه الاختيارية بما أعطاه الله من سلامة الاعضاء والقدرة على ايجاده ما دام يدخل تحت قدرته واختياره ولا ضرر في ذلك فانه تعالى خالق للعبد وقدرته وعقله وانما الممتنع بالاجماع أن يكون خالق مع الله وما قلناه ليس من هذا القبيل فان الفعل مخلوق لله لأنه خالق لمن أوجده وقالت الجبرية ان العبد كالريشة المعلقة فى الهواء فتتحرك جبراً عنها فكذلك الأفعال صادرة عن الله جل شأنه ولا دخل للعبد فى ايجادها مطلقاً وعلى هذا يشكل أمر الثواب والعقاب وقد توسط الأشاعرة فى ذلك فقالوا ان الموجد هو الله لا غير وان للعبد قدرة واختياراً مقارنين للفعل بهما يكون العبد ذا كسب وليس لهما تأثير فى الفعل مطلقاً والفرق بين هذه الحالة وحالة الجبرية كالفرق بين من له اختيار فى تحريك يده

ومن لا اختيار له كما فى حركتها ارتعاشاً . ورد هذا بعض المحققين بأن الحركتين متساويتين ما دامتا حاصلتين من غير الشخص فكيف يكون كاسباً باحداهما دون الاخرى وما حمل القوم على هـذا الخلاف سوى ما أشكل عليهم من التعارض بين أفراد الادلة السمعية وكذلك بين أفراد الادلة العقلية

أما التعارض بين أفراد الأولى فظاهر مما ورد فى القرآن الكريم والحديث الشريف فمنها ما يفيد أن الأفعال انما هى بقدر الله وقضائه وأن ليس للعبد دخلاً فى ايجادهـا وذلك كقوله تعالى (انا كل شئ خلقناه بقدر) وقوله (والله خلقكم وما تعملون — خالق كل شئ — وقوله — ختم الله على قلوبهم — ما أصاب من مصيبة فى الارض ولا فى أنفسكم الاَّ فى كتاب من قبل أن نبرأها ان ذلك على الله يسير — وما أصابكم يوم التقى الجمعان فباذن الله — ما أصابك من حسنة فمن الله) وقوله عليه الصلاة والسلام خلقت هؤلاء للجنة وبأعمال أهل الجنة يعملون وخلقت هؤلاء للنار وبأعمال أهل النار يعملون — ومنها ما يفيد أن للانسان كسب فعله وأنه ليس مجبوراً عليـه من ذلك قوله تعالى (أو يوبقهنَّ بما كسبوا — ان الله لا بغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم — وابراهيم الذى وفى — كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم — من جاء بالحسنة فله عشر أمثالهـا ومن جاء بالسيئة فلا يجزى الاَّ مثلهـا وهم لا يظلمون — ومن يعص الله ورسوله فان له نار جهنم — ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت (أى وتجـد ذلك فى خلق غيره فانه مقول فى تنزيه فعله عما يتصف به فعل العبد) — ولو كان من عند غير الله لوجدوا

فيهِ اختلافاً كثيراً — الذى أحسن كل شئ خلقه — وما ظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون — فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر — اياك نعبد واياك نستعين — واستعينوا بالله . وظاهر أن استعانة العبد بالله انما تكون فيما يوجده بنفسه — وقوله تعالى حكاية عن يونس عليه السلام — سبحانك انى كنت من الظالمين — ذلك بما كسبت أيديكم وان الله ليس بظلام للعبيد — والذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها — تلك الجنة التى اورثتموها بما كنتم تعملون — لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت — وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى — أو لمّا أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنّى هذا قل هو من عند أنفسكم — وما أصابك من سيئة فمن نفسك — وقوله عليه الصلاة والسلام — كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه — الى غير ذلك من آى القرآن الكريم والحديث الشريف ومعلوم انه اذا تعارضت الادلة النقلية يرجع الى الادلة العقلية

وأما التعارض بين الادلة العقلية فظاهر مما يأتي استدل القائلون بأن ليس لقدرة الانسان واختياره دخل في ايجاده أفعاله بأنه لو كان موجداً لافعاله لكان من المخلوقات ما ليس جارياً على مشيئة الله واختياره فيكون ثم خالق غير الله وقد أجمع المسلمون عموماً على أنه لا خالق سواه على ما نقل عن العلماء

واستدل القائلون بان أفعال الانسان مكتسبة له بأنها ان لم تكن كذلك كان مجبوراً عليها واذن فتكليفه بها من باب التكليف بما لا يطاق واذا كلف الانسان بما لا يطيق لم يكن فرق بينهُ وبين الجماد لأنه

لا يطيق الفعل أيضاً كالانسان المجبور فلا يصح تكليف ذلك المجبور دونه ومن ثم اشترط الجمهور الاستطاعة في التكليف وأيضاً فانه اذا لم يكن للانسان اكتساب فعله لما صح مدحه على بعض الافعال وذمه على الاخرى ولما صح ترتب الثواب على البعض والعقاب على بعض آخر ولكان الامر بالأهبة لما يتوقع من الشرور لامعنى له وكذلك الأمر باجتلاب المنافع فتبطل كافة الصنائع التي تجلب بها الخيرات كصناعة الفلاحة وغيرها من الصنائع التي نصل بها الى أنواع الخير وكذلك تتعطل جميع الصنائع التي يقصد بها الحفظ ودفع المضار كصناعة الحرب والملاحة والطب وغير ذلك وهذا كله خارج عن حد ما يعقله الانسان

هذا وقد وضح لك من هنا أننا لما رجعنا من الادلة النقلية لتعارضها الى الادلة العقلية وجدنا فيها ذلك التعارض أيضاً فلا بد من البحث عن حال تتوافق فيها الادلة بنوعيها ولذا قدمنا لك أول المطلب شرح هذا المقام أخذاً عن أقوال بعض العلماء السالفين الذين عنوا بالبحث فيه وبه يجمع بين الأدلة المتناقضة سواء كانت نقلية أو عقلية ويزول الاشكال فان الاثابة والعقوبة لا يشترط فيهما أن يكون المثاب والمعاقب مخترعا مبدعا للفعل لأن ذلك لا يكون الا للخالق جل وعلا بل يكفي فيهما أن يكون له دخل في تحققه وحصوله كما هو ظاهر وجواز تغيير ارادة العبد عن الفعل أو تعطيل أعضائه لا يقدح في ذلك لأن كونه جائزاً ومقدوراً له تعالى لا يترتب عليه عدم العقوبة أو الاثابة فانهما منوطان بحصول الفعل لا بجواز حصوله فان من الخارج عن دائرة التعقل أن يعاقب شخص لأنهُ يجوز أن يفعل قبيحاً وان لم يفعله أو يثاب لأن في قدرته فعل حسن

وان لم يفعله ولو درجنا على ذلك لساغ لنا أن نعتبر أن العالم غير موجود ونرتب على ذلك الا كاذيب والأباطيل من الاحكام ونعطل أسباب الفلاح والنجاح أيضاً لجواز حصوله مع التعطيل والله وليّ التوفيق لا رب غيره

النسخ

قبل الشروع فى الكلام عليه نقول ان أعدل الشرائع وأحسنها ما كان مناسباً لحال الأمة من جهة تقدمها أو انحطاطها ملائماً لما عليه طباعها ذاهباً بها الى طريق السعادة الدنيوية والاخروية فاذا تغيرت عن حالتها الاولى ناسب أن يشرع لها شرع آخر أخف أو أشد من الأول على ما تقتضيه حالها الثانية اذ عدم بقائها على الشريعة التى لا تناسب تلك الحال الثانية واستبدالها بشريعة أخرى تناسبها أنسب بسعادتها وأعدل من التشريع الأول ومعلوم أن روح الشرائع في الانبياء راجعة الى الايمان والمحافظة على العقل والنفس والمال والنسل وما جاء من اختلاف تشريع الانبياء عليهم السلام انما هو راجع الى طرق الوصول الى تلك الاشياء ولذلك تعاقبت الرسل في الأمم تبعاً لتعاقب أحوالها ومن ثم نرى أن النسخ وعدم العمل بما لا يلائم من التشريع الاول لا يكون فى التشريع الاعتقادى كايماننا بالله وبما له من صفات الكمال واعتقادنا تنزيهه عما هو محال عليه والتصديق بوجود ملائكته وكتبه ورسله واليوم الاخر ولا فيما يخالف روح التشريع العملى العام كاباحة اهدار دم النفوس المحترمة وتجويز تناول ما يستر العقل كالخمر واباحة أخذ مال محترم شرعاً محرز في حرز مثله من مالكه بغير حق الى غير ذلك من الأشياء التى

قدمناها وانما يكون في الاحكام الجزئية العملية الراجعة الى طرق الاجراء والوصول الى الاحكام الكلية التي هى مقاصد عامة الشرائع وعليها يترتب نظام هذا المجتمع واطلاق يد أفراده فيما يعود عليها بالسعادتين من كل ما أباحه لها الشارع أو ندبه اليها أو أوجبه عليها فلا يتعلق الاّ بالأوامر والنواهى لانها مآخذ الاحكام دون الاخبار ولأنه يترتب على نسخها اتصاف قائلها بالكذب والشارع منزه عن ذلك ولا يكون فيما اشتمل على التأبيد نحو قوله تعالى (ولا تنكحوا أزواجه من بعده أبداً) للزوم جهل المشرع على تقدير نسخ ذلك لأنه شرع لنا حكماً وقال انه أبدى فرجوعه عنه الى حكم آخر دليل الخطأ والجهالة بحال الناسخ أو المنسوخ ولا يكون في الحكم المقيد بقيد مخصوص يوجب عدم استمراره نحو حرم كذا سنة ونحو (ياءيها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم) ونهى الحائض والنفساء عن الصوم والصلاة مدة الحيض والنفاس فانه متى انقضت السنة في الأول زالت الحرمة بدون أن يأتى حكم ناسخ بعد انتهاء السنة وكذلك تزول حرمة الصيد متى انتهى الاحرام بدون أن يأتى حكم ناسخ ولذلك كان الأمر بالاصطياد في قوله تعالى (فاذا حللتم فاصطادوا) غير ناسخ للحكم الأول بتشريع جديد بل هو ارجاع الى حكم الصيد الاصلى وهو الاباحة كما أن أمر الحائض والنفساء بالصلاة والصوم ارجاع الى حكمهما الأول وهو الوجوب

اذا قرأت ذلك أرشدك الله علمت أن النسخ عبارة عن بيان مدة انتهاء العمل بالحكم الأول بأن يكون خالياً عن التوقيت والتأبيد شرع لمناسبته حال الامة فاذا رقت حالتها أو انحطت عن ذلك الحال جاء الحكم

الناسخ مبيناً مدة انتهاء العمل بالحكم الأول فمحله الاحكام الشرعية العملية الفرعية وأنه لا ياتى في الاخبار الاّ اذا كان لفظياً أى ناسخاً للتلاوة دون الحكم بمعنى أن العمل به باق ولا يتعبد بتلاوته فلا يثاب على قراءته ولا يقوم مقام ما يتلى من القرآن في الصلاة ولا نذهب بك الى أقسام النسخ من حيث الحكم والتلاوة أو أحدهما دون الآخر وذكر أمثلة ذلك وحكمته احالة على ما هو واضح فى كتب الاصول وانما غرضنا فى مقامنا هذا أن تعلم حقيقة النسخ وأنه مما تقضى به الشرائع الحقة وقد اتفق المحمديون والمسيحيون على جوازه وأنكره الموسويون مستندين على ظاهر عبارة التوراة المفيدة أن العمل بها لا يزول ما دامت السموات والأرض وهذه العبارة ليست قطعية فيما فهموه لجواز أن ذلك بالنسبة للمقاصد العامة فى الشرائع كما قلنا أو أن المراد بذلك طول استمرار العمل بها حتى يجئ شرع آخر وقد أنكره أيضاً أبو مسلم الأصفهاني فانه لم يرتض القول به وأول كل ما يقتضيه إذا تقرر لديك ذلك علمت أن العلم الحق والشرع العادل يقتضيانه على ما بيناه — (ازالة شك وايضاح خفاء)

ربما عرض لك من بياننا هذا أن الأمم لا تقف عند حال واحدة من حيث الرقى والانحطاط والطباع وهذا يقتضى تعاقب الأنبياء ما دامت الأمم كذلك فكيف تكون شريعتنا خاتمة الشرائع — وازالة هذا الخفاء لا تستدعى أن نذهب بك بعيداً عن أغراض هذه الشريعة الحقة ألست تعلم انها حرمت كثيراً من الأشياء الضارة وأباحتها للضرورة وأوجبت كثيراً من الأشياء النافعة وسلبت وجوبها لذلك أيضاً فانه قد ذكر فى الآية الكريمة تحريم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله

به وذكر فيها بعد ذلك فمن اضطر فى مخمصة غير متجانف لاثم فان الله غفور رحيم ومعنى ذلك تأثير جنس الضرورة فى جنس الحكم تخفيفاً ولذا لا يحظر شرب الخمر لازالة الغصة اذا تعين طريقاً لذلك وللتداوى اذا أخبر به طبيب عادل وتعين طريقاً له أيضاً ولا يكون المؤخر للصلاة أو الزكاة عن وقتهما آثماً اذا أكره على ذلك ولا يقتل القاتل المكره على القتل ولا يدفع المتلف مال الغير المحترم اذا أكره على اتلافه الى غير ذلك من الاحكام الدائرة مع النفع أو الضرر وجوداً وعدماً وهى كثيرة الامثال

وما يتجدد من الأعمال فى الأزمان المستقبلة ولم يكن موجوداً وقت التشريع ولم يبين له حكم يعلم حكمه من القيـاس على نظيره الذى نص الشارع على حكمه وقد أمرنا بذلك قال تعالى (فاعتبروا يا أولى الأبصار) والاعتبار معناه ردّ الشئ الى نظيره فى الحكم وهذا أمر عام فى ذاته وان كانت الآية فى العقوبات وفى واقعة خيبر

قال رسول الله صلى الله عليـه وسلم لمعاذ رضى الله عنه حين أرسله الى أهل اليمن بمَ تقضى قال بكتاب الله قال فان لم تجد قال فبسنة رسوله قال فان لم تجد قال أجتهد برأيي فقال الحمد لله الذى وفق رسول رسوله لما يرضى به رسوله فلو لم يكن قوله حقاً لما أقرّه ولما حمد الله عليه وكذلك رسالة عمر بن الخطاب الى أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه حين ولاّه القضاء فانه قال فيهـا (وقس الأمور بأشباهها) وقد ورد فى الحديث الشريف ما يفيد أن الله يبعث على رأس المائة لهذه الأمة من يجدد أمر دينها وهذا يقتضى أنه قد يظهر فى أمته من يرد أحكام الاشياء المحدثة التى قد تخبط فيهـا الآراء الى نظائرهـا التى نص الشارع على حكمها

رداً حقاً نشأ عن المعرفة الصحيحة مجانباً لما تقتضيه الاهواء الباطلة وذلك بواسطة ما يمنحهُ الله من الوقوف على أغراض الشريعة الغراء واعتصامه بها وما يتصف به من العدالة والتقوى ونبذ الاهواء الفاسدة والأغراض الباطلة . كأنى بك بعد أن ذكرت لك قليلاً من كثير وقد زال هذا الخفاء ووضحت لك طريق الاذعان بأن تلك الشريعة الشريفة صالحة لكل أمة فى كل الأزمنة والأمكنة ولا يحيل المكابر فى ذلك على شئ سوى الادمان على مطالعتها وتفهّم ما اشتملت عليه من الأحكام والحكم والآداب مما يقول فيه المطلع المنصف ليس فى الامكان أبدع مما كان والله يقول الحق وهو يهدى السبيل

الباطنية

قبل الشروع فى بيان مضار هذه الفرقة الضالة نقول ان الثانوية قوم ظهر أمرهم قديماً فى الفرس وقالوا ان الاله اثنان النور وهو اله الخير والظلمة وهو اله الشر وان هذين الالهين مع الطبائع الأربعة التى هى الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة مدبرات العالم ومنهم فرقة مانى المشهورة الذى ظهر بعد المسيح عليه السلام وكان قسيساً ثم ادعى ما ادعاه وانتحل مذهب أولئك الثانوية وقد شاركهم المجوس فى القول بصانعين وأن أحدهما قديم وهو الاله الفاعل للخير والآخر شيطان محدث فاعل للشرّ وشاركهم الباطنية فى أن المدبر للعالم اثنان أحدهما الاله وثانيهما النفس وأن ذلك التدبير يكون بواسطة الكواكب السبعة والطبائع الأربعة وهذا بعينه قول المجوس من جهة تعدد الاله والصائبة من جهة تأثير الكواكب

والسبب فى بدء أمر هذه الفرقة أن كثيراً من أبناء الفرس دخلوا فى الدولة العربية كرهاً ودان ظاهرهم للاسلام خشية من سيوف المسلمين أو رغبة فى الزلفى عندهم ابتغاء الثراء وعظم الجاه وعقدوا عزائمهم باطناً على الدعوة الى دينهم خفية وتدريجاً ونقل الملك من الأمة العربيـة الى أمتهم وكان ذلك على ما يظهر بعد قتل أبى جعفر المنصور أبا مسلم الخراسانى لما بدا منه من محاولته الملك متستراً بالميـل الى العلويين كى يتم له ما يريد فبدأ أولئك القوم بأن يظهروا للمسلمين تحسين وضع المجامر فى المساجد (وفى هذا عبادتهـا وتعظيمها كما هو مذهب المجوس) ولما علم جعفر البرمكى مكانته عند الرشيد وانقياده فى الغالب لرأيه أشار عليـه بوضع المجامر فى الكعبة وغرضه من ذلك التقرب من عبادة النار فى أجلّ بيت من بيوت الله تعظمه وتؤمه أفراد الأمة الاسلاميـة فى جميع البقاع ومعلوم ان آباء جعفر من بيت سدنة النـار فى بلاد الفرس ففطن الرشيد لذلك وعلم أنه يبطن المحبة لدينه ويرغب فيه ويحاول انقياد المسلمين اليه من حيث لا يشعرون فنكبه ونكب أسرته لذلك ولم يفقه هـذا كثير من الشعراء ومحبي آل برمك فقصّدوا فى رثائهم القصائد وقضوهم ما لا يستحقونه بكاء ونحيباً لما لهم من الأيادى العظيمة والنعم الوفيرة على قاصديهم رجاء استرقاق القلوب حتى يتم لهم ما يحاولونه من ادخال دينهم شيئاً فشيئاً فى نظام الدين الاسلامى. وقرب عهد المسلمين بنبيهم وشدة تمسكهم بدينهم الحقيقى كان سدًّا منيعاً فى وجه أولئك الاقوام

ولما قام بالملك المأمون وكان شيعياً مولعاً بالجدل كما قلناه وترجمت فى أيامه الفلسفة من اللغة الفارسية واليونانية والسريانية الى العربية وأخـذ

الناس فى الاكثار من ذلك وأطلق للعقول سراحها وألف ذلك العامة ووجدوا للقول مجالاً فبدؤا باظهار دعوتهم وتستروا بأنهم ينتمون الى اسماعيل ابن جعفر الصادق رضى الله عنهما وقاموا بالدعوة اليه والى ذريته لما يعلمونه من ميل أغلب المسلمين الى آل البيت وأن قلوبهم أشربت حبهم وندبوا اليهم كثيراً ممن لهم الحول والطول من أمراء الخلفاء وبطانتهم واستعانوا بعديد من العلماء الذين أضلهم الله على علم وزحزحهم عن محجة الدين الواضحة الادمان على مطالعة الكتب الفلسفية وجعل على أبصارهم غشاوة زخرف الحياة الدنيا من ثراء وجاه فاخذوا يؤلفون لهم الكتب ويدونون الرسائل ويبعثون بها الى من يدعونه اليهم ويعتضدون به من العلماء والعظماء وكان همهم فى تلك الرسائل التشكيك فى الدين وعرض المشكلات منه على المطالع كى يحار عقله ويعدونه بأنه اذا لبى دعوتهم وأجابهم الى ما يطلبونه من العهود والمواثيق أوقفوه على معانى تلك الغوامض فاذا تمَّ لهم ذلك وانتظم فى عقدهم خرَّجوا له القرآن والسنة على ما يوافق مبادئهم التى وضعوها على حالة تتخرّج عليها تأويل نصوص الدين لأنهم يقولون بأن للقرآن الكريم والحديث الشريف ظاهراً وباطناً وأن التمسك بالأول كاف فى الحياة الدنيا كما أنه لا يجدى فى الآخرة الاَّ التمسك بالثانى وخلطوا بأغراضهم هذه كثيراً من العلوم الفلسفية أماطوا فيها اللثام عن أغراض قائلها سواء فى ذلك الحساب والهندسة والموسيقى والأفلاك وبعض الامور العامة والالهيات وشرحوا أدوار الكواكب وقراناتها وبيان سعودها ونحوسها وألمعوا الى تأثيرها وذكر كثير من آى القرآن الكريم والحديث الشريف وحملوا كثيراً منها على غير ظاهره رجاء اقبال

من يطالعها عليها وانتظامه فى عقدهم وهـذه الرسائل هى المسماة باخوان الصفاء . ذهب منهم ميمون بن ديصان مولى جعفر بن محمد بن اسماعيل بن جعفر الصادق الى الغرب وزعم أنه من نسل عقيل بن أبى طالب فتبعه بعض من غلاة الروافض والحلولية ثم ادعى أنه من ولد محمد بن اسماعيل بن جعفر مع ان محمداً مات ولم يعقب وقد اتفقت الاسماعيلية والخرّمية (وهم طائفة على رأى المزدكية الذين نوهنا بمذهبهم فيما تقدم) على انتشار هذه الدعوة لأن آراء الفريقين وأغراضهما متقاربة وقد اشتد أمرهم على الاسلام ونكوه أعظم نكاية لأن كثيراً من قواد الخلافة وأمرائها أجاب دعوتهم وانقاد لرأيهم على غرة منه أو طمعاً فى التقرب منهم رجاء الوصول الى المنافع الدنيوية لأنهم كانوا يزعمون أن القرانات الفلكية تدل على انتقال الملك من العرب الى الفرس فى تلك الأزمان

واستدل بعضهم على ذلك بما يرويه المجوس عن زرادُشت من أن الملك يزول عن الفرس الى الروم واليونان ثم يعود الى الفرس ثم يزول عن الفرس الى العرب ثم يزول عن العرب الى الفرس وبما قاله جاماسب المنجم من أن الملك يعود من العرب الى الفرس لتمام ١٥٠٠ سنة من وقت ظهور زرادُشت واذا ضممنا ما بين المدة التى عظم أمرهم فيها وهى مدة دخول زعيمهم أبى طاهر سليمان ابن الحسن مكة واقتلاعه الحجر الاسود وذلك سنة ٣١٧ الى المدة التى بين الهجرة وغلبة الاسكندر المقدونى دارا وهى ٩٢٤ سنة على ما يؤخذ من الجدول التاريخى الذى وضعهُ أبو الفداء الى ما كان من المدة بين غلبة الاسكندر داراً وبين زرادُشت الذى ظهر فى مدة ملك الفرس المسمى كيستاشف وهى ٢٠٠

ونيف وخمسون سنة وجدنا المدة نحواً من ١٥٠٠ سنة . وتحقق قول زرادشت فى زوال الملك من الفرس الى اليونان ثم رجوعه اليهم ثم انتقاله الى العرب أكد لديهم عودته من العرب الى الفرس . وبيان المدة التى يعود منها اليهم حمل أبناءهم على الاقامة بهذه الدعوة لماً اقترب وقتها ووجدوا لها جوازاً وخالوا أن الانتساب الى العلويين من أكبر دواعى نجاحهم فى ذلك . ولذا أكبروا من شأنهم وأطروهم مدحاً وثناء وغالوا فيهم مغالاة لا يرضونها لأنفسهم وما قصدوا بذلك سوى قلب الدين الشريف الى المجوسية والدولة من العربية الى الفارسية ولذا ورث أبناء الفرس المغالاة فى آل البيت غافلين عن سبب ميل أسلافهم الى تلك البضعة الطاهرة وقد صحبنا كثيراً من فضلائهم فرأيناهم ينكرون ذلك ويأنفون منه وحسبنا دليلاً على مروق طائفة الباطنية من الفرق الاسلامية ما بيناه سابقاً ونعضده بالأدلة التى سنذكرها بعد

من القائمين بدعوتهم أبو طاهر سليمان بن الحسن بن بهرام الجنابى كبير القرامطة (سموا بذلك لأن الشخص الذى دعاهم ورأسهم مرض بقرية من سواد الكوفة فحمله رجل من أهل تلك القرية يقال له كرمية لحمرة عينه وهو بالنبطية حمرة العين فسمى كبيرهم باسم الرجل الذى حمله)

عاث فى الأرض فساداً وتعرض للحجيج وأسرف فى قتله ودخل مكة سنة ٣١٧ هـ وقتل الطائفين بالبيت وقيل أنه قتل فيها ٣٠٠٠ نسمة وطرح بعض القتلى فى بئر زمزم ودفن الباقى فى المسجد الحرام وأخرج منها ٧٠٠ عذراء واقتلع باب البيت وأصعد رجلاً ليقتلع الميزاب فسقط ومات وأخذ كسوة الكعبة وقسمها بين أصحابه واقتلع الحجر الاسود

وحمله الى البحرين ثم الى الكوفة وقد رده الى الكعبة أبو اسحاق ابراهيم ابن محمد مزكى نيسابور سنة ٣٢٩ هـ . ولما ورد هيت رمته امرأة من سطحها بلبنة فقتل . قال أبياتاً زعم فيها أنه اذا طلع المريخ وقارنهُ زحل والمشترى يتم له الملك ويملك سبع قرانات وهى

أغرّكمُ منى رجوعى الى هجر عما قليل سوف يأتيكم الخبر
اذا طلع المريخ فى أرض بابل وقارنه النجمان فالحذَر الحذر
ألست انا المذكور فى الكتب كلها ألست انا المبعوث فى سورة الزمر
سأملك أهل الأرض شرقاً ومغرباً الى قيروان الروم والترك والخزَر

وقد وجد زحل والمشترى مع طلوع المريخ أيام قيامه بالدعوة وما تم له من الملك سبع سنين فضلاً عن مدة سبعة قرانات (وقد نص متقدمو علماء التنجيم على أن مدة القران الذى يستدل به على انتقال الملك من شخص الى آخر وما يحصل من الفتن والحروب من جراء ذلك ٢٠ سنة وقالوا ان دورة زحل تتم مرة واحدة فى كل ٣٧٨ يوماً وأن دورة المشترى تتم فى كل ٣٩٩ يوماً) ولعلّ معنى قران الكواكب اجتماعها فى أول درجة من برج الحمل وعلى هذا فيكون قران زحل والمشترى الدال على انتقال الملك من شخص الى آخر ٢٠ سنة تقريباً وذلك يكون باستخراج المضاعف البسيط بين ما تساويه دورة كل منهما من الأيام وقسمتهُ على ما تساويه السنة الشمسية منها . ومنهم أبو زكريا الطامى الذى قام بالدعوة بالبحرين والاحساء سنة ٣١٩ هـ وسنّ لاتباعه اللواط وأوجب قتل الغلام الذى يمتنع على من يريد به الفجور وأمر بقطع اليد التى تطفئ النار ولسان من يطفئها بنفخة وقد نص المؤرخون على أنهم أباحوا لاتباعهم شرب

الخمور ونكاح البنات والاخوات كما هى شريعة المجوس وأطلقوا أيديهم فى جميع اللذات الشهوية

أطلنا معك القول أيها المطالع وقصصنا عليك نبذاً من التاريخ ليس هذا موضعها لنقف بك على هذه الطائفة المارقة ونسوق بذلك فكرك الى الحكم على الطريقة التى سلكها الامام أبو الحسن الاشعرى رجل الاسلام الذاب عن حوزته فى معارضة أولئك القوم الضالين المضلين وقد تطوحنا فى المقام وما أقمنا دليلاً يقنع المسترشد على أن رسائل اخوان الصفاء هى من وضع دعاة الباطنية وقياماً بذلك نذكر لك نبذاً من بعض رسائلها تتفهّم من خلالها التشكيك فى الدين وأنهم يأخذون ببواطن آى القرآن الكريم كما هى حالتهم مع الاشارات الى عود الملك اليهم كما قال زرادُشت وجوماسب ودلت عليه القرانات الفلكية ولعلك بعد ذلك يقع ما قلته لديك موقع القبول

جاء فى الرسالة السابعة من رسالة الدعوة الى الله تعالى ما نصه واعلم يا أخى أيدك الله وإيانا بروح منه بأن شيعتنا واخواننا المتفرقين فى البلاد وسائر من ينسب الينا هم فى أحوالهم ومراتبهم على منازل ثلاث فطائفة منهم خواص وعقلاء متدينون أخيار فضلاء وطائفة أغبياء أشرار أردياء وطائفة بين ذلك متوسطون ولكل طائفة منهم آراء ومذاهب هم فيها مختلفون وأقاويل مفتنة هم بها مشغوفون وأخلاق وسجايا هم بها متغايرون ولهم مع ذلك أفعال وأعمال هم لها معتادون فنريد أن نذكر كل طائفة منهم باوصافهم وندلّ عليهم بعلاماتهم حتى اذا دخلت مدينة أو بلداً من البُلدان ولقيت منهم أحداً تبينتهم بعلاماتهم وعرفتهم بسيماهم فلقيتهم

بالتحية والسلام وداخلت كل طائفة منهم باللطف قدر ما تقتدر عليه من الرفق والمداراة وذكَّرتهم من علمنا بحسب ما تقبله قلوبهم وألقيت اليهم من أسرارنا حسب ما تحتمله عقولهم وتتسع له نفوسهم وتبلغ اليهِ هممهم وتتصوره أفهامهم وتكون فى ذلك كمثل الطبيب الحكيم الرفيق الذى قد ذكرت قصته فى أول الرسالة لاخوان الصفاء (فصل)

ان من خواص اخواننا الفضلاء أنهم العلماء بأمور الديانات العارفون بأسرار النبوات المتأدبون بالرياضيات الفلسفية واذا لقيت أحداً منهم وآنست منه رشداً فبشره بما يسره وذكّره باستئناف دور الكشف والانتباه وانجلاء الغمة عن العباد بانتقال القران من برج مثلثات النيران الى برج مثلثات النبات والحيوان في الدور العاشر الموافق لبيت السلطان وظهور الاعلام (واعلم بأن) من اخواننا وأهل شيعتنا طائفة أخرى لا يعترفون بوجودنا شاكون فى بقائنا متحيرون فيما يعتقدون من موالاتنا وطائفة أخرى موقنون ببقائنا لكنهم غافلون عن أمرنا غير عارفين بأسرارنا وكلهم منتظرون لظهور أمرنا مستعجلون لمجيء أيامنا مشتهون نصرة أمرنا فاذا لقيت منهم أحداً فبشره بما يسره وأقرر عينه بما يظنه بعيداً مما يؤمله وعرّفه أن ما يرجوه غير بعيد وذكِّر مَن وثقت بهم من اخواننا بما ألقينا اليك من علمنا وأطلعهُ على ما أطلعناك عليه من أسرارنا كيما تطمئن نفوسهم فيما يعتقدون فينا وتبين لهم صدق ما هم مقرون بهِ من أمرنا وأخرج اليهم من رسائلنا ما ترغب نفوسهم فيهِ وترتاح اليه وليكن ذلك على النظام والترتيب كما بيناً لك فلعلهم اذا استمعوا لقراءتها وفهموا معانيها انتبهت نفوسهم من نوم الغفلة ورقدة الجهلة وحييت بروح المعارف كما

ذكر الله جلّ ذكره (أفمن كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشى فى الناس كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها) (واعلم) يا أخى بأن فى الناس طائفـة من أهل ملّتنا مقرون بفضلنا وفضل أهل بيتنا ولكنهم جاهلون بعلومنا غافلون عن أسرارنا وحكمتنا فمن ذلك أنهم يجحدون وجودنا وينكرون بقاءنا ومع هذا فانهم يزرون بشيعتنا المقرين بوجودنا المنتظرين ظهور أمرنا ومعاندون لهم متعصبون عليهم مبغضون لهم

وجاء قبيل آخر هذه الرسالة واعلم أن الملك والدولة ينتقلان في كل دهر وزمان ودور وقران من أمة الى أمة ومن أهل بيت الى أهل بيت ومن بلد الى بلد واعلموا أن دولة أهل الخير يبـدو أولها من أقوام خيار فضلاء يجتمعون فى بلد ويتفقون على رأى واحـد ودين واحد ومذهب واحد ويعقدون بينهم عهداً وميثاقاً بأنهم يتناصرون ولا يتخاذلون ويتعاونون ولا يتقاعدون عن نصرة بعضهم بعضاً ويكونون كرجل واحد فى جميع أمورهم وكنفس واحـدة فى جميع تدابيرهم وفيما يقصدون من نصرة الدين وطلب الآخرة لا يعتقدون سوى رحمة الله ورضوانه عوضاً فأبشروا أيها الاخوان بما أخبرناكم وثقوا بالله فى نصرته لكم اذا بذلتم مجهودكم كما وعد الله تعالى (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا ولينصرنّ الله من ينصره وان حزب الله هم الغالبون)

وجاء فى الرسالة السادسة من ماهيّة الناموس الالهى ما نصه واعلم أنه ليس من جماعة على المعاونة فى أمر من أمور الدين والدنيا أشد نصيحة بعضهم لبعض ولا أحسن معاملة من اخوان الصفاء وذلك أن كل واحد منهم يرى ويعتقد أنه لا يتم له ما يريده من اعلاء الدين الاّ بمعاونة أخيه

وكل واحد منهم يريد ويحب لأخيه ما يريد ويحب لنفسه وكذلك يكره له ما يكره لنفسه وقد بيّنا فى رسالة لنا قبل هذه كيف يكون صفوة الأخوة وما شرائطها فتأملها أيها الأخ وأعرضها على اخوانك وأصدقائك ممن ترجو منه الصلاح والنصيحة والمودة توفق ان شاء الله (فصل)

واعلم أن هذا الأمر الذى قد ندبنا اليه اخواننا وحثثنا عليه أصدقاءنا ليس هو برأى مستحدث ولا مذهب محدث بل هو رأى قديم قد سبق اليه الحكماء والفلاسفة الفضلاء وهو طريق سلكه الانبياء عليهم السلام ومذهب مضى عليه خلفاء الانبياء والأئمة المهديون وبه كان يحكم النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله وهى ملة أبينا ابراهيم وبه سمانا المسلمين من قبل وفى هذا القران وهو الاجتماع على رأى واحد بترك الاختلاف وموافقة النفوس وتأليف القلوب والخطاب بصدق الأقاويل والتصديق فى الضمائر وأن لا يكذّب بعضها بعضاً ولا يخدع ولا ينخدع وينصح ولا يخون ويثق ولا يتّهم ويتودد ولا يتحاسد ويتحاب ولا يتباغض ويوافق ولا يخالف ويتفق ولا يختلف ويتعاضد ولا يتخاذل ويتناصر ولا يتقاعد ويتعاون على صلاح الدين ويكونوا كرجل واحد ونفس واحدة اقتداء بسنة الشريعة كما قال النبى صلى الله عليه وسلم . المؤمنون كرجل واحد ونفس واحدة تتكافأ دماؤهم وأموالهم وهم يد على من سواهم وكما أوصانا الله تعالى وقال وتعاونوا على البرّ والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم وقال وأصبحتم بنعمته اخواناً (فصل)

واعلم أنه ما من جماعة تجتمع على أمر من أمور الدين والدنيا وتريد

أن يجرى أمرهـا على السداد وتكون سيرتها على الرشاد الاَّ ولا بد لها من رئيس يرأسها ليجمع شملهـا ويحفظ نظام أمرهـا ويراعى تصرف أحوالهـا ويجمع على الانتشار جماعتها ويمنع من الفساد صلاحها وذلك الرئيس أيضاً لا بد له من أصل يبنى عليه أمره ويحكم به بينهم وعلى ذلك الأمر يحفظ نظامهم ونحن قد رضينا بالرئيس على جماعة اخواننا والحكم بيننا العقل الذى جعله الله تعالى رئيساً على الفضلاء من خلقه الذين هم تحت الأمر والنهى ورضينا بموجبات قضاياه على الشرائط التى ذكرناها فى رسائلنا وأوصينا بهـا اخواننا فمن لم يرضَ بشرائط العقل وموجبات قضاياه ولم يقبل تلك الشرائط التى أوصينا بها اخواننا أو خرج عنها بعد الدخول فيها فعقوبته فى ذلك أن نخرج من صداقته ونتبرأ من ولايته ولا نستعينَ به فى أمورنا ولا نعاشره فى معاملتنا ولا نكلمه فى علومنا ونطوى دونه أسرارنا ونوصى بمجانبته اخواننا اقتداءً بسنة الشريعة كما ندبنا اليه ربنا جلّ وعز فقال لقد كان لكم أسوة حسنة فى ابراهيم والذين معه اذ قالوا لقومه انا براء منكم ومما تعبدون من دون الله وقال عزّ وجل ياءيها الذين آمنوا لا تتولوا قوماً غضب الله — الآية

وورد فيها أيضاً ما يأتى (فصل) واعلم أن للكتب الالهية تنزيلات ظاهرة وهى الالفاظ المقروءة المسموعة ولها تأويلات خفية باطنة وهى المعانى المفهومة المعقولة وهكذا لواضعى الشريعة موضوعات عليها وضعوا الشريعة ولها أحكام ظاهرة جلية وأسرار باطنة خفية وفى استعمال أحكامها الظاهرة صلاح للمستعملين فى دنياهم وفى معرفتهم أسرارها الخفية صلاح لهم فى أمر معادهم وآخرتهم فمن وفّق لفهم معانى الكتب الالهية وأرشد

الى معرفة أسرار موضوعات الشريعــة واجتهد فى العمل بالسنــة الحسنة والسير بالسيرة العادلة فان تلك النفوس هى التى اذا فارقت الجسم ارتفعت الى رتبة الملائكة التى هى جنات لها وهى ثمان مراتب وفازت ونجت من الهيولى ذى الثلاث الشعب التى هى الطول والعرض والعمق وارتفعت فى درجات الجنان والمراتب الثمان التى سعة كل واحد منها كعرض السماء والأرض ومن لم يُرشَد لفهم تلك المعــانى ولا لمعرفة تلك الاسرار ولكن وفق للعمل بسنته العادلة وأحكامه الظاهرة فان تلك النفوس عند مفارقتها الجسد تبقى محفوظة على الصورة الانسانية التى هى الصراط المستقيم الى أن يتفق لها الجواز على الصراط المستقيم والى هذا أشار بقوله تعالى فقال ان هذا صراطى مستقيماً فاتبعوه — الآية

وهذا هو الغرض الأقصى فى وضع الشريعة الالهية ومن لم يرشد لفهم تلك المعانى ولا اجتهد فى العمل بسنة الشريعة ولا فى الدخول تحت أحكامها ولا الانقياد لحدودها فان تلك النفوس اذا فارقت الجسد انحطت الى الرتبة البهيمية التى هى دركات لها وهاوية تهوى فيها كما قال الله تعالى لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم والى هــذا أشار بقوله فأما ان كان من المقربين فروح وريحان الى قوله وتصليــة جحيم وفى معرفة أسرار هذه النكت الالهية قيلت هذه القصيدة والى أسرار موضوعاتها أشير بها وهى هذه

اقتربت الساعة وانشق القمر	وانكشفت عنهُ أفانين العبر
وان يروا آية حتى يعرضوا	عنهــا وقالوا هــذا سحر مستمر
وكذبوا واتبعوا أهواءهم	وكل شئ فعلوه فى الزبر

وجاء فيها

دونكموها يا بني الحق ولا ... يَشْغَلُكم عنها أباطيل الفكر
فكم لها من سامع منتفع ... يعلم ما يأتى لها وما يذر
وغافل عن الرموز جاهل ... يقول من يقول ذا فقد كفر
فمن يكن يعلم ما يقوله ... وكان يجرى رأيه على النظر
بما يبين صدقه بشاهد ... من العقول لا برجم من حذَر
بما يكون قربه مشتركاً ... وتستوى فيه دعاوى مِن يُقر
فليأتِ بالحكمة فى أخباره ... بالعدد المخصوص فى آى السور
مثل مقادير الفروض كلها ... من الصلاة والزكاة والطهر
وكم أولو العزم وأصحاب الرضا ... طالوت ذى البسط وحيد المنتظر
وكيف أسماء الآله ربنا ... تسع وتسعون هى الحسنى الكبر
وكيف فى تفريقه أمته ... على ثلاث بعد سبعين اختصر
وكيف أجزاء النبي ستة ... وأربعون وهو أمر ذو خطر
لم جعل الرؤيا الصحيح واحداً ... من جملة الأجزاء فيها فافتكر
وحاملو العرش وفى عدتهم ... عدة أبواب الجنان فى القدر
واختصت النيران فى أبوابها ... بسبعة مما أتاها وابتدر
منطلق فيها الى ظلاله ... فيها ثلاث شعب ترمى الشرر
وقال فى الذكر عليها تسعة ... يملك ما فيها جميعاً وعشر
كأنها قد جعلت عدتهم ... لفتنة الكافر أو ذكر الخبر
وكل من يسلك فيها وله ... سلسلة مقدار سبعين قدر
هذا وما طه وما حم أو ... طس أو أشباه هذا من سور

وما أمور أخفيت أنباؤها عن ظاهر بين رعاع كالحمر
من قصة الجان الذين أفسدوا واستحوذوا منها بماء قد غمر
وما هى الحية والطاووس اذ كانا معينين لابليس الخسر
وما هى الحنطة اذ حذّرها آدم من بين النبات والخضر
وكيف لما ذاقها بدت له سوأته وكان قبل مستتر
وكيف تعليم الغراب أولاً قابيل دفنا لأخيه اذ حضر
وما هى النار التى كانت على الـــخليل ابراهيم برداً اذ شكر
وما هى الطير التى أنشرها له الاله بعد موت اذ صبر
وما هو الطوفان اذ عم وما سفينة الألواح فيها والدسر
وما قميص يوسف وذئبه والدم اذ جئ بأفك مشتهر
والجب اذ ألقى فى غيبته والحبس اذ خص بما منه بهر
وكيف باعوه على مبتاعه بالثمن البخس وبالشئ النزر
وما هو البرهان اذ أبصر قال عندها السجن مرادى فصبر
وشاهد منه قد استشهده على قميص كان قد من دبر
وكيف كان بعد ذا قميصه فيه شفاء لأبيه مدخر
وما هو العجل الذى خار وما الـــصفراء اذ جيئت قتيلاً فى البقر
وما دم فاض فصار شرقاً لمن عليه لا على الماء اقتصر
وكيف تاهت أمة عظيمة دهراً وأرض التيه كالدار صغر
والجبل المرفوع فيهم ظله يشهده من غاب منهم وحضر
وخر ذو الملك سليمان وما خاتمه وما العصا ساعة خر
وما هو الطير وما منطقها والريح اذ تجرى به ثم تخر

وما هو الكرسى فى القائه ... له عليه جسداً لما اختبر
والعرش اذ أحضره عالمه ... قبل ارتداد طرفه كما ذكر
ويونسٌ اذ بلعته حوته ... فشاهد الأنجم فيها واعتبر
وما المسيح الروح والمهدى الذى ... كلم فيه الناس فى وقت صِغر
وصلب هاروت وماروت وما ... يعلمان الناس ممن قد سحر
ونوم أهل الكهف والبعث لهم ... وكلبهم سابعهم حسب الخبر
وسد ياجوجَ وماجوجَ ومن ... يلحسه من زمرٍ بعد زُمَر
وكيف سواه حجاباً موثقاً ... نفخُ المعيِنين وإفراغ القطر
وكيف اذ يقترب الوعد لهم ... يشخص أبصارهم اذا انقعر
وما طلوع الشمس من مغربها ... ما بين قرن مارد لا ينزجر

الى آخر ما جاء فى هذه القصيدة وقال بعد ذلك واعلم يا أخي أن هذه الأبيات وما فيها من المسائل انما هو ارشاد للمتأدبين باصلاح الأخلاق وتنبيه للمرتاضين بعلم النفس على الأسرار النبويات وما فى موضوعات الشرائع من الرمز ولا ينبغى لأحد من اخواننا أن يجيب أحداً اذا سئل عن هذه المسائل الاَّ من قد هذب نفسه وأصلح أخلاقه لأن صدأ النفس ورداءة أخلاقها مانع من فهم معانى هذه وقد بيّنا فى الرسالة السابعة التى تتلو هذه كيفية ذلك فافهم ان شاء الله وحده

وجاء فى رسالة البعث ما نصه ثم اعلم يا أخي أن معنى القيامة مشتق من قام يقوم قياماً والهاء فيه للمبالغة وهى من قيامة النفس من وقوعها فى بلائها والبعث هو انبعاثها وانتباهها من نوم غفلتها ورقدة جهالتها وهى بالفارسية راست خيز أى قياماً مستوياً واذا قرأت الى آخر هذه الرسالة

علمت أن القوم لا يقولون بالميعاد الجسمانى

وجاء فيها ايضاً بعد الكلام على كيفية تعلق النفوس بالابدان وتجردها عنها والافصاح للعقول فى أحوال الحساب والجنة والنار مما لا يهتدى الى معرفة كنهه البحث العقلى ما نصه واعلم يا أخى أيدك الله وايانا بروح منه بأنك اذا أردت النظر فى هذا العلم الشريف والبحث عن هذا السر اللطيف تحتاج أن تقصد أهله وتسألهم عنه كما يقصد فى سائر العلوم والصنائع الى أهلها كما قيل استعينوا على كل صناعة بأهلها واعلم يا أخى بأن أهل هذه الصناعة وعلماء هذه الأسرار هم اخواننا الكرام الفضلاء فانظر يا أخى فيما قالوا وتأمل ما صنعوه من حقائق الأشياء التى أنت مقر بها بلسانك وتؤمن بقلبك ثم تفكر فيما تسمع وتأمل ما يوصف لك وميّزه بسريرتك واعرضه على قلبك الذى هو حجة الله عليك والقاضى بينك وبين أبناء جنسك فان اتضحت لك حقيقة ما تسمع وتصورت ما يصفون وتيقنت ما يخبرون فبتوفيق من الله وهداية منه وان تكن الأخرى فقد بذلت المجهود وأقمت العذر الخ

وقد ذكرنا قليلاً من كثير وانما أثبتنا هذا فى مجموعتنا هذه لنزيل ما علق بعقول كثير ممن يشتغلون بالمباحث الفلسفية من أن كتاب اخوان الصفاء من وضع علماء الفلسفة الاسلاميين وأنه من نفائس كُتبهم معولين فى ذلك على عدم التقليد والثقة بمن يدعى ذلك أو يدعى أنه من وضع الباطنية ولك أيها المطالع الحكم على هذا الكتاب بعد ما تلوناه عليك

اذا علمت هداك الله الى مذهب أهل السنة والجماعة مذهب

الباطنية ونكايتهم الاسلام والتفاف كثير حولهم فاعلم أن المتقدمين من الحنابلة المتمسكين بما يفيده ظاهر الشرع وان ناقضه العقل لا يغنون شيئاً فى الجدل مع أولئك الأقوام ولذا وفق الله الامام أبا موسى الأشعرى للقيام بدحض آرائهم على وجه لا يمكنهم التخلص منه أمام جمهور المسلمين فانه تمسك بالأدلة الشرعية فى كل ما لا يحيله العقل فاذا استدل على مطلب من المطالب الدينية يتفهم منه المطلع على حاله القارئ لأغلب آرائه أنه لا يحاول بذلك الا كون المطلب ممكناً جائزاً فى ذاته وما دام الأمر كذلك فيستدل عليه بالدليل النقلى ولا يطمئن قلب مسلم أياً كانت حاله الى عدم الأخذ بالدليل النقلى فى الممكن فكانت آراؤه وأقواله من أشد ما يدحض أقوال أولئك الأقوام الذين عم ضررهم وقد آتاه الله من القوة والسداد فى ذلك ما لا ينكره الا جاهل أو مكابر وكان قد اشتغل بتعلم مذهب المعتزله حتى برع ثم تركهم عقيب مجادلته لبعض أئمتهم أبى على الجبائى زوج أمه فى مسألة الأخوة الثلاثة المشهورة ومولده ببغداد سنة ٢٦٠ هـ وموته رضى الله عنه سنة ٣٣٠ هـ ومن هنا تعلم أنه كان قائماً بدحض آراء الباطنية أيام شدة بأسهم وقوة دعوتهم وتاريخ الحنابلة معه معروف

ثم اعلم أن قيام الفرق فى ذلك العهد ومعارضتهم واشتغال علماء كل بتأييد رأيه كان من أكبر العوائق عن الاشتغال بالمفيد من الفلسفة فى الحياة الدنيا الذى تترتب عليه أنواع المخترعات التى سادت بها الأمم وقد تفطن الغربيون لذلك فبعد أن نقلت اليهم وبحثوا فيها على الطريقة القديمة التى كانت عليها أيام اليونان والفرس والعرب أفاقوا من رقدتهم فى القرن

السابع عشر وبحثوا فيهـا على الطريقة التى تفيدهم فى اجتماعهم البشرى وعمرانهم المدنى فكان ما هو مشاهد من الفوائد التى لا يختلف فيها اثنان وذلك سر ما تجده لدينا من بقائها على حالها السابقة بخلافها عند الغربيين فى كل ما مضى

هذا ونقف بك هنا أيها القارئ راجينك اللهمَّ الاثابة والغفران عما عساه أن يكون فرط من الزلل فالخير أردت وما توفيقي الاَّ بك يا من لا يعزب عن علمه مثقال ذرة فى الارض ولا فى السماء لا توفيق الى اصابة الحق الاَّ بك ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا يا من لك الحول والطول خذ بأيدينا الى ما فيـه الصواب والفلاح فى بداية أعمالنا وخواتيمها انك على كل شئ قدير وبالاجابة جدير وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

فهرست الخطأ والصواب

خطأ	صفحة	سطر	صواب
اعلم ايها الناظر	٦	١	أيها الناظر
وعظمائهم	٣٩	٦	وعظماؤهم
ورتب على فعل	٤١	١١	وقد رتب الشارع على فعل
آلهاً	٩١	٢٠	الها
الآله	٩٣	٢	الاله
لما هو	٩٥	٨	ولما هو
الآلهين	١٠٧	١٧	الالهيين
ان يكون هو أو جزءه سبباً	١١٠	٢١	ان يكون هو سبباً أو جزء سبب
القران	١٣٦	١١	القرآن
ويكونوا	١٣٦	١٦	و يكونون
والمهدى	١٤١	٤	والمهد





الفلسفة العربية والأخلاق

ملخص الدروس التي ألقاها بالجامعة المصرية

سلطان بك محمد

استاذ الفلسفة العربية والاخلاق بالجامعة المصرية

والمدرس بمدرسة دار العلوم

الجزء الثاني

في الأخــلاق



مطبعة المعارف بشارع الفجالة بمصر

﴿ فهرست كتاب الأخلاق الاسلامية ﴾

صفحة

صفحة

الاخلاق

بسم الله الرحمن الرحيم

وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا [١] واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما [٢] والذين يبيتون لربهم سجداً وقياما والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم ان عذابها كان غراما [٣] انها ساءت مستقراً ومقاما والذين اذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما [٤] والذين لا يدعون مع الله الهاً آخر ولا يقتلون النفس التى حرم الله الا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلقَ أثاماً يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيهِ مهاناً الا من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفوراً رحيماً . ومن تاب وعمل صالحاً فانه يتوب الى الله متاباً [٥] والذين لا يشهدون الزور واذا مروا باللغو مروا كراما والذين اذا ذكروا بآيات ربهم لم يخرّوا عليها صماً وعميانا والذين

---

(١) بسكينة وتواضع لا يضربون الأرض بأقدامهم أشراً و بطراً

(٢) سداداً يسلمون فيه من الايذاء والاثم (٣) هلاكاً وخسرانا

(٤) حداً وسطاً والاثام بوزن الوبال والنكال الجزاء والاثم ومعنى مضاعفة العذاب أن يكون على الكفر والذنب ومعنى تبديل السيئات حسنات محوها واثابتهم على الايمان والأعمال وقيل المراد بالسيئات الكفر والقتل والزنا و بالحسنات الايمان وعدم القتل والعفة (٥) أى مرضياً له مكفراً للخطايا جالباً للثواب

يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قوة أعين وجعلنا للمتقين اماما أولئك يجزون الغرفة [1] بما صبروا ويلقون فيها تحية وسلاما خالدين فيها حسنت مستقرًّا ومقاما

اعلم أيها الناظر فى كتابنا هذا أن لكل موجود خواص يحصل بها كماله اذا تمت له على وفق الغرض المقصود منه ألا ترى أن أكمل أنواع الغذاء ما كان أشد تغذية من غيره وأبعد عن الاضرار بالمغذّى وأن أجود أنواع السقيا ما كان أسرع فى اذهاب العطش وأعذب مذاقاً نافعاً لصحة الشارب وأجود الخيل ما كان أشد عدواً وانقياداً لراكبه وأن أجل العلوم وأفيدها ما كان أعظم نفعاً فى الدنيا والآخرة وهكذا وأنت خبير بأن أشرف تلك الموجودات الانسان الذى فضله الله على كثير من خلقه . قال تعالى (ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا) وقد امتنّ عليه بأن سخر لنفعه ما فى العالم كما قال خلق لكم ما فى الأرض جميعاً .

وظاهر أنه لا يتأتى له الانتفاع بذلك الاّ اذا كان ذا فكر ثاقب سديد وعنيت أفراده به كى يتسنى لكل واحد منهم الوقوف على خواص تلك المخلوقات وفوائدها فى الاجتماع البشرى والعمران المدنى فان توزيع الأعمال على الأفراد أدعى لانجازها والحصول على كثير منها كى يرتفقوا به ويساعدهم على المنافع الدنيوية والأخروية والباحث منهم عن ذلك مظهر لآلاء الله جلّ شأنه على أفراد هذا النوع فهو أعظم نفعاً وأكثر فضلاً ممن عطله بخمود فكره ونقيصة كسله وأنت أرشدك الله

---

(١) الدرجة العالية

تعلم أن حاجة الانسان فى غذائه وملبسه وغير ذلك مما تتوقف عليه حياته لا يستطيع أن يقوم بها منفرداً فلا بد من اجتماعه مع بنى نوعه وتوزيع تلك الأشياء عليهم فكيف به فى كمالاته حتى يعيش عيشة طيبة وانك لتذعن أنه كلما عظمت الألفة ووشجت الرابطة بين أفراد هذا المجتمع واتحدت الوجهة زاد متانة وقوة فيقل تطرق الخلل اليه وتسهل أمامه سبل السعادة . ألست ترى بعد هذا البيان الوجيز أن المقصود من وجود الانسان هو الوقوف على حقائق الموجودات وما لها من الخواص والعمل الذى ينهض به وبأمته الى أوج السعادة وأنه بمقتضى ما قلناه من القانون العام أنه لا تتفاضل أفراده الا بذلك فكل من توفرت لديه القوى النظرية الحقة والقوى العملية المفيدة كان قائماً بما قصد من الوجود الانسانى فكان فيه أفضل ممن كان أحط منه فى ذلك . واذا أمعنت النظر وجدت عامة خلال الانسان شريفها وخسيسها ترجع الى ثلاث قوى . الأولى القوة الناطقة وتسمى بالقوة الملكية أيضاً وهى القوة التى يكون بها الفكر والتمييز والنظر فى حقائق الأشياء وخواصها . الثانية القوة الغضبية وتسمى السبعية وهى القوة التى يكون بها الغضب والنجدة والاقدام على عظائم الأمور والشوق الى التسلط والترفع وأنواع الكرامات . الثالثة القوة الشهوية وهى التى تكون بها الشهوة الى طلب الغذاء وملاذ المآكل والمشارب وغيرها من ضروب اللذات البدنية واذا اعتدلت هذه القوى وكانت على حدها الأوسط وانقاد الأخريان منها الى الأولى فيما يكون عنهما من التصرفات قامت كلها بالأغراض الشريفة التى خلق لها الانسان ولو غلبت واحدة منهن على الأخرى وكان التصرف على خلاف ما تقتضيه

النفس الملكية نشأ عن ذلك شرور على قدر ذلك الخلاف والغلب

ومعلوم أن هذه القوى ضرورية لعيش الانسان وفلاحه ووصوله الى الغرض المقصود منه فاذا كانت بين طرفى الافراط والتفريط وتصرفت على مقتضى معلومات النفس الناطقة جلبت الخيرات ودرأت الشرور وكان صاحبها فاضلاً كاملاً وان تكن الأخرى عمت الشرور وساءت الأحوال وكان المتصف بها شريراً مرذولاً

أنظر الى شخص بليد الطبع لا يعقل له خيراً فيجلبه أو شراً فيدفعه ولا يشاطر بنى نوعه فى شئ منهما تراه أحط حالاً من البهائم فانها أجدى منه بتسخيرها فى جلب المنفعة ودرء المضرة والى شخص آخر زادت فطنته عن حد الاعتدال فأصبح ذا جربزة لا يدرك حقيقة ولا يصدق بثبوت أمر لآخر لما يعتريه من الشكوك والأوهام التى لا تقف به عند حد لعدم اعتدال ذكائه فكلما أدرك أمراً نقضه وكلما نقض شيئاً أثبته ثم نقض ما أثبته وهلم جرًّا فان ادراكاً مثل هذا لا يعرف به حسن من قبيح ولا يترتب عليه نهوض الى ابرام أمر أو ايجاد عمل فصاحبه لا يمتاز عن بليد الطبع فاقد الفهم فلا يكون عنه ما قصد من الانسان وخلق لأجله . ومثل ذلك يقال فى القوة السبعية والشهوية

واعلم أن اعتدال القوة الأولى واستعمالها فى المعارف الحقة دون الباطلة ينشأ عنه الحكمة واعتدال الثانية وانقيادها للأولى فيما ترسمه لها فلا تهيج فى غير موضع الهياج ولا تحمى أكثر ما ينبغى لها ولا تخمد فى موضع هياجها فتترك حماية ما تنبغى حمايته ينشأ عنه الشجاعة واعتدال القوة الثالثة وانقيادها للأولى فيما تسنه لها فلا تنهمك فى الملاذ الشهوية

على وفق هواها ولا ترد منهـا ما به قوام البدن تحصل به العفة والسخاء ويحصل عن اعتدال هذه الأشياء الثلاثة قوة رابعة تسمى بالعدالة

هـذه هى القوى الأربع التى أطبق علماء الاخلاق على أنها أمهات الفضائل وأصولها . ولنبحث الآن فيما يندرج تحت كل واحدة من هذه الامهات

الحكمة وما تشتمله من الصفات

هذا الخلق من خواص الانسان دون سائر الحيوان وهو أن تعلم النفس حقائق الموجودات وما لها من الخصائص بقدر الطاقة البشرية وما يجب أن يفعل من الأشياء وما يجب أن يترك بالقياس الى السعادتين فى الحياتين والشقاء فيهما والعلم بالشىء من حيث حسن فعله أو تركه هو الغرض الذى نتوخاه فى علمنا هذا . وعلى ذلك فهى واسطة بين الجربزة التى هى استعمال القوة المفكرة فيما لا ينبغى وكما لا ينبغى بمعنى عدم الوقوف فى الفكر عند حد كما قلناه والبلادة وهى تعطيل هذه القوة واطراحها بالارادة . وتشمل هذه القوة سبعة اشياء لا تتحقق بدونها

أولها (الذكاء) وهو وسط بين الخبث والبلادة . فالأول هو الافراط فيه حتى يخرج عن حد الاعتدال بأن يستعمل الدهاء والحيل الرديئة فيما ينبغى فيه الذكاء . والثانى هو التفريط فيه بأن يكون أبله عاجزاً عن ادراك ما يحسن فيـه الذكاء المذكور وكما يكون فى العلم يكون فى الحصول على الاشياء

ثانيها (الذُكْر) وهو وسط بين اهمال ما ينبغى أن يحفظ والعناية

بما لاينبغى أن يحفظ فان الأول تفريط يترتب عليه ضياع ما يجب أن تتذكره القوة النفسية حتى تعمل على اجتلاب ما فيه الخير ودرء ما فيه الشر . والثانى افراط يحصل منه اشتغال تلك القوة بحفظ ما لا يفيدها حفظهُ وفى ذلك بعض تعطيل لها عن الاشتغال بالأشياء النافعة

ثالثها (التعقل) أى حسن التصوّر وهو وسط بين الذهاب فى تصور الشيء الى أكثر مما هو عليه وقصور النظر فيه عما هو عليه . فان الأول افراط مؤد الى اشتغال الفكر بما لا يعود بالفائدة بل قد يؤدى الى الخطأ كالبحث عن كون الكهرباء تُبصَر أو لا . والثانى تفريط قد يوجب عدم ادراك الحقائق والافعال التى ينبغى أن تكون أو لا تكون ادراكاً حقاً وهذا يقتضى أنا قد نعمل ما لا ينبغى ونترك ما ينبغى

رابعها (سرعة الفهم) وهى وسط بين اختطاف خيال الشيء من غير احكام لفهمه و بين الابطاء عن فهم حقيقته . والأول افراط فى السرعة المذكورة ينشأ عنه الجهل المركب وهو يستتبع ايجاد ما الكمال فى تركه وترك ما يكون الكمال فى ايجاده . والثانى تفريط يسوق الى استمرار البقاء على الجهالة واستتباع ذلك لجلب الاضرار وعدم تحقق الاغراض المقصودة من الوجود الانسانى امرٌ لا يخفى

خامسها (صفاء الذهن) وهو وسط بين الالتهاب الذى يعرض له فيمنعه من استخراج المطلوب و بين ظلمته التى تعوقه عنه

سادسها (قوة الذهن وجودته) وهى وسط بين افراط التأمل فيما يلزم الشيء حتى يخرج منه الى غيره و بين التفريط فيه حتى يقصر عنه وضرر كل من الطرفين ظاهر

وسابعها (سهولة التعلم) وهى وسط بين الافراط فيها الذى هو المبادرة اليه بسلاسة لا يثبت معها العلم و بين التفريط الذى هو ارتكاب الصعوبة والتعسر فى الحصول عليه

علمت من هذا أن فضيلة الحكمة لا تحصل الاَّ من توفر اعتدال هذه الاشياء السبعة ولو تأملت لوجدت بعضا منها لازماً للآخر بل تجد الفرق بينها دقيقاً جداً . واعلم أنه ما دام الحد الوسط فى هذه الاشياء فضيلة يكون كل من الافراط والتفريط رذيلة

الشجاعة — هى كما علمت اعتدال القوة الغضبية التى تكون فى الانسان وغيره من الحيوان . وهى وسط بين رذيلة الافراط الذى هو التهور أى الاقدام على ما لا ينبغى أن يقدم عليه والتفريط وهو الجبن أى الخوف فيما لا ينبغى أن يخاف منه . وقد علمت مما أبناه آنفاً أنها اعتدال القوة السبعية ولا تحصل هذه القوة الا اذا توفر اعتدال القوى السبعة المحصلة لها وهى (كبر النفس) وهو الاستهانة باليسير والاقتدار على احتمال ما يحتمل من الشدة والهوان وذلك وسط بين الافراط فيه وهو الاستهانة بالكثير واحتمال ما لا يحتمل من الهوان وبين التفريط الذى هو الاعتداد ببعض الاشياء اليسيرة وعدم احتمال بعض ما يحتمل من الذلة و (النجدة) وهى ثقة الانسان بنفسه عند المخاوف حتى لا يخالطه جزع و (عظم الهمة) وهى فضيلة فى النفس تحتمل بها السعادة والشقاء حتى الشدائد التى تكون عند الموت و (الثبات) وهو فضيلة فى النفس تقوى بها على احتمال الآلام ومقاومتها فى الاهوال خاصة ولا يزحزحها ذلك عما تحاوله و (الحلم) وهو خلق فى

النفس يكسبها الطمأنينة فلا تكون شغبة ولا يحركها الغضب بسهولة وسرعة و (الشهامة) وهى الحرص على عظيم الاعمال توقعاً للأحدوثة الجميلة و (احتمال الكد) وهو قوة للنفس تستعمل بها آلات البدن فى الامور الحسنة بالتمرين وحسن العادة و (السكون) أى عدم الطيش عند الخصومات أو الحروب المشروعة وهو قوة للنفس تُقَسِّم بها حركتها فى ذلك تقسيماً مراعىً فيه الظروف والاحوال. وهذه القوى التى تحصل عن اجتماعها الشجاعة التى هى اعتدال القوة السبعية لها طرفان افراط وتفريط وكل منهما رذيلة كما قدمناه

العفة — هى صرف الشهوات على وفق الرأى الصحيح فيكون صاحبها خيّراً غير خاضع لها وهى ناشئة عن اعتدال القوة الشهوية المشتركة بين الانسان وغيره من أنواع الحيوان. وهذه القوة تحصل من اعتدال اثنتى عشرة قوة أولها (الحياء) وهو انحصار النفس خوف اتيان القبيح والحذر من الذم الصادق. وثانيها (الدعة) وهى سكون النفس عند حركة الشهوات. وثالثها (الصبر) وهو مقاومتها الهوى لئلا تنقاد لما لا يحسن كقبائح اللذات والهلع فى الملمات. ورابعها (السخاء) وهو التوسط فى الاعطاء بأن ينفق الأموال فيما ينبغى على مقدار ما ينبغى وعلى ما ينبغى. وخامسها (الحرية) وهى الصفة التى بها يكتسب الانسان المال من وجهه ويعطيه فى وجهه ويمتنع من اكتساب المال من غير وجهه ومن اعطائه كذلك. وسادسها (القناعة) وهى التساهل فى المآكل والمشاوب والزينة المتوفرة. وسابعها (الدماثة) وهى حسن انقياد النفس لما يجمل ما عدا الزينة وتسرعها اليه. وثامنها (الانتظام) وهو حالة فى النفس

تقودها الى حسن تقدير الامور وترتيبهـا على الوجه الحسن . وتاسعها (حسن الهدى) وهو محبة تكميل النفس بالزينة الحسنة على الحد الوسط وعاشرها (المسالمة) وهي موادعة تحصل للنفس بدون اضطرار اليها بالاّ يـكون شديد الطلب والمخاصمة فى الامور الشهوية وحادى عشرها (الوقار) وهو سكون النفس وثباتها عند الحركات التى تكون في المطالب وثانى عشرها (الورع) وهو ملازمة الأعمال الجميلة التى للنفس فيها كمال من حيث ترك الشهوات وملازمة التقوى

العدالة — هى وسط بين أن يكون الانسان ظالماً لغيره وبين كونه مظلوماً له . والأول يتوصل به الى كثرة المقتنيـات من حيث لا ينبغى وكما لا ينبغي ولذلك يكون للجائر أموال كثيرة لأنه يتوصل اليها من حيث لا ينبغي وكما لا ينبغى . وأما الثانى فيؤدى الى قلة المقتنيـات والأموال لأنه يتركها من حيث لا يحسن وعلى هذا فالعداله التى هى الوسط بين الأول والثاني عبارة عن أن يقتنى الانسان مقتنياته من حيث يجب ويتركها من حيث لا يجب فهى فضيلة يتصف بها الانسان من نفسه ومن غيره دون أن يمنح نفسه من المنافع أكثر وغيره أقل وفي المضار لا يجعل نفسه أقل وغيره أكثر بل يستعمل المساواة . والجور ضدّ ذلك والعدالة كما قدمنا تكون عن أمهات الفضائل الثلاثة السابقة التى هى الحكمة والشجاعة والعفة . وتحصل هذه الصفة بتوفر اعتدال القوى الثمانية الآتيـة . (الصداقة) وهى المحبة الصادقـة التى يهتم معها بجميع أحوال الصديق وايثار فعل الخيرات التى يمكن فعلهـا له وهى آتية من الشهامة والقناعة وحسن التعقل الذى هو من القوة الحكمية و (الألفة)

وهى اتفاق الآراء والاعتقادات وتكون عن التواصل والتظاهر على تدبير أمور الحياة وهى آتية من القوة الحكمية واعتدال القوة الغضبية وثالثها (صلة الرحم) وهى اشراكها فى الخيرات الدنيويه . ورابعها (المكافأة) وهى مقابلة الاحسان بمثله أو بما يزيد عليه وهى ناشئة من السخاء وحسن التعقل . وخامسها (حسن الشركة) وهى الأخذ والاعطاء فى المعاملات على حد الاعتدال الموافق للجميع وهى كائنة عن حسن التعقل واعتدال العفة . وسادسها (حسن القضاء) وهو مجازاة بغير من ولا ندم . وسابعها (التودد) وهو طلب مودة الاكفاء وذوى الفضل بحسن اللقاء والأعمال التى تجلب محبتهم وهى ناشئة عن التعقل والشهامة واعتدال القوة الغضبية . وثامنها (العبادة) وهى تعظيم الله تعالى وطاعته واكرام أوليائه من الأنبياء والصالحين والعلماء العاملين والعمل بما تطلبه الشريعة وتقوى الله تعالى أعظم مكمل لهذه الأشياء ومتمم لها وهى كائنة عما تقدم

اعلم أنه اذا توفرت الفضائل السالفة فى بنى الانسان فقد عرفوا الحقائق وخواص الاشياء التى يتمتعون بها ويرتعون باستخراجها فى بحبوحة السعادة واتسموا بفضائل الاخلاق التى توجب لهم ميل الأفئدة وصفاء القلوب فتقل بينهم المشاحنات وتذهب الضغائن وتعظم الصلات فتتحد الوجهة وتجتمع الأيدى على الأعمال النافعة ودرء المضار فترقى الامة فى درج سعادتها الدنيوية والأخروية

والعلم الباحث عن الصفات الانسانية من حيث استتباعها الكمال أو النقص من جهة تأثيرها فى الاجتماع الانسانى قوةً أو ضعفاً وذكر

طريق الوصول الى فضائلها والتوقى من رذائلهـا هو ما نسميه بعلم تهذيب الاخلاق

الخلق

هو ملكة فى النفس يطرد عنها صدور الافعال فلا تكون الشجاعة خلقاً الاّ اذا كانت راسخة فى نفس من اتصف بها فلا يتأخر فى موضع الاقدام ولا يقدم فى موضع الاحجام وكذلك صفة الحلم وغيرهـا من الأخلاق الفاضلة ومعلوم أن هذه الصفات لا تخرج عن كونها أحوالاً الى كونها ملكات الاّ بكثرة تمرين النفس عليها وأخذها بها فى مواقعها حتى تعتادها وتصير كأنها غريزة فيها

ومن تأمل فى أحوال كثير من الناس يرى أن من بينهم من تكون فيه بعض الأخلاق جبلية فانا نرى بعضاً منهم يغتم ويحزن لأقل حادث واذا أبنت له أن هذا الحادث عادى لا يقتضى أسفاً ولا حزناً أعجزتك تسليته ومن يضحك لأقل شيء واذا حاولت رجوعه عن ذلك استعصى عليك أمره بل انه يصعب عنه التخلى عن ذلك وأن منهم أيضاً من يجبن ويفزع من أى نبوة ويمتلئ قلبه خوفاً ويكاد يذوب رعباً من أى طارئ ولذا ذهب بعض من علماء الأخلاق الى أنها جبلية وذهب آخرون الى أنه لا جبلى منهـا للانسان وانما ينمو فيه خلق الفضيلة باتباع وسائله من التربية والتهذيب ومصاحبة الأخيار واستعمال الروية والفكر وخلق النقيصة باتباع سبله من مصاحبة الاشرار واهمال التربيـة والتهذيب والانقياد للنفس الشهوية أو الغضبية

قال الرواقيون [١] ان الخلق الفطرى فى الانسان هو الخير وانما اهمال تربيته وتركه مع وسائل الشر يذهب به الى النقيصة وقال جالينوس ان من الناس من فيه خلق الخير واذا ذهبت به الى خلق الشر استعصى عليك أمره أو خفضت من خلقه الخيرى بعض التخفيض ومنهم من فيه خلق الشر واذا حاولت تغيير خلقه هذا بضده أعياك أمره وربما أنقصت منه بعض النقص ومنهم من خلقه وسط بين هذين الأمرين ويحصل له أحدهما بمراعاة وسائله وطرقه وأبطل قول من قال ان أصل الخلق فى كافة الناس الخير ورأى الآخر القائل بأن أصله الشر بأنا قد وجدنا فى كثير من الناس خلق الشر فان كان من نفسه فقد بطل قول من قال ان أصله الخير وان كان مكتسباً من غيره أو جاء بالفكر والنظر فقد بطل أيضاً قول القائل المذكور لأن ما بالطبع لا يتخلف وأبطل القول الثاني بمثل ما أبطل به الأول

وانا نقول انه ليس شئ من الأخلاق الخاصة طبعياً للانسان . بل انه قابل لأن يتغير من خلق الى آخر باستعمال وسائل ذلك الخلق الذى ينتقل اليهِ سواء كان هذا التغير سريعاً أو بطيئاً فانا نرى الانسان في حالة طفوليته قد يكون له ميل الى خلق الكرم مثلاً وتحقق ذلك منه تحققاً لا لبس فيهِ فان الاطفال لم يصلوا بعد الى ادراك أن هذا الخلق ممدوح أو مذموم حتى يتظاهروا بالأول دون الثاني كما هو شأن الكبار الذين عقلوا ذلك (ومثل هذا تكون تمية الخلق الذى فيهِ مبدأ الميل اليه

---

(١) هم أصحاب كروسيفس كان يعلم فى رواق بهيكل أثينا وهو من الفلاسفة المتقدمين الذين دثرت فلسفتهم

سريعة جداً) وأن الخلق الذى ليس فيه ميل اليه اذا ترك وشأنه حتى كبر رسخ وتأصل وأصبحت زحزحته عنه بطيئة تحتاج الى كثير من العلاج والقول بأن الأخلاق طبعية لا تتغير مخالف للمشاهد ومعطل لما أمرنا به من التربية والتهذيب ومناقض لما درج عليهِ البشر من الحث على الأخذ بوسائل السعادة والرقى

الكلام على فوائد الحكمة

اعلم وفقك الله أن النفس مستعدة بأصل فطرتها الى ادراك الحقائق وما يعرض لها من الأحكام وهذه اما أن تكون عقلية محضة وتنقسم الى بديهية ونظرية فالبديهية ما تحصل للنفس بدون نظر واستدلال ولا يظهر لنا سبب ذلك وهذا مثل ادراكنا المحسوسات ومثل تصديقنا بأن الواحد لا يكون في مكانين في وقت واحد والنظرية ما ليست كذلك كتصورنا ماهية الجن والملك والكهرُباء مثلاً وكحكمنا بأن الوجود عين الماهية وأن الابعاد متناهية وأن التسلسل محال وبأن في بعض الأجسام جذباً وأن من خواصه أنهُ يحرك الأجسام الثقيلة من موضع الى آخر وأن كل جسم خفيف يطفو فوق ما هو أثقل منه وأن من خواصه تحقق السباحة والطيران في الهواء وكحكمنا على جذب المغناطيس بأن المختلف منه يتباعد ويتنافر وأن من خواص ذلك الاهتداء الى طريق السير برّاً وبحراً الى غير ذلك واما أن تكون شرعية وهي أحكام نظرية يتوقف عليها الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وثبوت أحكام الأفعال الانسانية لها من الوجوب والندب والكراهة والجواز والصحة والفساد الخ . ومعرفة

أحوال كل خلق من الأخلاق الانسانية من حيث ما يترتب عليه من الفوائد الخصوصية والاجتماعية أو المضار كذلك ويلحق بذلك معرفة طريق التخلي عن رذائلها والتحلي بفضائلها واقبال الناس على استنباط تلك المعارف النظرية حتى تحصل لديها الحقائق وخواصها وما يترتب عليها من الأحكام سواء الشرعية أو العقلية التي لم يحظرها الشارع عليه السلام لكونها لا تعود على موضوعه بالنقض كما أسلفناه كل ذلك أمر تدعو اليه الشريعة المطهرة كيف والعالم بخواص الاشياء المفيدة في هذا المجتمع اذا أبرزها أظهر لنا فوائد ما امتنّ الله علينا به من خلقه لنا جميع ما في الأرض وسهل لنا مرافق هذه الحياة واذا كان الله جعل لمن عمل صدقة جارية ثوابا في الحياة وبعد الممات لبقاء تلك الصدقة بعد الموت (قال عليه الصلاة والسلام اذا مات ابن آدم انقطع عمله الا من ثلاث صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له) — كان المظهر لخواص الاشياء لبنى نوعه كي تعينهم على سهولة قضاء حاجهم ويرتفقوا بها ارتفاقا دائميا أدوم ثوابا وأعظم أجراً عند الله تعالى متى توفرت وسائل ذلك وقد حث الله عباده المؤمنين على اكتساب العلوم النظرية وجعلها من أعظم القرب اليه تعالى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلى بن أبي طالب كرم الله وجهه اذا تقرب الناس الى الله تعالى بأنواع البر فتقرب أنت بعقلك فانه لا يكون التقرب بالمعارف الغريزية الفطرية ولا بالعلوم الضرورية بل بالعلوم الكسبية

ومعلوم أنه يندرج فيها العلوم الكسبية الشرعية كالعقائد المتعلقة بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ومعرفة حسن الأعمال وقبيحها وما يترتب على ذلك من الاحكام الشرعية ومعرفة فاضل الأخلاق التي

مدحها الشارع وحض على الالتصاق بها وسافلها التى نهى عن التخلق بها الى غير ذلك من علوم الشريعة الغراء وقد قدمنا أن العلوم النظرية المتعلقة بمعرفة خصائص الأشياء وما يكون عنها من المنافع فى هذه الحياة وابرازهـا فى عالم الخارج من أجل الأشياء التى توجب حسن الذكر عند الناس كافة

انظر أيدك الله الى دليل السير المسمى (بالبوصلة) وما تترتب عليه من قطع المساوف والوقوف على عجائب المخلوقات من البحار والجبال وأشكال أنواع الطيور والحيوان وغير ذلك من الآثار الخالدة والمصنوعات البديعة وما كان من ارتباط الأمم وانتفاع كل بما عند الآخر من الأشياء المادية والأدبية ولا يذهب بك عدوان بعض على بعض الى القدح فى نتائج ذلك الدليل لأنه ليس منشأ ما ذكرت بل هو كائن عما جبلت عليه الطبائع البشرية من حب الغلب والاستئثار بالمنافع سنة الله فى خلقه انظر الى ما سرت به الركبان من اطراء جيم وط الانكليزى مخترع الآلة البخاريه ومقدار ما جاء به من المنفعة في بنى النوع الانسانى فى حياتهم الدنيا فانهـا أزالت عنا متاعب كثيرة نقضى فيها أزماناً طويلة للحصول على شئ قليل بالنسبة لما نحصل عليه من تلك الآلة من طحن الحبوب وحرث الأراضى واصلاحها وريها وتسيير السفن والقاطرات البرية وطبع الكتب وسك النقود وطرق المعادن الصلبة ورفع الأثقال وما ينشأ عنها من صناعة المنسوجات وغير ذلك من الأعمال التى يحتاج فيها الى القوة أليس ذلك نتيجة البحث والتنقير عن معرفة خواص الأشياء الكونية وما يترتب عليها من المنافع لبنى النوع الانسانى وعدم اجهاد الحيوان

الذى أمرنا الشرع الشريف بأن نرفق به

فوائد الشجاعة — هى احدى أمهات الأخلاق ولا نريد بها هنا اقتحام الحروب وركوب أخطارها عند الاقتضاء مع الروية والفكر بل نريد بها ما هو أعم من ذلك فتشمل هذا وتشمل الاقدام الأدبي والثبات على المبادئ الشريفة التى تعود بالفائدة على المجتمع الانساني وهو خلق فى النفس ينمو بالتربية والتمرين كما أن ضدها كذلك فانا شاهدنا أخوين تربيا تربية واحدة ورأينا أحدهما شجاعاً والآخر جباناً وهى بقسميها اذا روعى فيها الحكمة جلبت الخير ودفعت الضير والقسم الأول منها ألزم لغير أهل الحضر فان كثيراً من القبائل أهل البادية الذين نيطت بهم حماية أهليهم وأموالهم اذا نما لديهم هـذا الخلق حموا ذمارهم وكفوا عنهم يد العدوان وهابهم الظالمون لان النفوس جبلت على حب عدم الغلب وصيانة الأعراض والأموال فلا يمدون يداً لأولئك القوم الذين علم أمرهم فى الذود عن حياضهم لانهم يظنون أنهم اذا راموا ذلك منهم ردوا على أعقابهم وخسروا رجالاً وأموالاً والانسان لا يقدم على عمل الا اذا تخيل منه نفعاً فالشجاعة حصن لذويها وصياصى تقصر عنها يد أولئك الطامعين قال زهير

ومن لم يذد عن حوضه بسلاحه   يهدم ومن لا يظلم الناس يظلم

وقال غيره

تعدو الذئاب على من لا كلاب له   وتتقى صولة المستأسد الحامى

وهى سياج الأمم واحدى وسائل رقيها وعظم سلطانها فالأمة التى اتحدت وجهة أبنائها وأصبحت الشجاعة لهم خلقاً تخطو فى ميادين العظمة واتساع الملك وتتطأطأ أمامها رءوس الطامعين واذ قد تبينت القسم الأول

منهـا علمت ما يترتب عليه من المنافع فان شجاعة قبيلة أو حكومة أو فرد أمام نظيره يستعقب قبض يد ذلك النظير عنـه فاذا كانا متصفين بتلك الصفة الفاضلة متكافئين فيها عم السلم وشمل الأمن فعاش كل آمناً على نفسه وماله وعرضه فتنبسط الأيدى للعمل والـكسب

البحث عن خواص الأشياء التي توصل الى الحياة الطيبة هو الغرض المقصود من الوجود الانسانى كما تقضى به عامة الديانات السماوية نقل ما معناه أن بعض الصحابة أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو لدى الكعبة وطلب منه الدعاء على المعارضين الباغين . فقال له الى متى والذى نفس محمد بيده ليتمن هـذا الأمر (أى الاسلام) حتى ان الراكب من صنعاء الى حضرموت لا يخشى الا الله على نفسه والذئب على غنمه الشجاعة درع يتى به الانسان نفسه من أنواع الحيوان المفترس اذا عدا عليه فاذا كان جباناً امتلأ قلبه رعباً ولو كان ذا سلاح لا يحتاج في استعماله لرد ذلك العادى الى كبير عمل لأن ما لديه من الرعب ينسيه ذلك السلاح أو يعوقه عن استعماله على وجهه فتذهب حياته (وهى أنفس شئ يدافع عنه) بشدة خوفه وجزعه . انظر الى المهلب بن أبي صفرة وموسى بن نصير وما ترتب على شجاعتهما من خفظ كيان المسلمين وعظيم فتوحاتهم

الشجاعة الأدبية ألزم للكمال الانساني بالنسبة لأهل المدن الذين قامت دولهم بكف يد العدوان عنهم وردعت باغيهم بما لديها من القوانين ووسائل معاقبـة ذوى الدعارة والعيث وأمنتهم عدوان المفترس من أنواع الحيوان بما اتخذوه من المنازل والاسوار

وهذا النوع من الشجاعة يساوق الثبـات والمثابرة فانه لولا ثبات

ذوى المبادئ الشريفة على مبادئهم والاستدامة عليها لا يثنيهم عن عزمهم كثرة المثالب والمطاعن لما تمت تلك المبادئ واستقرت بعد أجيال ذلك أمر معلوم مسطور في تاريخ عظماء الرجال انظر الى الوليد بن رشد والى سقراط الحكيم وغيرهم من فطاحل العلماء تجد أنهم لو لم يثبتوا على آرائهم بل نكصوا على أعقابهم أمام قوة معارضيهم لما انتفع بآرائهم ومؤلفاتهم . كم من شرور نشأت عن التردد في العمل والخور فى العزيمة كثيراً ما يعرف الرجل وجه العمل ويعجز عن سلوكه . كم من آمال كلها تحمس لا نتيجة لها الا الأقاويل . انما ينفع لسان صامت وفعل ناطق العمل خير ما تقام به الحجة على الحساد والجهلاء والظلمة القادرين . العمل تحت سياج السكوت أنفذ للوصول الى القاصد وأمنع معقلاً يمنع من الحبوط . انا في حاجة الى قدر وفيرة نقاوم بها شرور الجهلة ونعتصم بها من سلطة ذوى الأيدى القاهرة فما أحوجنا في أعمالنا الممدوحة الى همم عالية وقُدَر طائلة مع الاناءة والحكمة التي نقاوم بها تلك الآراء المضادة والقدر الغالبة . لا نسعى فى هذا العصر الى استمالة كريم الأخلاق حسن التربية كما أن الرجل لا يرقى بظهر صلب بل بظهر ذى غضروف ليّن كذلك لا ترقى الرجال بقومها الا اذا لانت أقوالها وعظمت أعمالها . لا خير فى قول لم يصحبه فعل . اذا أراد الله بأمة شراً رزقها القول وحرمها العمل ليس الثبات والمثابرة على جليل الأعمال خاص بالرجال . عليك تاريخ قرة العين وجاندرك ترَ الثبات والمثابرة في أجلى معانيها . اقرأ تواريخ المخترعين وما لهم من المنافع تعلم أن الشجاعة اذا روعى فيها القوة الحكمية جلبت المنافع الجمة وذرأت المضار الكثيرة . لولا العالمون ذوو الشجاعة والثبات لما

تحولت الأمم من بؤس الى نعيم ومن انحطاط الى رقىّ ومن ظلم واستبداد الى عدل وشورى

هذه تواريخ الأمم الحاضرة يرشدنا قديمها وحديثها الى أنها لم تصل الى ما هى عليه الآن الا بأقلام الكاتبين واختراع المخترعين واتحاد عقلائها وثبات أبنائها فى جلب الخير ودفع الضرّ وهذا مما لا يحتاج الى ايضاح . انظر القدوة العظمى لبنى النوع الانساني وهو سيدنا ومولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم وسائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وما لاقوه من الشدائد فى تبليغ دعوتهم ترَ العجب العجاب فقد قام عليه السلام بالدعوة منفرداً بين قوم عرفوا باللجاج والتمسك بباطلهم وتظاهروا عليه صلى الله عليه وسلم وهموا بقتله وقالوا بعدم مصاهرة أسرته وبالجملة فقد لاقى فى سبيله الأهوال والمصاعب وهاجر من موطنه واحتمل ما لا يحتمله غيره كل هذا لم يرجعه عن دعوته وانذاره وتبشيره فلقد كان يمتلئ قلبه فرحاً اذا هدى الله به قلب رجل أو امرأة الى الدين الحنيف واذا تولوا وأعرضوا اشتد أسفه وحزنه قال تعالى (فلعلك باخع نفسك على آثارهم ان لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفاً) وقد كان عليه السلام أشجع الشجعان فقد ثبت فى غزوة حنين دون الكثير من أصحابه

قال علىّ كرّم الله وجهه لقد رأيتنى يوم بدر ونحن نلوذ بالنبي صلى الله عليه وسلم وهو أقربنا الى العدو وكان من أشد الناس يومئذٍ بأساً . وقال أيضاً كنا اذا احمرّ البأس ولقى القوم القوم اتقينا برسول الله صلى الله عليه وسلم فما يكون أحد أقرب الى العدو منه وقال عمران بن حصين رضى الله عنه ما لقى رسول الله كتيبة الا كان أول من يضرب ولما غشيه

المشركون نزل عن بغلته فجعل يقول أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب فما رؤى يومئذ أحد كان أشجع منه

وهذا شئ يسير من كثير اشتملت عليه سيرته الشريفة فلو لم تكن الشجاعة بمعنيها أمراً ممدوحاً تترتب عليه المنافع والفوائد لما كان عليه الصلاة والسلام أرقى الناس فيها . انظر الى أبي بكر الصديق رضى الله عنه فان شجاعته القلبية قام عليها بقاء الدين الاسلامى واتساع نطاقه

مات رسول الله صلى الله عليه وسلم فارتجت المدينة وأصبح الأمر فوضى . وقال عمر رضى الله عنه ما مات ولكنه رفع الى ربه وسيعود كما ذهب موسى وعاد الى قومه . ولزم على كرّم الله وجهه داره آسفاً حزيناً وسار عثمان رضى الله عنه هائماً فى طرقات المدينة . وجاء أبو بكر ودخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ورفع الغطاء عن وجهه وقبّله وقال بأبى يا رسول الله لقد طبت حياً وميتاً ثم خرج وقال أيها الناس من كان يعبد محمداً فان محمداً قد مات ومن كان يعبد الله فان الله حى لا يموت . وما محمد الاّ رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً وسيجزى الله الشاكرين . قال عمر فكأنى لم أسمعها الاّ من أبى بكر وكذلك قال غيره من الصحابة لما استولى عليهم من الدهشة لهذا المصاب الجلل . ولما كان رفيع المنزلة لديهم ورأوا عظيم ثباته وجميل صبره عولوا على الاستمساك بقوله فى هذا الحادث الخطير فسألوه عن مكان الدفن وعن الصلاة عليه صلى الله عليه وسلم فأجاب عن ذلك كله بما فيه الفائدة ودفع الاضرار

ارتدت العرب ما عدا أهل المدينة ومكة والطائف ومنعت الزكاة

وهاب عظماء الصحابة رضوان الله عليهم قتالها لكثرتها وخشوا انتقاض الأمر ولكن ثبات أبي بكر وقوته فى دينه حملاه على ارجاعها الى ما كانت عليه قبل وفاة النبي عليه السلام . فقد قال والله لو منعونى عقال بعير كانوا يؤدونه فى زمن رسول الله لقاتلتهم عليه . وقام بقتال المارقين وادحاض دعاويهم الكاذبة كمسيلمة الكذاب فما هو الاّ أن تمّ له بثباته وثقته بنصر دينه ما أراد وعلا أمر الاسلام وأخذ في الازدياد ولولا ذلك لعراه ما عراه بوفاة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم . فاذا نظرنا الى ثبات أرباب المبادىء الحقة على ما أبدوه لأمتهم من الآراء السديدة والمنافع العظيمة التى بها يحسن حالهم وتتم مرافقهم والى شجاعتهم تلقاء ما اعترضهم من الاهوال والمصائب وقيام كثير فى وجوههم ولم يثنهم ذلك عن عزمهم حتى يتم لهم ما أرادوا أو يخلفهم عليه من يتمه ظهر لنا ان هذا الخلق من أعظم دعائم الرقى

اذا صارت الشجاعة خلقاً فى كثير من أبناء الأمة أصبح غالباً فى مجتمعاتها فان الخلق اذا خلا عنهُ الشخص منفرداً قد يتصف به اذا كان مع جماعة تضاموا على جلب المنافع ودرء المضارّ كما عقلوا فان منشأ الجبن خوف الضرر ولكن للاجتماع ما ليس للانفراد فان الجبان اذا كان فى جماعة يتوزع الخوف فيها على الافراد . وربما رجا أن يكون منشأ الخوف الذي هو الاضرار واقعاً على غيره دونه على أن ارادة تشبه الاشخاص بعضهم فيما يدعونه كمالاً سريع الوقوع فهذا الخلق ينمو فى المجتمع المتكاثف أكثر منهُ فى الفرد فكيف به اذا كان نامياً فى الافراد

بان لنا أن اعتدال النفس الغضبية ينشأ عنه الشجاعة وأنها من

أجل الصفات الكمالية لما لها من الفوائد فى الغرض المقصود من الوجود الانسانى وهو الحياة السعيدة وأن هذه القوة اذا لم تكن على حد الاعتدال أخلت بالغرض المقصود من ذلك الوجود فانها اذا تجاوزت هذا الحد صاعدة ملكت صاحبها فيكثر غضبه وينمو خرقه ويعدم حلمه ووقاره وتقوى جراءته فيسرع عند الغضب الى الانتقام ممن غضب عليهِ فيقابله الآخر بمثل ذلك وربما كان أقرب الناس اليهِ . وممن يعتضد بهم ويتبع ذلك البذاء وأنواع السب وربما كان المغضوب عليهِ أكثر بذاءة من الغضبان أو أشد ساعداً فيعود عليهِ الضرر والمنقصة ويرجع على نفسه باللائمة . وقد يستعمل للوصول الى أغراضه متى وجد الموانع والعقبات الخبث والدهاء والمكر والملق (ولذا تجد من أكثر من مصاحبة الظلمة من الملوك قليل الغضب كثير المداهنة والملق) . واذا وصل الى ما يحاول مرات لا يحتمل اليسير مما لا يناسبهُ فيصخب ويغضب ويكثر ميله الى العسف والجور وذلك مما يوجب تنافر القلوب وازدياد الشحناء والبغضاء المؤدية الى بتر الصلة الاجتماعية ويئول الأمر الى الاكثار من القتل والسلب والنهب وان لم يصل الى غرض عظم لديه الحقد والحسد وذلت نفسه وأصبح ممتهناً متى تكرر ذلك . وفى هذا من الفساد ما لا يخفى . ولذا جاءت الشرائع وقامت الحكومات بردع الظالمين والمحافظة على حقوق الضعفاء حتى الولد من أبيه ووصيه والقاضى ومن يوليه أمره كى يأمن هذا المجتمع من تطرق الخلل اليه

فوائد العفة ومضار عدمها

فوائد العفة — علمت مما سبق أنها من أمهات الفضائل وأنها ناشئة عن اعتدال القوة الشهوية وأنت ترى أن هذا الخلق اذا نزل عن الحد الوسط أضر بالجسم وأوجد فيه ضعفاً ربما أدى الى سرعة فنائه لأن الانسان اذا أهمل أمر غذائه ضعف بدنه وضاعت فائدة القوة التناسلية فلا تكثر البنين وهذا يستدعى قلة بنى النوع الانسانى ويتمادى ذلك شيئاً فشيئاً حتى يؤدى الى الانقراض وكذلك اذا أهمل الشراب واللباس وغيرهما من الملاذ البدنية التى يتوقف عليها نماء الجسم وحياته وزينته (قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق) (يا بنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا أنه لا يحب المسرفين) . ومثل ذلك بعض المحسوسات التى تزيد فى نشاطه من المسموعات والمشمومات والملموسات السائغة واذا تجاوزت ذلك الوسط صاعدة الى طرف النهاية نشأ عنها الشره في كل المشتهيات وذلك يستدعى الاكثار منها اكثاراً يشغله عن استعمال قوته العاقلة ويحبب اليه الاستئثار بها فيتعدى للوصول اليها حده ويتجاوز حقه وتمتد يده الى ما هو من حق غيره وهناك يحصل الجور والظلم واذ ذاك يقابله المظلوم بالمدافعة عن حقه فيتولد الخصام والشجار والحقد والحسد والبغض وقد يعود اذا ضعف أمام خصمه الى الخبث والحيل وأنواع الدهاء وربما ارتد خائباً مذعوراً فيورث تكرار ذلك في نفسه ذلاً وصغاراً (كما أسلفناه) يؤديان الى خمود النفس وكسلها . على أن ذلك اذا فشا بين الافراد انقبضت أيدى الضعفاء

عن العمل لعدم أمنهم على ثمرات أعمالهم من أيدى أولئك الأقوياء الشرهين الجاهلين كما أن أولئك يعتادون البطالة والكسل لاعتمادهم على أن ما بين أيدى الضعفاء تحت أيديهم الظالمة وكثيراً ما سمعت أن الشراهة فى ذلك تبعث على اقتناء الأموال من غير وجهها وهذا طريق ايباق وهلاك . ولو كان المتصف به أعظم قدرة وأوفر مالاً وأكثر جاها . انظر الى الملوك والعظماء وما جلبتهُ عليهِ شراهتهم والحوادث التاريخية حافلة بذلك

الكلام على الصفات المندرجة فى أمهات الفضائل وعلى أضدادها

أبنا لك فى الكلام على الحكمة فوائد اعتدال القوى التى تتوقف عليها القوة الحكمية بياناً تتضح به فوائد ذلك الاعتدال ومضار عدمه وقد اكتفينا به مع وجازته عن شرحه هنا لوضوح هذا المقام وضوحاً لا يحتاج معهُ الى زيادة بسط ولذا نقتصر على بيان فوائد اعتدال القوى التى ينشأ عنها كل من الشجاعة والعفة والعدالة فنقول بيّنا فيما سبق أن كبر النفوس على الحد الوسط من مقومات فضيلة الشجاعة . وكذلك النجدة وعظم الهمة والثبات والشهامة واحتمال الكد والسكون وهى أشياء متقاربة فى المعنى لا تختلف الا باختلاف الاضافات وتخصيص كل منها بشئ مخصوص والا فكلها ترجع الى احتمال ما ينبغى أن يحتمل فى طريق الوصول الى الخير وعدم احتمال غيره فى ذلك الطريق وعلى هذا فبيان فوائد بعضها على وجه عام بيان لفوائد البعض الآخر وهو يستتبع بالضرورة بيان مضار نقائضها ولنذهب بك هنا الى بيان مختصر واضح

أنت تعلم أن أي عمل من الأعمال النافعة للانسان لا يخلو من

متاعب غالباً فاذا لم يتدرع فيه صاحبه بدرع من الثبات ويقتحم المصاعب رجاء الثواب فى الآخرة والربح وحسن الاحدوثة فى الدنيا ويصبر على ما يلاقيه من المصاعب والكد بثبات جأش وقوة عزيمة حتى ينظم عمله تنظيماً يستعقب النتيجة لا يتم له ما أراده وكثيراً ما رأينا من رجال الأعمال صدق العزيمة والمثابرة على ما أرادوه حتى جنوا ثمرته أو خلفهم عليه غيرهم حتى جناها وانتفع بها بعدُ أفراد الانسان فاستحقوا من الناس ومن الله الذكر الحسن والأجر الجميل وأسماء أولئك الرجال أشهر من أن تذكر ألا ترى الى ما حصل من الأنبياء والحكماء وأرباب الاختراعات والقواد أنظر الى موسى بن نصير والمهلب بن أبي صفره وكثير من العظماء ولولا ذلك كله ما تم لمصلح اصلاح ولا لمخترع اختراع كما سبق القول .

بان لك أن اعتدال الصفات المذكورة الذى تحصل عنه الشجاعة هو طريق الخير وأن عدم اعتدالها طريق الشر غير أنا نذكر أن من الصفات المقومة لها خلق الحلم و بيان أنه مؤد للخير وأن نقيضه طريق الشر قد ينكره بادئ بدء كثير من الشرسين ولذا آثرنا أن نتكلم على نقيضه وهو الغضب وما يجلبه من المضار ثم عليه وعلى ما يستعقبه من الفوائد لأن التحلية بعد التخلية

الغضب

علمت مما أبناه في الكلام على النفس أنها ارتبطت به لتدبر أحواله فإذا تصورت أمراً منافراً ظهر أثره عليه واستعقب دفع ذلك المكروه فيظهر تقطيب الوجه واللكم والضرب والشتم وعلى هذا فالغضب انما

يكون لدفع ما تتصوره النفس مؤذياً قبل أن يقع أو للتشفى بعد وقوعه وغايته الانتقام فاذا تصورت النفس ذلك ظهر أثره على القلب فحمى وغلا دمه وانتشر على الاعضاء الجسمية اذ أثره وهو الانتقام انما يكون على نسبة درجة تلك الحياة ووفرة الدم وحرارته مؤدية الى قوة الحياة المذكورة ولذا رأينا الغضبان اذا اعتقد أنه قادر على الانتقام من المغضوب عليه احمر وجهه وعيناه وغلبت قوته الغضبية قوته الحكمية فلا يدرك صواباً ولا يعرف حقاً بل ربما غلبت حواسه الظاهرة فلا يبصر ما بين يديه ولا يسمع قول من بجانبه فهو فى هذه الحال لا يعقل ولا يعى فتخرج أفعاله وأقواله عن الترتيب والنظام وتراه متغير اللون شديد رعدة الاطراف يتدفق الزبد من فيه على أشداقه اذا طلب منه اللين والرفق ازداد هياجاً فيمزق ثيابه ويكسر ما جاوره من الأمتعة ويضرب ويسب من ينصحه بل ربما سب الجماد والحيوان لا يرضى الا بالانتقام واذا لم يحصل عليه يتأوه ويتحسر وقد يشتد الغضب فتقوى معه حرارة الدم وانتشاره فيستتبع ذلك الموت أو المرض. واذا اعتقد أنه لا يقدر عليه لا يغلى دمه ولا ينتشر على بدنه وأطرافه لأنه لا يحاول ذلك الانتقام المقتضى للقوة التى تكون بوفرته وحرارته لأن النفس لا تبغيه لما يترتب عليه من الاضرار ببدنها فينكمش الدم الى داخل فيصفر اللون كما يصفر لون الخائف واذا كان متردداً فى القدرة على الانتقام تعاقب اللونان المذكوران وغيرهما من الأعراض المتعلقة بالحالين

قد علمت أن اعتدال القوة الغضبية فضيلة وأن طرفيها رذيلتان مذمومتان فان الذى خمدت فيه هذه القوة المذكورة بحيث لا يغضب

غضباً يحركه الى الدفاع عن عرض أو مال أو عن أى نقيصة لا يحترم له جانب ولا يصان له عرض ولا مال وان الذى تجاوزت فيه هذه القوة حدها أشبه شئ بالحيوان المفترس فانه لا يستعملها كما رسمته له النفس الحكمية والشريعة الحقة فلا يبقى للمرء معها بصيرة ولا فكر ولا اختيار وسبب غلبة هذه القوة أشياء غريزية كاستعداد مزاجه لذلك وأشياء اعتبارية كان يخالط قوماً يتمدحون بالغضب والانتقام ويعدونه فضيلة وشجاعة على غير هدى ويثنون على من اتصف به ويحمدونه على ما كان منه فتى كثر سماعه ذلك أثر فيه خصوصاً ممن يعتقد فيهم الفضل والكمال ويرى أنهم مستحقون للمحامد

أسبابه

يحصل الغضب عن الكبر والفخر والحمية ويهيجه العجب والمزاح والهزء والتعيير والمماراة والمضادة والغدر وشدة الحرص على فضول المال والجاه وهى أخلاق مرذولة مذمومة فينبغى (اماتة الكبر) بالتواضع والعجب بمعرفتك بنفسك والفخر بانك من جنس عبدك وخادمك فانتما سواء فى النسبة الجسمية والعقل والانسانية فانه لا فضل برفعة النسب ولا الجاه ولا الثراء لأن هذه أشياء متغيرة تعتور هى ونقائضها الأشخاص فرب خادم صار مخدوماً ورب وضيع نسب صار رفيعه وغنى أصبح فقيراً وأن التفاضل انما هو بالتقوى والأعمال قال تعالى يا ءيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله أتقاكم وقال عليه الصلاة والسلام ليس لعربى على عجمى فضل الا بالتقوى وقال

من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه (واماتة المزاح) بالجد في طلب الفضائل والعلوم النافعة والافعال المرضية (والهزء) بالترفع عن ايذاء الناس وصيانة نفسك عن ان يستهزأ بك (والتعيير) باجتناب القول القبيح وصون اللسان عما لا يحسن من المقال (وشدة الحرص على مزايا العيش الناشئة عن فضول الأموال) بالقناعة (والمماراة) بالامساك عن الجدل والخلاف الا بحق ويكون على الطريق الموصلة للحق ولا تغضب الغير

هذا وقد علمت مما سلف أن من أسبابه أيضاً مخالطة الأشرار الذين يمدحونه ويعظمون من اتصف به فأعرض عن صحبة أولئك واصحب الأخيار ورُض نفسك بالحكمة والموعظة الحسنة وثابر على ذلك كله. يكن الاعتدال في الغضب لك خلقاً. ومن هنا تستنتج علاج النفس التي ضعف أو محى فيها هذا الخلق فانحط عن حد الاعتدال لأن مضار التفريط فيه لا تنقص عن مضار الافراط هذا علاج الافراط والتفريط فيه قبل أن يظهر أثره وهو الغضب بالفعل وأما علاجه بعد ظهوره فيكون بتذكر فضائل كظم الغيظ وذلك بأن ينظر في أمر المغضوب عليه ويعلم أن هذا الغضب يولد العداوة والأحقاد وذلك أمر يوجب كدر العيش فانه دائماً يحاول التحرز منه والاستعداد للدفاع عن نفسه ومقابلته بالمثل أو أعظم وربما كان المغضوب عليه أنفذ رأياً وأقوى ساعداً فيعود حب الانتقام منه على يد مريده بالضرر ولانه مجلبة للحقد والحسد وتكرر الانتقام وذلك مذموم شرعاً ويكون أيضاً بتذكر الآيات والأحاديث والحكم والنصائح الواردة في فضل كظم الغيظ . قال تعالى وسارعوا الى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين الذين ينفقون في السراء

والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين »

وقال عليه الصلاة والسلام من كف غضبه كف الله عنه عذابه ومن اعتذر الى ربه قبل الله عذره ومن خزن لسانه ستر الله عورته وقال عليه السلام أشدكم من غلب نفسه عند الغضب وأحلمكم من عفا عند القدرة وقال أيضاً من كظم غيظاً ولو شاء لأمضاه ملأ الله قلبه يوم القيامة رضا وقال عمر رضى الله عنه من اتقَ الله لم يشفِ غيظه ومن خاف الله لم يفعل ما يشاء ولولا يوم القيامة لكان غير ما ترون . وقال لقمان لابنه يا بنى لا تذهب ماء وجهك لمسألة ولا تشف غيظك بفضيحتك واعرف قدرك تنفعك معيشتك وقد قيل حلم ساعة يدفع شراً كثيراً وقد أجمع بعض من العلماء العارفين على أن أفضل الأعمال الحلم عند الغضب والصبر عند الجزع . وقال رجل لعمر رضى الله عنه والله ما تقضي بالعدل ولا تعطى الجزل فغضب عمر حتى عرف ذلك فى وجهه فقال له بعض الحاضرين يا أمير المؤمنين ألا تسمع ان الله تعالى يقول خذِ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين فهذا من الجاهلين فقال عمر صدقت فكأنما كانت ناراً فأطفئت وقال محمد بن كعب ثلاث من كنَّ فيه استكمل الأيمان بالله اذا رضى لم يدخله رضاه فى الباطل واذا غضب لم يخرجه غضبه عن الحق واذا قدر لم يتناول ما ليس له وقال رجل لحكيم أوصنى فقال له لا تغضب قال لا أقدر قال ان غضبت فامسك لسانك ويدك

اذا علمت أن قوة الغضب لها وسط وطرفان وأن الوسط فضيلة والطرفين رذيلة فاعلم ان ما ورد فى ذمه فهو وارد على طرفى الافراط

والتفريط وان ما ورد فى مدحه فهو بالنسبة للخد الوسط الذى هو فضيلة ألا ترى أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا أشداء على أعدائهم رحماء بينهم . قال الامام الشافعى رضى الله عنه . من استغضب ولم يغضب فهو حمار . وقدمنا القول فى بيان ما ينشأ عن ذهاب هذا الخلق من فقدان الغيرة وغيرها من الاضرار وذلك لأن التفريط فيه ينتج عن قلة الأنفة مما يؤنف منه كترك تعرض الغير لما يحق على الشخص المدافعة عنه واحتمال الذل من الأخساء وصغر النفس وينشأ عنه عدم الغيرة على الحرم وذلك خنوثة قال عليه السلام ان سعداً لغيور وأنا أغير من سعد وان الله أغير منى وانما مدحت الغيرة لما يترتب عليها من حفظ الانساب فانه لو تسومح فيها لاختلطت

ولذا قيل كل أمة وضعت الغيرة فى رجالها . وضعت الصيانة فى نسائها . وينشأ عنه أيضاً الخوَر والسكوت عن المنكرات ولذا قال عليه السلام خير أمتى احداؤها يعنى فى الدين . وقال تعالى . الزانى والزانية فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله . ولو مدح اضمحلال هذه القوة وأهملت بحيث لم تستعمل فى موضعها لتعطلت العقوبات والحدود فعاث أرباب الدعارة فى الأرض فساداً لعدم ما يردعهم عن ارتكابها . قال تعالى ولكم فى القصاص حياة يا أولى الألباب . فعلى هذا تكون هذه القوة من الأخلاق الفاضلة الضرورية لحصول الخير على شريطة ان تستعمل فى موضعها كما تسنه لها القوة الحكمية

الحلم

هذا الخلق من مقوّمات الشجاعة ان كان على الحد الوسط كما تقدم وذلك بان يحلم فى الحال التى يحمد فيها على ذلك دون سواها وضابط هذا أن يكون الخير والاصلاح فيه دون ما يستتبع فيه الحلم الشر والفساد فيحلم اذا كان حلمه رادعاً لذوى الأفساد عن افسادهم داعياً الى عودهم باللائمة على أنفسهم فانه فى هذه الحال مجلبة لحب صاحبه ويمن له ووسيلة للخير. قال عليه الصلاة والسلام الرفق يمن والخرق شؤم وقال أيضاً . من يحرم الرفق يحرم الخير كله . وقال ان الرفق لا يكون فى شئ الاَّ زانه ولا ينزع عن شئ الاَّ شانه ويغضب اذا كان الحال بخلاف ذلك فالحلم عن كرائم الأشخاص الذين يخجلهم الاعراض عن هفواتهم ممدوح (لا سيما اذا كان من ذوى القدرة والبطش) دون الأشرار الذين يطمعهم فى ارتكاب ما لا يليق ويحسبونه خواراً وضعفاً وقد يكون هـذا الخلق سهلاً لبعض الأشخاص الذين فى طباعهم الميل الى عدم الغضب دون سواهم وهؤلاء لا يحصلون عليه الاَّ بأخذ النفس ومجاهدتهـا فى كظم الغيظ والتحلم ويتمادون على ذلك مع الروية والفكر وتعقل أنه الأحسن والأجمل فى صيانة النفس من سب السابين ومكالحة الخصوم وأن فيه حسن الأحدوثة وجزيل الثواب حتى يعتادوه ويصير خلقاً وهو من وسائل جلب الخير ودفع الضرر وداعى الطمأنينة وعـدم الاشتغال بالخصومات وجالب الثواب فى الآخرة ولذا جاءت الشريعة المطهرة بمدح من اتصف به واعظام الأجر له . قال عليـه الصلاة والسلام اطلبوا العلم

واطلبوا مع العلم السكينة والحلم لينوا لمن تعلمون ولمن تتعلمون منه ولا تكونوا من جبابرة العلماء فيغلب جهلكم حلمكم . وقال أيضاً ان الله تعالى يحب الحيي الحليم المتعفف ويبغض البذى الفاحش السائل الملحف وقال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ابتغوا الرفعة عند الله قالوا وما هي يا رسول الله قال تصل من قطعك وتعطى من حرمك وتحلم عمن جهل عليك . ومن دعائه عليه السلام اللهمّ اغننى بالعلم وزيّنى بالحلم وأكرمنى بالتقوى وجمّلنى بالعافية قال على كرّم الله وجهه ان أول ما عوّض الحليم من حلمه أن الناس كلهم أعوانه على الجاهل وقال معاوية رحمه الله لا يبلغ العبد مبلغ الرأى حتى يغلب حلمه جهله وصبره شهوته ولا يبلغ ذلك الاَّ بقوة العلم وقال لعمرو بن الأهتم أى الرجال أشجع قال من ردّ جهله بحلمه قال أى الرجال أسخى قال من بذل دنياه لصلاح دينه وقال أيضاً لعرابة ابن أوس الذى قال فيه الشاعر

رأيت عرابة الأوسىّ يسمو ... الى الخيرات منقطع القرين
اذا ما راية رفعت لمجد ... تلقاها عرابة باليمين

بم سدت قومك يا عرابة قال يا أمير المؤمنين كنت أحلم عن جاهلهم وأعطى سائلهم وأسعى فى حوائجهم فمن فعل فعلى فهو مثلى ومن جاوزنى فهو أفضل منى ومن قصر عنى فأنا خير منه وسب رجل ابن عباس رضى الله عنهما فلما فرغ قال ابن عباس لغلامه يا عكرمة هل للرجل حاجة فنقضيها فنكس الرجل رأسه واستحيا وقال الخليل بن أحمد من أساء فأحسِن اليه فقد جُعل له حاجز من قبله يردعه عن مثل اساءته وقال وهب بن منبه من يرحم يُرحَم ومن يصمت يسلم ومن يجهل يُغلب ومن

يعجل يُخطىء ومن يَحرص على الشر لا يسلم ومن لايدع المراء يشتم ومن لا يكره الشر يأثم ومن يكره الشر يُعصَم ومن يتبع وصية الله يُحفَظ ومن يحذر الله يأمن ومن يتولى الله يُمنَع ومر المسيح بن مريم عليه السلام بقوم من اليهود فقالوا له شراً فقال لهم خيراً فقيل له انهم يقولون شراً وأنت تقول خيراً فقال كل ينفق مما عنـده وقال لقمان عليه السلام ثلاثة لا يُعرفون الاّ عند ثلاثة لايعرف الحليم الاّ عند الغضب ولا الشجاع الاّ عند الحرب ولا الأخ الاّ عند الحاجة

الحسد

اعلم أن الغضب قد يكظم لعجز عن التشفي في الحال فيكمن في القلب وينقلب حقداً على من عجز عن الانتقام منه بمعنى ان يلازم قلب الحاقد دوام استثقال و بغض من حقد عليه والنفار عنه ويتولد عن ذلك أمور منها الحسد وهو تمني زوال النعمة عنه فيغتم ان أصابته نعمة ويشمت ويفرح ان ألمت به مصيبة ومنها هجرانه ومصارمته وان وصلك ولاينك أو الاعرض عنه استصغاراً له أو التكلم فيه بما لا يحل من كذب وغيبة وافشاء سر وهتك ستر أو تحاكيه استهزاء به وسخرية منه أو تؤذيه بما يؤلمه من ضرب وغيره أو تمنعه حقـه من قضاء دين أو صلة رحم أو رد مظلمة وكل هذه أخلاق ذميمة لما يترتب عليها من تنافر القلوب واقامة الشرور مقام الخيرات قال تعالى ولا يغتب بعضكم بعضاً . وقال في معرض الذم واذا مروا بهم يتغامزون . وقال انا نسخر منكم كما تسخرون . وقال ومن شر حاسد اذا حسد . وقال عليه السلام في حق الرحم انها تقول

اللهم صل من وصلنى واقطع من قطعنى . وقال أيضاً اتقوا دعوة المظلوم فليس بينها و بين الله حجاب وقال المؤمن ليس بحقود

أسباب الحسد

قد وضح لك مما سبق حقيقة الحسد ونذكر لك أسباب الاتصاف بهذا الخلق الذميم . الاول (الحقد) كما قدمنا لأن من آذاه شخص أو حال بينه و بين غرضه وعجز عن الانتقام منه أبغضه ورسخ فى قلبه الحقد عليه وتمنى أن تذهب عنه النعم وتتولاه النقم وهذا هو الحسد وربما أحال ذلك على الزمان لما له عند الله من عظم المنزلة فاذا حصل المرغوب فيه عَدَّ ذلك كرامة لنفسه عند ربه وأنه انتصف له منه لاستحقاقه التكريم واستحقاق الحسود الاهانة والذِّلة فكلما أصابت محسوده بلية فرح بها واستبشر ووثق بمكانته عند خالقه . الثانى (التعزز) اى عده نفسه عزيزاً لا يترفع أحدعليهفاذا زاد جاهه أو ثراؤه خشى أن يكون داعياً للاستعظام والاستكبار عليه وهو عزيز النفس لا يرضيه ذلك . الثالث (الكبر) فاذا رأي غيره داناه أو فاقه فى شئ من وسائل العظمة خشى ألا يَقبل استكباره واستعظامه عليه لأنه لا يفضله في أسبابه . الرابع (التعجب) بأن لا يرى سبباً قوياً اقتضى هذه النعمة للمحسود فيتمنى زوالها لما تخيله له نفسه بأنه أحق بتلك النعمة من المحسود لما لديه من وسائلها دونه . الخامس (الخوف من فوات المقاصد) وذلك بأن يرى أن المحسود لما لديه من النعم ربما يزاحمه فى أغراضه الشهوية من الثراء والجاه والرئاسة والتمتع باللذات . السادس (خبث النفس وشحها بالخير للناس) فقد تجد من

لا يتطلع الى ثراء ولا جاه ولا يخشى مزاحمة فى غرض من أغراضه اذا وصف لديه حسن حال شخص فيهما أو فى غيرهما مما يرغب فيه يشق عليه ذلك ويبدو الحزن على وجهه مع خلوه من الأسباب السالفة واذا ذكر عنده بؤس شخص وسوء حاله فرح وهش مع عدم توفر شئ لديه من تلك الأسباب واعلم أن الحسد من قبيل المشكك فقوته بوفرة كثير من الأسباب السابقة وقوتها وضعفه بقلتها وضعفها ومن هنا نعلم سبب كثرة الحسد وقوته بين المشتركين في مهنة واحدة والجيران والأقارب وذوى الطبقة الواحدة فالحسد بين الطبيبين المتجاورين أكثر منه بين المتباعدين لاشتداد المزاحمة بينهما فى الكسب بخلاف ما اذا كان أحدهما فى بلد أو اقليم والآخر فى بلد أو اقليم آخر وكذلك لا تجد حسداً بين الطبيب والمهندس فاذا وجد كان قليلاً ضعيفاً وتجده بين الأقرباء فان التعجب الذى هو من أسباب الحسد متوفر لديهم فان أصلهم واحد والتربية واحدة فلا يرى الحاسد سبباً اقتضى اختصاص المحسود بما لديه من النعم وترى العلماء يحسد أحدهم الآخر اذا كانوا ولعين بحسن الأحدوثة والمدح فان أحدهم يحب أن يختص بالثناء عليه لعلمه وتفرده فى ادراك غوامضه أو لما يصل اليه من الكسب بسبب ذلك التفرد وعلى هذا اذا كانت كثرة حصول الأمر الذى فيه المزاحمة لأحدهم تقلل من حصوله للآخر جاء الحسد ويكون على قدر قوة المزاحمة وتعدد الوسائل واذا كانت لا تقلل من حصوله للآخر لا ينشأ عنها الحسد وذلك كالعلم من حيث هو بصرف النظر عن حب الاستئثار بشهرة التفرد فيه واكتساب المال والجاه بواسطته فان الوقوف على حقائق المسائل تتناولها كافة القوى المدركة

ولايمنع تناول قوة لهـا تناول أخرى اياها بخلاف الأموال والمقتنيات
والتفرد بالصيت والجاه . واعلم ان الغبطة (وتسمى بالمنافسة أيضاً) شئ
آخر خلاف الحسد وان أطلق كل منهما على الآخر اذ هى تمنى مثل ما
للغير من النعم وهى ممدوحة فى الخيرات والأخلاق الفاضلة فانها تولد فى
الانسان الجد والنشاط فيعمل لأن يكون كغيره فمتى اتصف بها أبناء
الأمة الواحدة نهضوا من رقدتهم وأجادوا الفكر والعمل فيما يذهب بهم
الى بحبوحة النعم وتسابقوا فى ميادين الأفكار والأعمال حتى يصلوا الى ما
وصلت اليه تلك الأمم الراقية فهى من الأخلاق الحسنة فان فضيلة الخلق
ورذيلته انما هى بالنسبة لما يترتب عليه من النفع أو الضر قال تعالى ان
الأبرار لفى نعيم على الأرائك ينظرون تعرف فى وجوههم نضرة النعيم
يُسقون من رحيق مختوم ختامه مسك وفى ذلك فليتنافس المتنافسون
وقال أيضاً وسارعوا الى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السماوات والأرض
أعدت للمتقين وليس معنى المسارعة الاّ المسابقة وهى المنافسة . وأما
الحسد فرذيلة لما يلازمه من العداوة والبغضـاء المؤديين الى التشاجر
والتخاصم وهو داعى الشرور وتنافر القلوب واختلاف الوجهـة وذلك
يستتبع الابتعاد عن الأعمال الخيرية القومية واشتغال كل باضرار الآخر
فيكثر الفساد وتعم الاحن وتفسد ذات البين ويفقد التضامن بين أفراد
الأمة فلا يتم لها النهوض والرقىّ على أنه مجلبة الهم والحزن لصاحبه فكلما
رأى محسوده فى نعيم ذاب حسرة وامتلأ قلبه حزناً وهذا بيّن لا يحتاج
الى ايضاح ولذا جاءت الشريعة مملوءة بذمه والحض على تركه قال تعالى
فى معرض الذم أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله وقال أيضاً

ومن شر حاسد اذا حسد وقال عليه الصلاة والسلام لا تحاسدوا ولا تقاطعوا ولا تباغضوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله اخوانا وقال أيضاً لا يزال الناس بخير ما لم يتحاسدوا وقال اياكم والحسد فانه يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب

علاج الحسد

اعلم أنك اذا تحققت من أن التخلق بالحسد مجلبة للضرر فى الدين والدنيا ولنفع المحسود فيهما سهل عليك مجاهدة نفسك فى الابتعاد عنه بالروية والفكر وردعها شيئاً فشيئاً حتى تسهل عليك مجانبته (هذا علاج ذلك الخلق المرذول) أما كونه ضرراً فى الدين فلأن الحاسد ساخط على توزيع حسنات الله على عبيده غير راضٍ عن انعامه جلّ شأنه على المحسود بما أوجب ذلك الحسد فنسب ربه الى عدم العدل وهو أمر منهى عنه فى الشريعة ولأن الأتقياء الكملة يفرحون باحسان الله على خلقه ويتمنون لهم الفلاح والنجاح وهذا فى الأنبياء عليهم السلام أكمل منه فى غيرهم فالمتصف به خارج عن دائرة الأتقياء الكملة داخل فى دائرة الأشرار الفجرة وأما كونه ضرراً فى الدنيا فلأن صاحبه يكثر همه ويزداد حزنه كلما رأى دوام النعم على المحسود فكيف به اذا رآها فى ازدياد ولا قبل له بمنع تتابع احسان الله على خلقه أو اذهاب ما هو حاصل منه لما قدمنا من أن الارادات البشرية والأقدار الانسانية لا استقلال لها فى ايجاد شئ أو عدمه فاذا دام الانسان على هذا الخلق تملكه الأسف والهلع واستمر حزين القلب غير قرير العين وربما استتبع ذلك عدم نظام أعماله

واضطرابه فى حركاته وسكناته وظاهر ما فى هذا من الأضرار الدنيوية وأما كونه نافعاً للمحسود فيهما فلأنه تزاد به حسناته ألا ترى أن الحسد يحمل على الغيبة والنميمة والسب وغير ذلك مما حظره الشارع وفيه زيادة حسنات المحسود وأما فى الدنيا فلأن عدوه الحاسد له مهموم مغموم كلما رأى لديه نعمة من نعم الله امتلأ فؤاده أسفاً فيعيش عيشة شقاء وبؤس وهذا شئ يوجب فرح المحسود فاذا تحقق الحاسد أنه يحسده جلب على نفسه ما جلب من الشر ولعدوه ما جلب من الخير علم أنه اذا اتصف بهذا الخلق كان من أشد الناس اضراراً لنفسه ونفعاً لعدوه فهو به عدو لنفسه صديق لعدوه وهذا غاية الغباوة والخرق فاذا تصور كل هذا سهل عليه أن يحمل نفسه على التودد لمن يرى له فى قلبه خلق الحسد ويصله ويتقرب اليه بانواع القرب الممدوحة ويكثر من الثناء عليه ولا يسترسل مع ما يجده له فى نفسه من البغض والأسف من وصول النعمة اليه بل يظهر له بضد هذا كله فان آنس منه المحسود هذه الخلال الممدوحة قابله بمثلها فتنكسر سورة حسده فان النفوس جبلت على الميل الى من تلطف بها ووصلها واذا تكرر هذا جملة مرات زال الحسد وانقلب التقاطع مواصلة والحقد مقة فان لتكرار وسائل المحبة فى القلوب تأثيراً شديداً فى ازالة ما كمن فيها من الأحقاد واقامة المحبة والألفة مقامها وكذلك وسائل البغضاء والشحناء اذا تكررت أثرت فى القلوب فتزيل منها الألفة والمحبة وتقيم اضدادها مقامها وقد تغالطك القوة الغضبية فتبرز لك المقة والثناء عليه فى معرض الذلة والخنوع كى تأنف منه وتستمر على الحسد والبغض فلا تعبأ بهذه المغالطة الباطلة لانها ليست من أخلاق النفوس الطاهرة الملكية

قد انتهى بنا القول فى بيان فضائل اعتدال القوي التى يكون عنها اعتدال القوة الغضبية ومضار طرفى كل واحدة منها ونتكلم الآن على فوائد اعتدال القوة الشهوية وهى المسماة بالعفة فنقول ظهر لك مما سلف أن هذه القوة تكون من اعتدال قوة الحياء والدعة الى آخر ما ذكرناه

الكلام على الحياء

قد قلنا فيما سبق انه انحصار النفس خوف اتيان القبائح والحذر من الذم الصادق وظاهر أن هذا الخلق سياج يحول بين النفس و بين اتيانها قبائح الأشياء فالمتصف به اذا همَّ باتيان قبيح يجد من نفسه مانعاً يعوقه خشية أن يؤثر عنه فتسوء ذكراه بحق فيتركه ولو تاقت اليه فلا يرتكب أمراً يستوجب العقوبة الأخروية أو الدنيوية أو يستعقب ذماً ولوماً فالحيي قريب من الخير بعيد من الشر قال عليه السلام من لا حياء فيه لا خير فيه وقال أيضاً ان مما أدرك الناسُ من كلام النبوة الأولى اذا لم تستح فاصنع ما شئت . وما قلناه هو الحد الوسط الممدوح بخلاف طرف الافراط الذى هو مجاوزة الحد فى الحياء حتى لا يحسن قولاً ولا يبدى رأياً وقد يحصر نفسه عن اتيان ما ليس محظوراً مما فيه الفوائد فان هذا مذموم لأنه من ضعف النفس جالب للشر دافع للخير وكذلك التفريط فيه فانه قحة تستتبع اتيان ما حرمه الشارع وما تنبو عنه النفوس الكريمة ولا يخفى ما فيه من الضرر . هذا وخلق الدعة التى هى سكون النفس عند الشهوة (فلا يستفزها ما تشتهى من مأكل ومشرب واستمتاع) ملاك الفضيلة لأنَّ النفس اذا سكنت واطمأنت كانت بمأمن من أن تسترقها

الشهوات فتمتلكها وتحط من أفق الانسانية الى أفق الحيوانية وذلك غاية الضرر والبعد عن الخير كما قدمناه بخلاف ما اذا كانت مطمئنة ساكنة فانها تكون سهلة القياد الى القوة الحكمية تتصرف على ما ترسمه لها فلا تتناول من الشهوات الاَّ ما هو ضروري لبقاء الجسم ودفع الضرر عنه وما يقتضيه التناسل

الصبر

هو مقاومة القوة الغضبية والشهوية في مقتضياتهما الخارجة عن حد الاعتدال ولا يكون الاَّ عن علم بمضار الاسترسال معهما في تلك المقتضيات فهو من الأخلاق الانسانيـة لا البهيمية فان أنواع الحيوان مسخرة لهاتين القوتين وليس لها قوة حكمية تصل بها الى ادراك الحقائق فتعلم ما يترتب على الانهماك الزائد من المضار حتى تقاومهـا في ذلك الاسترسال وهو نوعان جسمي ونفسي فالأول تحمل المشاق بقدر القوة البدنية ويكون لذوي الجسوم الخشنة وهو اما صبر على فعل ككثرة المشي والحمل أو انفعال كالمرض والضرب والجرح والقطع. والثاني نفسي وبه تناط الفضيلة وهو قسمان صبر على عدم تناول مشتهى ويسمى عفة. وصبر على تحمل مكروه وتختلف أسماؤه باختلاف الاضافات فان كان في عراك وصدام سمي شجاعة وضده جبناً وان كان في امساك النفس عن قضاء وطر الغضب سمي حلماً وضده تذمراً وان كان في ملمة محزنة سمي سعة صدر وسمي ضده ضيق الصدر والضجر والتبرم وان كان في امساك كلام في الضمير سمي كتمان السر وضده الافشاء وان كان في الامساك

عن فضول العيش سمى قناعة وزهداً وضده حرصاً وشرهاً وان كان فى احتمال الغنى على وجه ممدوح سمى ضبط النفس وضده الدّقع (وهو الرضا بالدون من المعيشة وسوء احتمال الفقر) والبطر أيضاً ومن هنا تعلم أن هذا الخلق من مقوّمات فضيلتى الشجاعة والعفة

والناس فى صبرهم على مقاومة تينك القوتين ثلاثة أقسام قسم يقاوم جميع ما تنبغى فيه المقاومة من أمر القوتين المذكورتين فلا تبقى لهما قوة المنازعة وهؤلاء هم الكملة الذين قوى يقينهم وآثروا الفضائل النفسيّة على اللذات الحيوانية فاطمأنوا بالسير على الطريق القويم وهم قليلون جداً وقسم لا يقاوم فى شئ من تلك الأشياء وهؤلاء كالأنعام بل هم أضل سبيلا لأن البهائم لم تخلق لها النفوس المدركة للمنافع والمضار حتى تتسنى لها هذه المقاومة بخلاف أولئك فانهم عطلوا ما منحهم الله من تلك النفوس القادرة على تصور ذلك وعلى المقاومة فيما تركه مجلبة للشرور والاضرار وعلامة هذا الفريق أنك ترى لديهم يأساً وقنوطاً وغروراً بالأمانى فاذا وعظ أحد منهم قال انى مشتاق الى التوبة ولكن أسباباً حالت دونها فلست أطمع فيها أو قال ان الله غفور رحيم فلا حاجة الى التوبة فمثل هذا استرقته شهوته فلا يعمل فكره الاّ فى استنباط الحيل التى توصله اليها

وقسم يقاوم فى البعض دون البعض وهو أرفع من الثانى وأحط من الأول فهم من الذين خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً فاذا أكثروا من النظر والفكر وحملوا أنفسهم على المقاومة ارتقوا الى الدرجة العالية شيئاً فشيئاً وان أهملوا هووا الى الدرك الأسفل

واعلم أن الانسان الراغب فى السعادة لا يستغنى عن هذا الخلق فى حال من الأحوال وذلك لأن كل ما يكون للانسان اما أن يكون موافقاً لهواه ورغائبه كالصحة والثراء والجاه وموازرة العشيرة الكثيرة ووفرة أسباب الرزق وكثرة الأنصار والأحباب وما أحوجه الى الصبر فى هذا كله فيقاوم ما يستتبعه كل ذلك من الأحوال الذميمة مثل الكبر والزهو والانهماك فى الملاذ والمبالغة فى الانتقام والبذاءة فان توفر هذه الاشياء المرغوب فيها لديه يبعث فيه الميل الى تلك المذمومات فان لم يقاومه بصبره واسترسل فى الانهماك عاد على جميع ذلك بالنقص تدريجاً حتى يزول— هذا مع ما يكون عليه من الحسرة والغم الناتج عن ذلك الاسترسال فان الصبر على الشيء مع القدرة عليه أصعب منالاً وأشد مراساً لأن ميل القوتين الغضبية والشهوية الى مقتضياتهما يعضده توفر وسائل الوصول اليها فتعظم مقاومتهما للقوة الحكمية بخلاف ما اذا كانت الوسائل المذكورة مفقودة ولذا قيل الصبر على العافية أشد من الصبر على البلاء . ولما اتسع الفتوح للصحابة رضى الله عنهم وتوفرت لديهم الأموال قالوا ابتلينا بفتنة الضراء فصبرنا وابتلينا بفتنة السراء فلم نصبر ومن ثم حذر الله عباده من فتنة المال والزوج والولد قال (ياءيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله — وقال — ان من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم وقال عليه السلام — الولد مبخلة مجبنة محزنة — واما أن لا يكون موافقاً لهواه ورغائبه وذلك أقسام ثلاثة ما يكون له فيه اختيار كعامة الطاعات والمعاصى ولولا الصبر على ما فيها من الأعمال وبذل الأموال وحرمان النفس من ملاذها الحيوانية واخضاعها للقيام بأمر

التكليف الشرعى لما استقام فيها أمر الانسان وما لا يكون له فيه اختيار بحال من الأحوال كالمصائب والنوازل التى تنزل بالشخص من فقد قريب أو صديق أو مرض أو ضياع مال الى غير ذلك وهذه من المواطن التى يصعب فيها الصبر فاذا لم يأخذ الانسان نفسه فى هـذه الحال بالعبر والمواعظ بأن ذلك لا يسلم منه أحد وأن الجزع والهلع قد يستعقب سقم الجسم وضياع العقل بدون جـدوى وأن المصائب تبدو كبيرة ثم تصغر شيئاً فشيئاً وأن الحياة لا تخلو من الاكدار ويعتضد على ذلك بما أعد له من الأجر وجميل الذكر استعصى حزنه وقوى هلعه ولما كان مثل تلك النوازل من مزالق أقدام ذوى الاحتمال والثبات أعظم الله لهم الأجر قال تعالى (انما يوفّي الصابرون أجرهم بغير حساب) وقال أيضاً (وبشر الصابرين الذين اذا أصابتهم مصيبة قالوا انا لله وانا اليه راجعون أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون)

وما لا يكون له فى وجوده اختيار وله اختيار فى دفعه كما اذا أوذى بقول أو عمل أو جنى عليـه فى نفسه أو ماله فان الصبر عن مقابلته بالحلم وكظم الغيظ فى هذه الحال فضيلة تعقبها الخيرات كما أبناه فيما سلف وضح لك من هذا كله أن الصبر لا مندوحة عنه لسعادة الانسان فى عموم الاحوال وأنه كلما تعددت أسباب الميل الى الرذيلة قويت وتغلبت على الانسان فقادته اليها ومن أسباب ذلك اعتيادها فانها متى اعتيدت أصبحت خلقاً راسخاً واستهان الناس باضرارها ومذامها ولو كانوا على جانب عظيم من بعض الصفات الفاضلة انظر الى خلق الغيبة فان كثيراً من الاتقياء والعلماء الفضلاء لما اعتادوها وجعلوها موضوع المسامرة فى

منتدياتهم وايناس زُوَّارهم وأصدقائهم كيف نمت فيهم ومرنت عليها ألستهم ولم تنكرها قلوبهم مع ما اشتملت عليه الشريعة من الوعيد لمرتكبها فبان من هنا أن للعادة دخلاً فى الأخلاق كما ان لمعاشرة الأخيار والأشرار دخلاً فى ذلك أيضاً

علاج ضعف هذا الخلق وما يستعان به عليه حتى يرسخ

قد بان لك مما سبق أن الصبر الممدوح يختلف باختلاف الاضافة وعلى هذا فكل نوع من أنواعه له علاج خاص به فان اختلاف الأمراض يوجب اختلاف عللها وأسبابها ولا معنى للعلاج الاَّ اضعاف سببه وتقوية ضده واذن فالصبر عند الملمات والنوازل يكون بتذكر الاجر وعدم فائدة الجزع فيما نزل والتأسى بالغير فان عموم المصيبة يخفف وقعها ويقوى من نزلت به على احتمالها والاشتغال بما تسكن اليه النفس ويطمئن له القلب فى تلك الحال وما شاكل ذلك والصبر عن الغضب المسمى حلماً انما يكون بالتذكر فيما يستعقبه الغضب من المضار والحلم من المنافع كما قدمناه والصبر على حفظ الاسرار وعدم افشائها المسمى كتماناً انما يكون بتذكار أن افشائها ولو لواحد من الاصدقاء يقضى اذاعتها وقد يترتب على ذلك الضرر وعدم حسن الأحدوثة وانقطاع صلة المودة بينك وبين من أفضى اليك بها معتقداً فيك الكتمان وحسن السيرة وجميل الصداقة على أن عدم افشائها لا يكلفك عناء وأن جنوحك الى عدم صيانتها متعللاً بزخارف العلل الباطلة ليس الاّ من وهن عزيمتك وضعف قوة نفسك وهذا أمر مذموم فمتى تصورت كل هذا تصور الموقن به حملك على

مقاومة ما توسوس به اليك نفسك مما يباين الفضائل الممدوحة

والصبر على عدم فضول العيش من الثراء والجاه وأنواع اللذات الجسمية المسمى قناعة انما يكون بالتفكر فى أن هذه الأشياء تطرأ وتزول وليس فيها من الفضائل الانسانية ما يوجب العناية بها فليس لك من مالك الاَّ ما أكلت فأبقيت أو لبست فأبليت أو تصدقت فأبقيت وأن الصبر مع الحاجة لا يقل أجراً عن الغنى مع البذل وبالجملة فان كل شئ انما يستعان على تقويته بالوسائل التى تقتضيه وتذهب بضده ولا نريد بمدح الصبر والاعراض عن ضده الاَّ الحد الوسط فانه هو الممدوح فى كل الخلال الانسانية بخلاف الافراط والتفريط وعلى ذلك فمن الخلال الشريفة الجد فى الحصول على المال والثراء من وسائلهما الشريفة وطرقهما المباحة على شريطة أن لا يتجاوز الحد الوسط فى ذلك فلا يمتنع عن البذل من ماله لشخصه أو لغيره ممن يستحقه فيبخل على نفسه بوسائل الغذاء والدفء والتعليم وعلى من عليه نفقته كذلك ولا يقيم بماله أو جاهه أود فقير ولا ينصر مظلوماً ولا يساعد أبناء أمته وفقراء عشيرته بما لديه من ثراء وجاه فان هذا غاية الانحطاط فى الأخلاق الانسانية الفاضلة ومجلبة سوء الأحدوثة فى الدنيا وعدم الثواب فى الآخرة

السخاء

قد يراد بالسخاء الغريزة الانسانية التى بها يسهل على الشخص البذل سواء بذل او لا غنياً كان أو فقيراً ويقابله الشح وقد يطلق على البذل بالفعل ويقابله البخل وهذا الخلق من أحسن الأخلاق الفاضلة متى كان

على حد الاعتدال فان النفوس مجبولة على حب من أحسن اليها فتنقاد الى صاحبه العفاة وتسترق له قلوب الأحرار كما قيل

أحسن الى الناس تستعبد قلوبهم فطالما استعبد الحر احسان

ولا نريد به هنا بذل المال لا غير بل نريد به ما هو أعم من ذلك كبذل الجاه فى انقاذ مظلوم وقول معروف يجبر خاطر كسير (قال تعالى قوله معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى) ومنح ذوى الحاجات ما يسد عوزهم كأبناء السبيل وضعفاء الامة وفقرائها والمصابين ما يدفع ألمهم ويخفف نوازلهم أو يسهل طرق الكسب الى البائسين كتعليمهم الصنائع والعلوم التى يستدرون بها أرزاقهم فان المال العظيم والخير الوفير لا يمدح اقتناؤه الاَّ اذا بذل فى نيل المكرمات ووسع به على الاسرة ومن فى حكمها من الجيران والاصدقاء وأهل المحلة والبلد ومن تجمعك معهم جامعه فلا يمدح تشعب الناس فى طرق جمع المال الاَّ لهـذه الاغراض لا لأن يخزن ويحرم من فائدته جامعه ومن يعولهم وذوو الحاجة من جيرانه وأهل بلده وما ذم جمعه الاَّ اذا كان لا ينفع به نفسه ولا يغيث به لهيفاً ولا يقوّم به أود فقير من أبناء أمته فان مثل ذلك تنفر منه القلوب وتفرح بمصابه جيرانه وأهل محلته ووطنه ويحيي هذا الخلق عدم اليأس من توافد نعم الله تعالى فلا يخشى الباذل ببذله فقراً ولا يتوقع ببخله ثراء فان مال الله غادٍ ورائح فربّ بذول زاد غناؤه وبخيل أفقره بخله قال الله تعالى (الشيطان يعدكم بالفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلاً والله واسع عليم) البخيل حارس المال لا مالك ولا فائدة لحارس ملك غيره فلا يفيد نفسه ولا غيره

وليس بنافع ذا البخل مال ولا مزرٍ بصاحبه السخاء
ولا يعطى الغنى غنى لحرص وقد ينمى على الجود الثراء

ويحسن أن يكون البذل لما ينبغى مما يجوز بذله غير متجاوز فيه الحد الذى يذهب بثرائه فان ذلك سفه يقتضى الحجر شرعاً ولا لغير محتاج ذى ثراء عظيم وعلى الوجه الذى ينبغى فلا يبذل لغيره من ماله ما يوصله الى نقيصة كالقتل والسكر والمقامرة الى غير ذلك من الأشياء المذمومة الممنوعة شرعاً واذ قد علمت ما له من الثمرات الممدوحة لما يترتب عليها من الفوائد فى المجتمع الانساني كالتحاب والتواد والامن من التباغض الناشئ من استئثارك بالملاذ دون جيرانك الفقراء وأهل وطنك الذين غلبتهم المسكنة على أمرهم استئثاراً قد يحملهم على السعى فى اتلاف نفسك أو مالك علمت قبائح البخل المذمومة لما يترتب عليها من العداوة والبغضاء المضعفة لرابطة الجامعة الانسانية ومن هنا تعلم حكمة مشروعية الزكاة فى الشريعة الاسلاميـة اذا عقلت ذلك كله وضح لك أن البخل خلق ذميم وعليك أن تعالجه بالتفكر فى مضاره ومنافع الجود المعتدل وأن مالك وجاهك عارية لديك وأن ليس لك منهما الاَّ الأحدوثة الحسنة والثواب العظيم وان ما تبذله لمستحقه قرض حسن ربما يردّ عليك في حياتك الدنيا ويجازيك الله عليه باعظم منه في الآخرة

قد أوضحنا ما يهم من القول في أغلب القوى المندرجة في قوة العفة التى هى اعتدال القوة الشهوية وبقى علينا الكلام في خلق الورع وهو على ما قدمناه (ملازمة الأعمال التى للنفس فيها كمال) كالوفاء بالوعد وترك المراء والجدال والسب والمزاح والسخرية وافشاء السر (وكل هـذه

أشياء واضحة سبق الكلام على بعضها ويعلم منه حال البعض الآخر)
ومن الورع المذكور الصدق وترك الكذب والغيبة والنميمة وهذه
الصفات كما تندرج في خلق العفة يشملها خلق الشجاعة من جهة كون
بعضها ينشأ عن الحقد كالغيبة والنميمة والمراء والجدال والسب والسخرية
والمزاح المذموم وعدم العناية بالغير كالكذب وخلف الوعد لغير ضرورة
كما يعلم من البيان الذى أسلفناه

الكلام على الغيبة والنميمة

اعلم أيها الأخ أرشدك الله الى ما فيه فلاحك ونجاحك أن الغيبة
من أكبر الرذائل التى عمت بها البلوى وانك بعد معرفة حقيقتها تجدها
لا يخلو منها مجتمع ولو لعبادة أو لمذاكرة علم أو حث على فضيلة أو سعى
في رقى طائفة أو أمة ونذكر لك حقيقتها هنا حتى تنجلى لك صحة ما قلناه
هى ذكرك أخاك بما يكرهه لو بلغه سواء كان متصفاً به أو لا ويماثل ذلك
اشارتك الى غيرك [١] غمزا أو لمزا أو التشبه بالمغتاب ما دام شئ من
ذلك كله دالاً على اتصاف الشخص بما يكره أن ينسب اليه ولها أسباب
كثيرة منها حقده عليه فيشتفى منه بلسانه أو بغمزه ولمزه مثلاً ومنها
الحط من شأنه لما يراه فيه من المزاحمة في أمر من الأمور الممدوحة لدى
الناس حباً في التفرد بالكسب والشهرة وبصفة من الصفات الممدوحة
ومنها ادحاض ما يتوهم حصوله منه فيصفه بالكذب أو الحسد أو النميمة
حتى اذا تكلم في شأنه يعتبر قوله ناشئاً عن واحدة من تلك الاحوال فلا

(١) اللماز واللمزة العياب والهمز كالغمز وزناً ومعنى وهو غمز الشيء باليد أو العين

يستعقب أثراً مذموماً لمن اغتابه أولاً أو حب ارضاء مجالسيه أو أصحابه اذا اغتابوا أحداً لسبب من تلك الأسباب فيعُد مشاركتهم في ذلك من صلات المودة ودواعى الوفاق والسمر الى غير ذلك من الأسباب الكثيرة وأنت تعلم هداك الله الى ما فيه الخير أن هذه الرذيلة تستدعى أن تقابل بمثلها أو ما هو أشد منها ضرراً على صاحبها . وذلك يقتضى تنافر القلوب والشجار وعدم الوئام والخير كل الخير في أضداد ذلك فانها دعامة التضامن في جلب الخير ودفع الضرر ألا ترى أن أبناء البلد الواحد اذا ائتلفوا تعاونوا على ما فيه سعادتهم واجتماع الأيدى على الأعمال أنفذ للوصول اليها وأنجز فى الحصول عليها ومما يُدخل على كثير من العارفين هذا الخلق الذميم فى معرض الأخلاق الكريمة أن يذكره فى طريق المرحمة أو الدعاء لنفسه أو لمن اغتابه أو فى طريق الدين كأن يقول انى آسف على ثروة فلان لأنه يبذلها فى الملاهي كالمسكرات وغيرها مثلاً أو يقول ان فلاناً فعل كذا أسأل الله أن يحسن حاله أو يصرفه عما هو فيه أو اللهمَّ عافنى مما ابتلى به من كذا وكذا أو يقول انه تارك للصلاة أو الصوم أو يعاقر الخمر أو يلعب القمار مثلاً وبالجملة فكل ما يتأذى به المغتاب لو بلغه يعد غيبة ولا أظنك بعد أن عقلت حقيقتها وعرفت شيئاً من أسبابها الاَّ قائلاً بانها عامة لا يخلو منها الاَّ الكملة وقليل ما هم

وإذ قد علمت ضررها وما تجلبه من الفساد فعساك أن تقول ان لها بعض فوائد وأنها قد تجوز فى تلك الأحوال ولذا نذكر لك شيئاً لتعرف منه المواضع التى تسوغ فيها وهى بالاجمال ما يستعقب أمراً محموداً كأن تثبت به حقاً لك اذا لم يكن عن ذلك مندوحة كما اذا ظلمك

شخص فقاضيته وقلت انه سبّني أو سرقني أو غصب حقي الى غير ذلك ومنها الاستفتاء كما ورد ان هند بنت عتبة قالت لرسول الله صلى الله عليه وسلم ان أبا سفيان رجل شحيح لا يعطيني ما يكفيني أنا وولدي فآخذ من غير علمه فقال لها خذي ما يكفيكِ وولدك بالمعروف فذكرت شح أبي سفيان وظلمها وولدها ولم يزجرها عليه السلام لأنها مستفتية. والنصيحة كما اذا قلت لشخص اياك وصحبة فلان أو مشاركته خشية عليه من الضرر . وكما اذا طُلب شخص لتزكية شاهد فان له أن يمسك عن تزكيته ويقول لا أدري . أو استشارتك في مشاركة شخص أو زواج امرأة فان لك أن تذكر ما تعرفه من المثالب والأحسن أن تقول لا أحب أن تشاركه أو أن تتزوجها أو ليس لمثلك ذلك ولا تذكر خلال النقص التي تعرفها فيمن سئلت عنه ألا ترى أن الفقهاء قالوا في ورقة التزكية المسماة بالمستورة ان القاضي اذا بعثها لشخص يطلب تزكية الشاهد فالأحسن أن يردها غير مكتوبة اذا كان يرى أن الشاهد ليس أهلاً لأن يزكَّى وكذلك لا ضرر فيها اذا كان المغتاب متجاهراً بالفسق فانه لا يغضب من نسبته اليه فالضرر الذي يخشى من الغيبة بالنسبة له غير متحقق فان اشتهاره به عائق عن غضبه من نسبته اليه وعلى هـذا اذا أراد استاذ او رئيس أن يقوّم من اخلاق شخص رأى فيه اعوجاجاً لا يعيّنه بل يقول منكم من يفعل كذا أو بعضكم يقول كذا فليقلع من فيه ذلك عنه لأن فيه من الأضرار ما هو كذا وكذا فان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان اذا رأى في أحد أصحابه شيئاً من ذلك يقول ما بال قوم يعملون كذا وكذا الخ

وقد جاء الشرع الشريف ذاماً لها ناهياً عن الاتصاف بها قال تعالى

(ولا يغتب بعضكم بعضاً أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه)
وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم — قال — لا تحاسدوا ولا
تباغضوا ولا تناجشوا [١] ولا تدابروا ولا يغتب بعضكم بعضاً وكونوا عباد
الله اخواناً — وعن جابر وأبى سعيد قالا قال رسول الله صلى الله عليه
وسلم — اياكم والغيبة فان الغيبة أشد من الزنا فان الرجل قد يزنى ويتوب
فيتوب الله سبحانه عليه وان صاحب الغيبة لا يُغفر له حتى يَغفر له
صاحبه — وقال ابن عباس اذا أردت أن تذكر عيوب صاحبك فاذكر
عيوبك وقال مالك بن دينار رضى الله عنه مرّ عيسى عليه السلام ومعه
الحواريون بجيفة كلب فقال الحواريون ما أنتن ريح هذا الكلب فقال
عليه السلام ما أشد بياض أسنانه . نبههم بذلك الى انه لا يذكر شيء من
خَلق الله الاَّ ما فيه حسن

علاجها

علمت مما سلف أن العلاج العام لأدواء الأخلاق هو التفكر في
الاضرار الدنوية والاخروية المترتبة عليه فان العاقل اذا علم ما يترتب من
المضارّ على أمر هو متعسف به وأن الخير في الابتعاد عنهُ يوشك أن
يقلع عنه فان لم يكن دفعياً كان تدريجياً . وقد أبنَّا فيما سبق شيئاً من
أضرارها الدنيوية والاخروية وهناك علاج خاص بكل خلق رديء وهو
النظر في أسبابه ودواعيه والتخلى عنها . وقد أبنا فى الكلام على هذا
الخلق شيئاً من أسبابه ودواعيه فعليك باجتنابها اذ من المعلوم أن العلة

(١) المزايدة فى الثمن

تزول بزوال سببها وفقنا الله واياك الى وسائل الفلاح والنجاح

النميمة

تطلق اطلاقاً شائعاً على من ينقل لآخر قول شخص يسوءه كأن تقول له فلان يقول فيك كذا وكذا فهى على هذا قاطعة ذات البين بين ذينك الشخصين فان المنقول اليهِ ان لم يكن ممن راض نفسه وكبح جماحها حتى انصف بفاضل الأخلاق يثور فيه الغضب على المنقول عنه فيتولد لديه الحقد عليه وحب الانتقام منه فيقابله الآخر بما يستتبعه ذلك الخلق الذى جلبته النميمة فان النفوس اذا لم تكن ملكية انقادت فيها القوة الغضبية والشهوية الى القوة الحكمية تسرع الى حب الانتقام والمقابلة بالمثل أو أكثر منه اذا أُوذيتْ متى وجدت لذلك طريقاً وقد تطلق على ما هو أعم وهو كشف ما يكره كشفه سواء كان قولاً أو عملاً وسواء كان الكاره المنقول عنه أو اليه أو غيرهما وهى بهذا المعنى تشمل افشاء السر وقد قدمنا القول فيه . قال علماء الأخلاق انها خلق مرذول مذموم بناء على الاصل الذى روعى فيه الفرق بين المرذول والحسن (وهو ان كل ماكان الغالب فيه استتباع الخير والمنفعة في المجتمع البشرى فهو حسن . وكل ما كان الغالب فيه ضد ذلك فهو سئ مرذول) فلا تحسن الا اذا كان فيها فائدة أو دفع ضرر كما اذا رأى شخصاً يتناول مال غيره ويقول ذلك أو سمع من شخص أنه يحاول قتل آخر أو سلب ماله أو يتربص به السوء وعلم منه الاصرار والقدرة فعليه أن ينبهه اليه تنبيهاً يستيقظ به للاحتفاظ بما يراد انتهاكه من الحياة أو المال ولا يتجاوز هذا الى كثرة

المطاعن والمثالب وغيرهما مما يوغر قلب المنقول عنه

ومن أسباب هذا الخلق ودواعيه ارادة السوء بالمحكى عنه أو اظهار الحب للمحكى اليه أو الاعتضاد به على المنقول عنه أو الاسترواح بفضول الأحاديث والخوض فى الباطل واذ قد علمت ضرر النميمة بالنسبة للمنقول اليه والمنقول عنه فلا يخفى عليك ضررها بالنسبة للمتصف بها فان من يكون سبباً في المضارّ والمفاسد يعرض العاقل عن صداقته ومجالسته وقد لا يريد الخير اليه فلا تستحسن الأبصار طلعتــه ولا تألف القلوب عشرته واذا اشتهر بذلك ساءت سمعته وأصبح خالياً من الأودّاء والأصدقاء لا يجد من يعينه على جلب نافع أو دفع ضار وهذا ضرر بيّن تجب على العاقل مجانبته

اذا أراد المنقول اليه ألاّ يحيق به ضرر الغيبة فعليه اذا ألقيت اليه ألاّ يصدق لأول وهلة لأن النمام فاسق وقد قال تعالى (ياءيها الذين آمنوا ان جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين) وهذا لا يمنعه (اذا كان ما ألقاه النمام اليه مهما يتق) أن يتعرّفه ان كان حقاً أو باطلاً حتى يعد لنفسه خطة يتبعها من جرائه ولا يسلك فى هذا التعرف طريق الأخلاق الذميمة والوسائل المشينــة وعليه اذا وضح له أن هذه الغيبة ليست فى المواطن التى تحسن فيها شرعاً أن ينهاه عن مثل ذلك الخلق ويبين له رذيلته وينصحه بالاقلاع عنه على قدر ما تقتضيه حاله وحال الناقل اليه وعليه أيضاً ألاّ يظن بأخيه الغائب المنقول عنه سوءًا بمجرد أقوال الناقل قبل أن يتحقق من صحة ما قيل والا يقول ما نقل اليه لأنه بذلك يكون نماماً . أللهمّ الا اذا فشا هذا الداء فيه ورأى

أن الأنجع فى علاجه اعلان شأنه

ذمت الشريعة هذا الخلق وقبحت من حال مرتكبه . قال الله تعالى فى معرض الذم — هماز مشاء بنميم مناع للخير معتد أثيم عتل [١] بعد ذلك زنيم — والزنيم الدعى الذي لا يعلم له أب أي انه مثله فى الخسة . وقال أيضاً — ويل لكل همزة لمزة — قيل الهمزة النمام . وقال تعالى فى ذم امرأة أبى لهب حمالة الحطب — قيل هو الحديث على وجه النمّ لأنه وقود نار الفتنة كما أن الحطب وقود النار . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم — لا يدخل الجنة نمام — وقال في آخر قتات (وهو النمام) وقال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم — أحبكم الى الله أحاسنكم أخلاقاً الموطئون أكنافاً الذين يألفون ويؤلفون وان أبغضكم الى الله المشاءون بالنميمة المغرقون بين الاخوان الملتمسون للبراء [٢] (أي العثرات) . وقال أبو ذر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من أشاع على مسلم كلمة ليشينه بها بغير حق شانه الله بها فى النار يوم القيامة . روى عن عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه أنه دخل عليه رجل فذكر له عن آخر شيئاً فقال له عمر ان شئت نظرنا فى أمرك فان كنت كاذباً فأنت من أهل هذه الآية (ياءيها الذين آمنوا ان جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا) وان كنت صادقاً فأنت من أهل هذه الآية (هماز مشاء بنميم) وان شئت عفونا عنك . فقال العفو يا أمير المؤمنين لا أعود اليها أبداً

قال الحسن من نمّ اليك نمّ عليك ذكر أن حكيماً من الحكماء زاره بعض اخوانه فأخبره بخبر عن بعض أصدقائه فقال له الحكيم قد

---

(١) الغليظ الجافى (٢) الفراق والمراد أسبابه

أبطأت في الزيارة وأتيت بثلاث جنايات بغّضت أخي اليَّ وشغلت قلبي الفارغ واتهمت نفسك الأمينة وقال لقمان لابنه يا بنيّ أوصيك بخلال ان تمسكت بهنَّ لم تزل سيداً أبسط خلقك للقريب والبعيد وأمسك جهلك عن الكريم واللئيم واحفظ اخوانك وصل أقاربك وأمّنهم من قبول قول ساع أو سماع باغ يريد فسادك ويروم خداعك وليكن اخوانك من اذا فارقتهم وفارقوك لم تعبهم ولم يعيبوك وقيل لو صح ما نقله النمام اليك لكان هو المجترئ بالشتم عليك والمنقول عنه أولى بحلمك لأنه لم يقابلك بشتمك . اذا تلوت كل هذا علمت ان ذا اللسانين الذى يتردد بين اثنين يكلم كل واحد منهما بكلام يوافقه قل أن يخلو من خلق النميمة فهو داخل في كل ما قلناه من تقبيح شأنها بل قد يزيد عليه ملقاً ونفاقاً ويندر أن يخلو عنه من يصادق المتعاديين قال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم . تجدون من شر عباد الله يوم القيامة ذا الوجهين الذى يأتى هؤلاء بحديث وهؤلاء بحديث وقال ابن مسعود لا يكونن أحدكم امعّة قالوا ما الامعة قال الذى يجرى مع كل ريح واتفق الباحثون في الأخلاق على أن ملاقى الاثنين بوجهين منافق وهذه صفة تأباها الرجولية الكاملة والدين الصحيح

الصدق

نتكلم عليه هنا باعتباره مطابقاً للاعتقاد والواقع لأنه اذا أخبر شخص آخر بما يعتقد لا نعده رذيلة وان خالف الواقع وكذلك اذا أخبره بما يخالف ضميره لا نعده فضيلة وان طابق الواقع وانما اعتبرنا فيه موافقة

الواقع زيادة عن الضمير اشارة الى أن الصفة الكمالية انما تكون على وفق القوة الحكمية التى قلنا عنها فيما سبق (انها ادراك حقائق الأشياء وخواصها وما يحسن وما يقبح من الأعمال على ما هى عليه فى الواقع بقدر الطاقة البشرية) وهذا الخلق من خواص الانسان وأحد الأركان التى عليها مدار نظام المجتمع البشرى فى جميع حركاته وسكناته فان التاجر ان لم يعتمد على غلبة صدق المقال لا ينتقل من بلد لآخر لأجل البيع والشراء وكذلك الذى يشترى منه ان لم يصدّق التجار فيما يقولونه من الأثمان وما يروى اليه من الأخبار فى هـذا الصدد لا يقدم على الشراء ومثل ذلك يقال فى الزراعة والصناعة بل قـد يتجاوز ذلك الى الحاكم والمحكوم فان الحاكم ان لم يغلب لديه صدق المتكلم فى دعوى ظلامته لا يهتم بشكواه واذا لم يترجح لديه صدق الشهود والصكوك لا يتسنى له رد الحقوق الى أربابها ولا انصاف المظلوم من الظالم ولا اثابة المحسن ومعاقبة المسئ فتثور الأقوياء الظلمة للاعتداء وتطاول أيدى العائثين الى الفساد وكل ذلك يخل بالمقصود من المجتمع الانسانى فينصدع بناء الوحدة ويختل نظام العدالة فتصبح الامم أفراداً لا يراعى كل فرد الاّ فائدة نفسه دون غيره فتقصر الامة عن الوصول الى الرقى والسعادة لأنها اذا لم تتعاون أبناؤها على ذلك لما بينهم من وسائل التضامن لا تنال بغية ولا تصل الى مقصود فان اجتماع قُدَر الأفراد على العمل أدعى للوصول اليه بخلاف ما لو تنافرت القلوب وعمل كل لنفسه فان ذلك يؤدى الى الانقباض عن الأعمال لأن كل ضعيف لا يأمن على نفسه وماله وما يحق له الدفاع عنه من تسلط يد القوى العائث بل قد يتعدى ضرره الى

ما فوق ذلك كالشرائع والديانات فانا اذا لم نصدق ما جاء فيها من عظيم الآداب وصادق التشريع لكنا همَلا لا نَدِين بدين فظهر من هـذا أن الصدق عليه مدار نظام المجتمع الانسانى وان الكذب مخلٌّ به هادم لاحكامه كيف والمتصف به فاقد مزية النطق الذى من شأنه أن يكون اعراباً عن الحقيقة فهو من هذه الجهة منحط عن درجة الانسانية الى درك الحيوانية بل هو شرٌّ من ذلك قال تعالى . ان هم الاَّ كالأنعام بل هم أضل سبيلاً . ومن أسباب الكذب ولوع الانسان بمدح نفسه بما يتخيله جالباً للفائدة أو مدح من له به صلة مودة أو قرابة أو من يرجو منه فائدة جزاء ذلك ومنها أيضاً ادخال السرور على محدثه فيلق اليه ما يعتقده ساراً له وهذا دأب أهل النفاق والملق والغش والمداهنة أو التملص من التقصير خشية أن ينسب اليه الاهمال أو الخيانة أو خلف الوعد الى غير هذا من الأسباب واذا استمر الانسان عليـه زمناً اعتاده وصار له ملكة راسخة فتراه لا يخلو كلامه غالباً من بعض الاكاذيب ولو حاول أن يحدّث صدقاً تخيّل انه لا يجد فيـه طلاوة تستهوى الاسماع وتسترق القلوب وعلى عكس ذلك من اعتاد الصدق فانه يؤثره على الكذب ولو استعقب ضرراً والانسان ابن عوائده وملازم مألوفه واذ علمت ما يترتب على الصدق من الفوائد فى المجتمع الانسانى فقد علمت مقداره من الفضيلة وأ كبرت من يتصف به . اذا صدق التاجر وفرَّ للمشترين جزءاً من الزمن كانوا يضيعونه فى المساومة وجزءاً من أموالهم كان ذاهباً بغير حق لو كذب عليهم فيما يتعلق بقيمة المبيع فيقبلون عليه اقبالاً عظيماً متى علموا منه ذلك الخلق الفاضل فيتبادلون المنفعة . اذا صدق المعلم فيما يلقيه من

المعلومات ووقف عند ما يعلمه ولم يقف ما ليس له به علم وعلم المتعلمون صدقه فيما يقول فعرفوا منـه معلومات حقة ووثقوا بما يقول ولم يضيعوا أزمانهم فى الأباطيل فاحسنوا سمعته وأكبروا من شأنه . اذا صدق الحاكم فى الحكم على ما تقتضيه القوانين العادلة وأنفذ أحكامها سارع المحسن الى الاكثار من احسانه وارتد المسىء عن اساءته . اذا أصبح الصدق خلقاً للانسان جنى ثمرته من الفوائد وحسن السمعة فقلّده فيه خلانه ومخالطوه من أسرته وأحبائه لا سيما الأطفال فانهم اذا نشئوا بين أسرة كريمـة الأخلاق صادقة المقال فانهم يشبّون على الصدق فى القول متحلين بفاضل الأخلاق فلينظر من ليس بصادق فى جنايته على أولاده بما ورثوه عنه من الاكاذيب وسيء الأخلاق وكذلك من يكفلهم فعلى رب الاسرة أن يباعد بينها وبين الأقاصيص الباطلة والخرافات المحدثة التى تؤصل فى نفوسها المخاوف وتصديق الخرافات واعتبار الاكاذيب والاعتماد على الأوهام الـكاذبة ككتاب الف ليلة وليلة وقصص الهلاليـة وما شاكل ذلك وينزل منزلة الكذب أو الصدق الاقرار على أحدهما بكل ما يفهم من اشارة أو سكوت . ومما يدل على حسن الصدق وقبح الكذب قوله عليه الصلاة والسلام . كبرت خيانة أن تحدّث أخاك حديثاً هو لك به مصدّق وأنت له كاذب . وعن أبى سعيد الخدرى قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو فيقول فى دعائه اللهمَّ طهر قلبى من الشقاق وفرجى من الزنا ولسانى من الكذب وقال أيضاً ثلاثة لا يكلمهم الله ولا ينظر اليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم شيخ زان وملك كذاب وعائل متكبر وقال عبد الله بن عامر جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم الى بيتنا

وأنا صبي صغير فذهبت لألعب فقالت أمي يا عبد الله تعال حتى أعطيك فقال عليه السلام وما أردتِ أن تعطيه قالت تمراً قال أما انكِ لو لم تفعلي لكتبت عليك كذبة وقال وكان متكئاً الا أنبئكم بأكبر الكبائر الاشراك بالله وعقوق الوالدين ثم قعد وقال ألا وقول الزور وورد أيضاً انه قال تقبلوا الىَّ بست أتقبل اليكم بالجنة قالوا وما هنَّ قال اذا حدّث أحدكم فلا يكذب واذا وعد فلا يخلف واذا أوتمن فلا يخن وغضوا أبصاركم واحفظوا فروجكم وكفوا أيديكم وقال أيضاً أربع اذا كنَّ فيك فلا يضرك ما فاتك من الدنيا صدق الحديث وحفظ الامانة وحسن خُلق وعفة طعمة وهو من الأشياء الموجبة للامتهان فتعرض عنه النفوس العالية تجنباً للدناءة والخسة قال ابن السماك ما أرانى أوجر على ترك الكذب لأنى انما أدعه أنفة

ومما تقدم تعرف فوائد الصدق وأنه من أدخل الأشياء فى مكارم الأخلاق وعلو همم النفوس والكذب ضد ذلك وقد تبين لك مما سبق سبب الحكم على بعض الأخلاق بالحسن وعلى بعضها الآخر بالقبح ومنه تعلم انه قد تسوغ مخالفته بما قررناه فى مواطن لما يترتب عليها من دفع الاضرار العظيمة فان كلاً من حسن الصدق وقبح الكذب ليس لذاتهما بل لما يترتب على أولهما من المنافع وأقلها اعلام المخاطب بما تعتقده واقعاً حتى يتحرى فيه من الأعمال التى تناسبه ما يتحراه وعلى ثانيهما من المضار وأقلها اعلامه بغير الواقع فيبنى معلوماته وحركاته على ذلك مع أن الأمر ليس كما قيل وعلى هذا فاذا ترتب على الكذب القيام بواجب شرعى لا يعد نقيصة كما اذا رأيت شخصاً يريد قتل آخر اختفى فى دار وسألك

عنه فانك لا تعامه به صيانة لدم محترم عن السفك وكذلك اذا تعين طريقاً للصلح بين المتخاصمين أوكان خدعة في حرب وعلى أى الأحوال لا ينبغي الافساح فيه خشية اعتياده لأنه من الأخلاق التي اذا اعتيدت عسر التوقي منها ويجمل أن يكون فى مواقع اباحته تعريضاً لا تصريحاً كما أجاب به النبي عليه السلام (رجلاً سأله ليعلم حال المسلمين فى الحرب حتى يعرّف الكفّار ذلك فيتمكنوا به من الانتصار) (ممن الرجل) فقال من ماء (يريد أنه خلق منه) ففهم السائل أنه عراقى وكقولك اذا قيل عنك شئ ورأيت أن دفع الضرر فى الانكار (ان الله ليعلم ما قلت من ذلك من شئ) فان ظاهر ما قلت أن ما نافيه وأنت تريدها موصولة وكقول ابراهيم عليه السلام لما كسّر الأصنام وسئل عن ذلك (بل فعله كبيرهم هذا فاسئلوهم ان كانوا ينطقون) الى غير ذلك من المعاريض ودليلنا على الترخيص فيه لدفع الضرر ما روى عن أم كلثوم قالت ما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يرخص فى شئ من الكذب الاّ فى ثلاث الرجل يقول القول يريد به الاصلاح والرجل يقول القول فى الحرب والرجل يحدث امرأته والمرأة تحدث زوجها وقالت أيضاً قال رسول الله صلى الله عايه وسلم ليس بكذّاب من أصلح بين اثنين فقال خيراً أو نمى خيراً . وروى عن أبى كاهل قال وقع بين اثنين من أصحاب رسول الله كلام حتى تصارما فلقيت أحدهما فقلت ما لك ولفلان فقد سمعته يحسن عليك الثناء ثم لقيت الآخر فقلت له مثل ذلك حتى اصطلحا ثم قلت أَهلكتُ نفسى وأصلحتُ بين هذين فأخبرت النبي صلى الله عليه وسلم فقال يا أبا كاهل أصلح بين الناس ولو (أى

بالكذب) وبالجملة فيحسن بالانسان أن يجتنبه جهد استطاعته فانه قد يخطئ فى تقدير الضرر الذى يريد أن يدفعه بالكذب فربما كان تافهاً يحتمل فلا يحسن الكذب ولو بالمعاريض في مثل ذلك خشية أن يصير خلقاً يرتكب لادنى توهم وقوع ملمة وكثيراً ما كان الصدق سبيل النجاة فيما يتوهم انه فيه جالب الضرر ذاهب بالخير والله يهدى من يشاء الى صراط مستقيم

النظام

هو عام فى الأشياء النظرية والعملية وهو مما لاغناء عنه فى الوسائل الصحية والأشياء المنزلية وطرق الرزق والأحوال الاجتماعية الداخلية التى تكون بين أفراد الأمة أو الخارجية التى تقصد من أمة أخرى لما لها من الارتباط فى معاملتها السليمة وغيرها . قد أبنا لك القول فى أن النظام انما هو حسن ترتيب الأشياء وتقديرها تقديراً يوصل الى الغرض المقصود ألا ترى أن الانسان اذا راعى ذلك فى مأكله ومشربه ومسكنه وأعماله الجسدية كان غذاؤه بسيطاً لذيذاً وملبسه على بساطته وعدم مراعاة البذخ أنيقاً ومشربه نظيفاً شهياً ومسكنه مع خلوه من مظاهر العظمة والصلف بهيجاً نقياً وما فيه من الفرش والرياش حسن الترتيب جميل الوضع يملأ عين الناظر حسناً وقلبه سروراً وارتياحاً هذا على قلة المبذول ومراعاة الاقتصاد . واذا رتب وسائل كسبه من زراعة وتجارة ونحوهما ذلك الترتيب يجد الكسب لديه وفيراً واطمئنان القلب عظيماً واستجمام الفكر متوفراً وعاش عيشة سعيدة هنيئة أنظر الى أهل الكد

سواء فى المسائل العقلية أو العملية تجد أن من راعى منهم حسن النظام برّز على غيره فيما تسارعوا اليه . ان الذين خصوا بالمحافظة على حقوق أمتهم وعنوا بالدفاع عن حوزتها لا يتفاضلون بكثرة عددهم أو عظم ثروة أمتهم بل فى حسن نظام الدفاع ووسائله من الأسلحة وترتيب الحركات فكم من أمة قليلة غلبت أمة كثيرة وأنزلتها من مكان العزة الى حضيض الذلة وأصبحت محكومة بعد أن كانت حاكمة . ليس ذلك الاّ بحسن نظامها وتنسيق أعمالها . ان احكام النظام فى حركات القوى العقلية والعملية طريق الى تسنم المجد والاعتداد بالقول . اذا رزقت الأمة رجالاً ذوى أقدار عالية وأفكار ثاقبة ونظموا شئونها تنظيماً قويماً علا قدرها وسمع قولها اذا اتبعته أبناء الأمة فى واجبها بالنسبة لأطفالها وحياتها المنزلية والكسبية والاجتماعية الداخلة والخارجة عظم شأنها واتسعت أرجاؤها — ولا تحسبنه ما يريده العامة من الملبس الفخم والمآكل المتنوعة والبُسط والمقاعد الوثيرة والمبانى الشاهقة ذوات القيم العظيمة وسكون المتعلمين واصغائهم الظاهرى مع اشتغال قلوبهم وانحصار عقولهم عن الاستفهام عما يلقى اليهم حال التدريس فان ذلك من أكبر العوائق عن وسائل الاقتصاد وعن الرقى والتمرين على الشجاعة الأدبية واتساع المعارف

الشخص العامل فى هذا الوجود يشغل الوقت فلا بد ان يُكفَى مؤنة غير عمله خشية شتات الفكر وتفكيك الأعمال فيجد من نظام منزله وحسن رونقه ونظافته واحكام ترتيب ما فيه وتنسيق أوضاعه ونظافة مأكله ومشربه تنشيطاً على أعماله ووقتاً للراحة الحسنة التى تعينه على القيام بالعمل . ان هذه النفوس البشرية تملّ اذا استدامت فى أعمالها

فلا بد لها من وقت تستجمع فيه قواها ذلك الوقت هو وقت الراحة فى المنازل ومراتع الاسترواح فاذا كانت تلك المواضع على أتم تنسيق وأجمل ترتيب بعثت فيها ارتياحاً يولد فى الجسم نشاطاً فيعود الى عمله مستجمع القوى ثاقب الفكر

الأمم فى حاجة الى هذا النظام أيضاً فى سائر أعمالها فان العمل اذا كان على الترتيب المحكم الذى يؤدى الى السهولة وقرب الوصول الى الغرض المقصود قلّ فيه العناء وكثر الكسب . اذا رتبت أعمال الحكومات ترتيباً جيداً روعى فيه السهولة والنظام يقوم العامل الواحد مقام الكثير فتقل المرتبات ويسهل الاقتصاد . اذا كانت الجيوش على ما قدمنا من النظام الحسن من جهة الوصول بها الى الغرض المقصود منها قامت بما نيط بها خير قيام وان قلّ عددها . اذا دخل ذلك النظام دور التعليم مراعاً فيه ما يناسب القاؤه وما يحسن لطبقات المعلمين والمتعلمين بالنسبة للغرض المقصود من ذلك التعليم جاء بما يراد منه مع قلة فى الزمن واقتصاد فى الانفاق وبالجملة فالنظام من دعائم الاصلاح الخاصة والعامة . سمعنا عن كثير من الناس أنهم لا يعبئون به لكونه من المستحدثات أو أنه من أخلاق الجهلاء الذين لم يذوقوا لذة العرفان . ان هذه النغمة ليست بالحديثة فكثيراً ما رأينا وسمعنا فى التاريخ من استقباح الحديث ما يعد مكابرة ولكن ماذا عسى ان يقال وتلك سنة الأمم تكثر المصارعة فيها بين الجاهل والعالم والحاسد والمحسود والقديم والحديث . ان الذين لا يُعنون بالنظام ليسوا من ذوى الأعمال وأرباب الجد والنشاط الذين يحافظون على عدم ضياع الأوقات بدون جدوى . ان دأب أولئك القوم

قضاء الوقت على أى حالة فبغيتهم أن ينتهى اليوم والشهر والسنة وهكذا فهمُ هؤلاء ذهاب الأزمان وتقضيها لا يحزنهم أنهم فى حاجة لانجاز ما هم معنون بانجازه

ان خلق النظام يوشك أن يكون جبليًا لأهل البلاد التى لا تستدر فيها الخيرات الاَّ بالكد اذ هى ميادين سباق فى الأعمال والآراء أما غيرهم فلا يكون لديه هذا الخلق الاّ بالتربية والتمرين . النظام شجرة تثمر النجاح فى كل ما تقدم من الأعمال وعدم العناية بالشجر يؤدى الى فقدان الثمر . الاستهانة بالوسائل تضييع للمقاصد يجب على العاقل ألا يستهين بالنظام فان عدم العناية به اعراض عن الوصول الى ثمرات الحياة الانسانيـة والخصائص البشرية وذلك انحطاط الى أفق الحيوان يامعاشر المعارضين لأس التقدم وعماد النجاح ما أحوجكم لمرشد الى أخص ميزة الانسان لا سُبَّة لكم أشنع من سبتكم أنفسكم بما تقولون كبرت كلمة تخرج من أفواهكم ان تقولوا ما لا تعلمون انا نشاطركم القول فى ذم ما يسميه الجاهلون نظاماً وهو داء عقام يجب على قادة الأمم وقايتها من أضراره

يجب على الدعاة المرشدين أن يُفهموا العامة حقيقة النظـام قبل الدعوة اليه حتى اذا دَعوا أُجيبت دعوتهم ولبى القوم طلبتهم

ذكر بعض الأخلاق التى تحسن فى بعض الأشخاص دون بعض

علمنا من كثير مما سبق سبب حكمنا على الخلق بالقبح أو الحسن فاذا اتخذنا ذلك مرشداً لنا فى أحكامنا ظهر لنا أن بعض الأخلاق يكون

حسناً فى بعض الاشخاص وقبيحاً فى الآخر بالنسبة لما يقصد من ذلك الشخص ولنذكر نموذجاً لهذا فنقول علمنا مما تقدم فى خلق الحياء أن الحد الوسط منه فضيلة وأن الانحطاط فيه رذيلة ولكنا نرى أن ذلك خاص بالرجال فان الأعمال الخارجية منوطة بهم والافراط فى هذا الخلق معطل لهم عن الفضائل قاعد بهم عن الوصول الى عظيم المنافع التى تنبغى المجاهرة فيها بالقول والعمل وهذا بخلاف النساء فانهنّ لو أفرطنَ فيه كان أصون للأعراض وأبعد عن الابتذال ولا يعوقهن عن ترتيب المعيشة المنزليـة وحسن القيام بما يجب لأطفالهنّ من النظافة والعناية بما لهم من المأكل والمشرب وغيرهما بل ربما كان داعيـة ائتلاف رجالهم اياهم لما يرونه من محاسن هذا الخلق وكذلك الزينة فان افراط الرجال فيها مجلبة للرفاهية ونعومة الأظفار وهو لا يحسن فى الذكران المنوط بهم الكد والتعب واحتمال المكاره حباً في الفضيلة واستجلاباً للمنافع ودفع الاضرار بخلاف النساء فان التأنق فيها يظهرهنّ لدى الأزواج بمظهر الجمال ومن ثم أباحت الشريعة لهنّ لبس الحرير والتحلى بالذهب وغيره من نفائس الأشياء. نعومة البدن وعدم احتمال المشاق وحسن المنظر وزائد اللين كل هـذه من أنواع المحاسن فى الزوجات مرغبة للأزواج فيهنّ قال عنترة

تُمسى وتصبح فوق ظهر حشيّة وأبيت فوق سَراة أدهم ملجَم

قد رأينا خلق حب الكرامة يستتبع الفضيلة فى الأطفال فاذا فرح الطفل من مربيه بما يبديه له من الاعجاب والسرور والاكرام لكونه فعل أمراً ممدوحاً أسرع الى الاكثار من ذلك كى ينال منه ما يحبه من كرامة نفسه فيتدرج الى فعله ويمرن عليه حتى يصير له خلقاً وسجية

ولكننا نجده فى غيرهم على خلاف ذلك فان العاقل لا يجدر به أن يتصف بالفضيلة لاجل أن ينال ما يحب من التجلة والاعظام بل يحسن به أن يتصف بها لكونها كمالاً فانه اذا كان الباعث عليها حب الكرامة أعرض عنها اذا انتفى ذلك وليس هذا من أخلاق الكملة العاملين نعم ان الثناء على صاحب الفضيلة يبعث فيه الهمة والنشاط الى تكرارها والاتصاف بامثالها ولكن فعله ذلك لا يكون ناشئاً عن حبه اعظام الناس واكباره لأجله وهذا لا يكون الاَّ للمهذبين ونحن الآن بين قوم نريد أن يكونوا على ما يحسن بعض الحسن فنعد ذلك فضيلة فى الصغير والكبير حتى يمرن عليه كل منهما فاذا رقينا بتلك المعارج الى ذروة أرباب الأخلاق الفاضلة درجنا في مثل هذا المبحث على ما درج عليه علماء الأخلاق وقلنا ان حب الكرامة خلق حسن فى الصغير دون الكبير على ضرب من التأويل

من الأخلاق التى تحسن فى الرجال دون النساء (خلق الكرم فى غير المواطن الخيرية العامة) كاقراء الضيف والبذل للمحتاج فان هذا لا يحسن فيهنَّ فقد يكون وسيلة لطمع ذوى الفسق والدعارة فان المرأة اذا آوت الضيف وأكرمته وبذلت للرجل المحتاج حاجته طرَّقت له سبيل الاقبال عليها والطمع فى محبتها وقد يتخيل أن ذلك لرغبة فيه فيتدرج لاقبالها عليه والفاسقون يتخيلون أضيق الطرق وأحرجها فى الوصول الى مشتهياتهم لاحباً مطروقاً لايتكلف فيه سالكه شيئاً من العناء

(ومنها خلق الزهد) فانه يحسن بالعلماء والعباد القائمين بالوعظ والحث على عدم الاعتداد بادخار الأموال وكثرة المقتنيات والزينة رجاء أن يخففوا من شدة وطأة الظالمين والأغنياء المقترين على أنفسهم

والبخلاء على غيرهم ممن ينبغى لهم مواساتهم فان الواعظ اذا كان مصداقاً لما يقول نفذ الى صميم القلوب قوله ولا يحسن ذلك بالنسبة للامراء والعظماء من الملوك فان ذلك الخلق يذهب بمهابة الملك وشارات الامارة ومعلوم أن الملوك اذا لم تكن خزائنهم مفعمة بالأموال مكثرين من المقتنيات ولديهم مقدار عظيم من الأسلحة والعدد لا تتيسر لهم مناجزة أعدائهم من الحكومات الأخرى فتصبح الحكومات الخالية من المال والعدد طعمة لغيرها ولكن هذا لا يكون الاَّ في الملوك المطلقين — المال من أعظم القوات التى تساعد على استقلال الأمم واتساع ارجائها وتعميم طرق الاصلاح والتوصيل بين بُلدانها فتزداد بذلك قوةً وعظماً اذ هى قادرة على سهولة حشد جيوشها بتلك الطرق فى زمن يسير وعلى تنظيم جبايتها والقوة كل القوة فى الرجال والأموال ما داما على حد النظام والاحكام

(ومنها مجازاة المادح) — هذا الخلق كاد يعفو أثره الآن فى الممالك الغربية فان الأموال أموال الأمة ولا شأن للملوك فيها وأموالهم الخاصة بهم لا يغدقون بها على المادحين فقد رسخ فى أذهان أبناء تلك الامم وضيعها وعظيمها عدم العناية بقول المادحين لعدهم ذلك فضولاً وملقاً وان الاجدر بأولئك المدّاح أن يسلكوا فى الكسب طريقاً مشروعاً . وهذا الخلق حسن بالنسبة للعظماء والامراء الذين لهم غناء في الأمة فان اثابتهم مادحهم المدح الحق واهتزازهم لذلك يولد فيهم حب الاستقامة والاستكثار من الأعمال الجليلة توقعاً لحسن الأحدوثة . وتتابع المجازاة عليها يؤدى الى الاكثار منها فتكون بعده أثراً خالداً يحفظ له لسان صدق على ما أداه

من المنافع لقومه ويغرى من خلفه باتباع سنته والتفوق عليه فيها على شريطة أن يكون الجزاء معتدلاً والثناء حقاً . (هذا غاية ما يمكن ان يلتمس لحسنه) واذا لم يكن كذلك كان من الأقوال الضارة فان الظالمين الباطشين من العظماء أشد ميلاً الى الثناء وحسن الأحدوثة ليستروا بذلك ما قبح من ظلمهم وما أفسد الامم من استبدادهم فاثابة أمثال هؤلاء مادحيهم ترويجاً للزور وادحاضاً للحق بالباطل واغراء لمن بعدهم على اتيان القبيح من الأعمال على أن الكامل في الفضيلة ربما آثر الخفاء على الظهور والاستكانة على العظمة ورأى انه لم يُجد حكماً ولم يجلب نفعاً استصغاراً لما حصل منه وطمعاً في أن يكون على أرقى من ذلك فلا يرى نفسه أهلاً لما يقال فيه من المدائح فيحمله ذلك على عدم المجازاة أنظر الى ما حدث بين جرير وعمر بن عبد العزيز رحمه الله حين جاءه وأنشده كلمته التى يقول فيها

وكم من ضرير أمير المؤمنين لدى أهل الحجاز دهاه البؤس والضرر
أصابت ألسنة الشهباء ما ملكت يمينه فخناه الجهد والكبر

وهذا الخلق لا يحسن من غير أولئك فان الأشخاص الذين لم يأتوا بجليل الأعمال لا تحسن مجازاة مادحيهم لأن في ذلك اغراأ على الثناء الكاذب فيكون ملقاً ومدعاة لرواج الاباطيل والاكاذيب فالأجدر بالباذل لأولئك أن يبذله لمن يستحقه من أرباب الحاجة أو المشروعات الخيرية النافعة

طريق معرفة الانسان عيوب نفسه

اذا اهتدى الانسان الى النميم من أخلاقه وعالج نفسه على ما أوضحناه سالفاً آخذاً في التخلي عنها شيئاً فشيئاً فيضعف فيه ذلك الخلق المرذول وعلى نسبة ضعفه ينمو فيه خلق الفضيلة المضاد له فعلى هذا علاج الشخص نفسه من الخلق الذميم يتوقف على معرفته وعلى أخـذه نفسه بالتخلي عنه وليس كل شخص قادراً على تلك المعرفة وعلى حمله نفسه على الابتعاد عما لها من الأخلاق فان كل واحد مولع بحب ذاته فلا يفقه لها عيباً ولا يعرف منها نقصاً اذ هي أحب شيء لديه وأنفس عنده من كل ما عداها كما قال الشاعر

وعين الرضا عن كل عيب كليلة   كما أن عين السخط تبدي المساويا

وقال أيضاً

خليلك أنت لا من قلت خلي   وان كثر التجمل والاخاء

ألا ترى أنك تستحسن من نفسك ومن ابنك ما تستقذره من أبناء غيرك ومن سواك وعلى هذا فاذا أراد شخص أن يتعرف الفاسد من أخلاقه أن يتعلمه من أصدقائه العقلاء البصراء بمذام الأخلاق ومحاسنها فاذا أعلموه شيئاً منها جد في علاجه حتى يخلص منه غير أن هذا الأمر قليل فان أكثر الأخلاء والأصدقاء لا يشافهون صديقهم بذلك ولو طلبه اليهم خصوصاً الأمراء والعظماء لما وقر في النفوس من أن كل شخص يرتاح الى الثناء عليه ونسبة المحاسن له وأنه اذا قوبل بغير ذلك ثارت فيه قوة الغضب فسب وخاصم فلا يفوهون له بالمثالب الا اذا

كانوا على جانب من رصانة العقل وصادق التجربة آمنين من وقوع الضرر من جراء ذلك والاَّ أطروه مدحاً وأشبعوه ثناءً حباً في الملق ومداهنة في الصداقة واستجلاباً للخير أو درأ للضير وعلى ذلك فهذه الطريقة غير متوفرة في كثير من الأصدقاء والعشراء واذن فيحسن أن يتعرفه من أقوال أعدائه وألسنة معارضيه فاذا فطن بذلك الى خلق ذميم أخذ نفسه بالرجوع عنه والانكباب على ضده ولا يضرّنه في هـذا ما عساه أن يكون من كذبهم وفريتهم فيما ينسبونه اليه فانه لا ضرر في تصديقهم فيما قالوه لأنه ان كان باطلاً وعمل على مقتضاه نمى في نفسه خلق الفضيلة فتأصل لديه وأصبح ملكة بعد ان كان حالاً وهناك طريق آخر لمعرفة النقيصة وذلك بأن يعاشر الناس بزائد اليقظة والتنبه الى ما يذمونه كسرعة الغضب أو الشح أو الكذب فيتفقد في نفسه تلك الأشياء المذمومة تفقد اليقظ فان ظهر له شيء منها جدَّ في الابتعاد عنه (وهذا يحسن بالجاهل الذى لا يعرف حسن الأخلاق من قبيحها) أو ينظر الى خلانه وأوداه فان الغالب فى أولئك أن تكون أخلاقهم متشابهة وأحسن شيء فى هذا الباب أن يتأمل نتائج أخلاقه فان وجد من عمله استرقاق قلب وفوائد ترتبت على صنعه علم أن ذلك نتيجة ذلك الخلق الفاضل وان وجد منه تنافر القلوب والاضرار علم أن ذلك ناشيء من الخلق الذى جلبه وانه خلق نقيصة فيعول على اجتنابه والاتصاف بضده

كان عمر رضى الله عـنه على علو نفسه واتصافه بفاضل الأخلاق يتعرّف أحوال نفسه من أصدقائه الذين لا يخشون في مقال الحق لومة لائم فقد ورد أنه كان يسأل حذيفة ويقول له أنت صاحب رسول الله

صلى الله عليه وسلم فى المنافقين فهل ترى علىَّ شيئاً من آثار النفاق وكان رضى الله عنه يقول رحم الله امرءاً أهدى الىَّ عيوبى سئل داود الطائى عن سبب اعتزاله الناس فقال ماذا أصنع بأقوام يخفون عنى عيوبى

تأثير البيئة والمجتمعات والدين فى الأخلاق

يولد الانسان خالى الفكر من تصوّر الحسن والقبيح لا يدرك الاَّ ما توصله الى عقله حواسه الخمس فيألم مما يؤلمه منه كالضرب والحرارة والبرودة ويسكن الى ما يلذه كالأكل والمشرب ففكره وقتئذٍ بمنزلة مزرعة تخصب ما يلقى فيها من البذر فان ألقى فيها بذر حسن من صادق التصورات وفاضل الأخلاق وتعهدته التربية المنزلية بما يناسبه نمى وأثمر ثمراً جميلاً يفيده ويفيد المجتمع صلاحاً وفلاحاً واذا ألقى فيه بذر خبيث من التصورات السيئة الكاذبة الضارة أنتج شراً وفساداً لنفسه وللمجتمع وليس ذلك قاصراً على التربية المنزلية بل قد يكون ذلك التأثير للبيئة والمعاشرين فان للأجواء من التأثير ما لا ينكره المطلع على خصائصها ألا ترى البلاد الزائدة الخصوبة اذا قلّت فيها المزاحمة وجد أهلها من ذلك ما يكفيهم مؤونة الحياة على قليل أتعابهم فيركنون الى الراحة والبطالة قانعين بما سهل لديهم من وسائل المعيشة فيعتادون الكسل ويقل فيهم خلق المثابرة على العمل ويؤثرون الراحة على المشقة ويقرب من هؤلاء من وكلوا أمور نفقاتهم الى الخدم وكلفوهم القيام باستدرار الأرزاق أنظر الى أهل السودان لا تجد في أخلاقهم زمن اكثارهم من الأرقاء والخدم المداومة على الأعمال واحتمال المشاق فى سبيل الرزق والى أهل الحجاز

فى فرضهم على عبيدهم العمل واعطائهم الأجر فان ذلك حبب اليهم الراحة وعدم الادمان على الأعمال الجالبة لخيرات الأرزاق مع ما ساعد على هذا من الحرارة فى بلاد السودان وما شاكلها فان شدتها تورث في الانسان خموداً فى القوة الفكرية والبدنيـة حتى لا يستطيع المثابرة على كثرة استعمالهما اللهمّ الاّ اذا زاحم أولئك أقوام ذوو غيرة وعمل فان مخالطتهم اياهم تولّد فيهم غيرةً ونشاطاً لما جبلت عليه النفوس من حب استباق المنافع والخيرات ولا نذهب بك بعيداً بل نلفتك الى نفسك وقومك قبل وفود ابناء الامم الاخرى الى ديارهم تجد أنهم كانوا لا يثابرون على الأعمال ولا يتسابقون فى الوصول الى ما يجلب الثراء فكنت ترى المزارع لا يشتغل الاَّ أياماً قليلة فى تهيئة أرضه للزرع والقاء البذر ثم يتركه وشأنه بدون سماد وتنقية من الحشائش الغريبة حتى اذا جاء وقت حصاده نقله الى البيدر واشتغل بدراسته وتذريته وقضى الكثير من أوقاته فى ملازمته منزله ما بين نوم ولعب ومسامرة قانعاً بما يكفيه من تلك الارزاق التى حصل عليهـا بقليل العمل وكذلك التاجر لا يسعى ويكد فى جلب عروض تجارته من المصانع التى بالاماكن البعيدة ولو كانت رخيصة الأثمان ولا يفكر فى اتخاذ طريق للوصول الى الجيد الربيح منها مفضلاً الاكتفاء بالقليل مع الراحة من عناء الأسفار وشتات الأفكار عن الكثير المستصحب لذلك ولكن لما زاحمه الغرباء فى طريق الكسب ومواود الرزق ووجد من نشاطهم ما يعوقه عن الوصول الى مرافق الحياة أخذ فى الحركة والمثابرة أكثر من حالته الأولى وان كان لا يزال فى ذلك قليل الكد قصير الفكر لو نسبناه لمزاحمه . فان تغير الحال أفهمنا أن المخالطة

تؤدي الى تغيير في الخلق فلو خالطنا أقل منا كداً وأحط فكراً لما نمى فينا خلق المزاحمة والمثابرة غير أن ذلك لا يمنعنا من القول بأن تلك المخالطة أظهرت فينا حب التأنق في المآكل والمشارب والقصور والرياش فأصبحنا مع كدنا وعملنا القليل نبذل ما زاد من الكسب والربح على تشييد تلك القصور الباذخة والملابس المتنوعة والألوان المختلفة . ويا ليتنا وقفنا عند ذلك بل تجاوزناه الى الاكثار من معاقرة الخمور والمباراة في ميادين القمار والمضاربات المجتاحة للثروة فذهبت أموالنا وضاعت أرباحنا . خالطنا قوم أشد منا معرفة بطرق الثراء والاقتصاد وأقدر تفنناً في وسائلهما ذووا جد ونشاط رسخ فيهم خلق المثابرة فأكسبونا منه قليلاً وأقبلنا اقبال الهيم على ما لديهم من الزخارف ومن وسائل الثروة التي نحن فيها عيال عليهم كالمضاربة وما شاكلها فربحنا قليلاً من الأولى وخسرنا أضعاف ذلك من الثانية ولو كان لدينا سياج من العقل الراجح والرأي الركين لما كسبنا الأ ما به صلاحنا وفلاحنا

اذا نشأ المرء بين أسرة مهذبة سرت أخلاقها اليه من حلم وأناة وشجاعة وقوة ارادة وغير ذلك من الفضائل فاذا عاش كبيراً بين قوم أخيار بررة لا يعرفون النقيصة ولا يألفون سوى الفضيلة أصبح كاملاً فاضلاً خيّراً لنفسه خيّراً لاسرته خيّراً لاصدقائه وقومه فانه لا يجد لديهم مدحاً الا للفضيلة ولا ذماً الا للرذيلة فيعتاد ذلك وتتأصل فيه الفضائل ويجانب الرذائل وعلى العكس من ذلك التربية الفاسدة ومعاشرة الاشرار ذوي الدعارة والفجور فانه بمصاحبتهم لا يبتعد عن الرذيلة المنطوية في أقوالهم وأفعالهم ومدائحهم وغالب أحاديثهم فيمرن عليها والمرء اذا اعتاد

شيئاً لا تردعه مذامه ولا تنفر قلبه قبائحه بل ربما تخيلها محاسن . أليس الشرف الانساني يمنع صاحبه من ارتكاب الرذيلة فتراه يتباعد عنها استحياء وخشية من سوء الأحدوثة فاذا وجد قرناءه لا يتحاشونها سهل عليه أن يغشاها مرة وأخرى فلا يجد فيها غضاضة على حسن سمعته وثلماً لشرفه وهذا ما يحملنا على القول بأن الشرف الانساني كالزجاج اذا كسر تعسر جبره

المرء يتخلق بخلق أحبابه وأصدقائه ومن يعتقد فيهم الكمال والفضل فان المفضول مولع بالتخلق باخلاق الفاضل وهذا أمر سائر في عامة الناس كما نص عليه العلامة ابن خلدون ولذا ورد ما معناه المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل وعلى هذا فاذا رأيت قوماً تنتحل أخلاق وعادات أمة اخرى ويألفون مألوفاتها فاحكم بأن عظمتها ملأت قلوب أبنائهم حتى اذا حاربوها لا يقدمون على ذلك الا وقلوبهم بين جناحى طائر لما ملأها من تجلة تلك الأمة واكبارها فلا يلبثون أن ينكصوا على أعقابهم مغلوبين مخذولين يؤيد هذا ما ورد (اذا شابه الزى الزى فقد شابه القلب القلب) . فاقتفى أثره فيما يستقبحه ويستحسنه ومن ثم حظر بعض الدول القوية على الجند تقليد غيرهم من جند الدول الأخرى

هذا وتأثير الدين الشريف في الاخلاق أمر ظاهر لا يسع أحد انكاره (الدين له سلطان على القلوب وتأثير في النفوس) فان الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي ووعدهم (اذا ائتمروا بأوامره واجتنبوا نواهيه) بالخير العميم والفضل الجزيل وأوعدهم

اذا خالفوا ذلك بالسخط المريع والعذاب الأليم

وهو العالم الذى لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها الاّ هو ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة الا يعلمها ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس الا فى كتاب مبين . وهو القادر على تحقيق ما وعد به المتقين وأوعد به غيرهم وهو القاهر فوق عباده ولا معقب لحكمه ولا راد لقضائه فمن آمن بما جاءت به الرسل وجد على نفسه رقيباً فى خلواته يثيبه اذا أطاعه ويعاقبه اذا عصاه فيقبل على المأمورات ووجوه الطاعات سراً وجهراً ويعرض عن المنهيات فى وحدته ومجتمعاته

القوانين الوضعية على فرض اصابتها الغرض المقصود فيما يناسب سعادة المجتمع لا تزع الناس عن الأخلاق الذميمة والافعال الضارة الا ظاهراً لأن ما ترتب عليها من أنواع العقوبات لا يتحقق الا اذا علم من صاحب ذلك الخلق تلك الفعال بخلاف ما كان خفياً فى الانفراد لا يطلع عليه أحد أو تواطأ المطلعون على اخفائه . على أنه كثيراً ما يحصل الاغضاء عن العقوبة بوسائل المحبة وما جرى مجراها وعلى فرض كل ذلك فمن أين لنا أن المسيطر لا يعوقه عن الحكم بالعقوبة أو تنفيذها عوائق أخرى

علمت مما سبق فى مدح الأخلاق الفاضلة وذم السافلة أن كل ذلك بعض ما انطوت عليه الشريعة الطاهرة فان آى الكتاب الكريم والأحاديث الشريفة أتت فى بيان ذلك بما لا يفوقه بيان ولذلك قال عمر رضى الله عنه من لم يؤدبه الشرع فلا أدبه الله وليس لدينا شئ أحسن فى هذا الباب من أن نحيلك على كتاب الله تبارك وتعالى وسنة نبيه

صلى الله عليهِ وسلم فانك اذا تدبرت ما جاء فيهما رأيت العجب العجاب وقلت ليس فى الامكان أبدع مما كان . اذا قرأت تاريخ العرب قبل البعثة وعلمت ما كانت عليهِ اعتقدت أن للشريعة السمحة فى تهذيب الأخلاق التأثير الأكبر وكذلك اذا عقلت تاريخ كل أمة ذات دين سماوى قبل الدين وبعده لم تبقَ لديك مرية فى شئ من ذلك

قلنا وجيزاً ولو سقنا الجزئيات لطال بنا الكلام

التربيـــة

نريد بها هنا تنمية الفضيلة النفسية والجسمية تدريجاً حتى نصل بالمربَّى الى حد الكمال فيهما

الطفل يولد خالياً من مدركات النفس الناطقة التى تكلمنا عليها فى الفلسفة النظرية ليس لديه الاَّ المدركات الحسية التى تناسب القوة الشهوية والغضبية فهو فى هذه الحال بمنزلة الحيوان لا يحكم الاحكام الكلية على الأشياء بالقبح أو الحسن فلا يهم الاَّ لمحسوس يتخيل فيه فائدة ولا ينفر الا منهُ اذا تخيل فيهِ ضرراً فقوّتهُ العاقلة بمنزلة جوهرة نفيسة خالية من النقش قابلة لما يرسم فيها من حسَن أو قبيح فهو أمانة فى يد أبويه أو من وكلت اليهِ تربيته (فعليهِ أن يحفظهُ من موارد التلف والاتبـاق) فان نقش فيها المعلومات الحقة المفيـدة وطبعهُ على الأخلاق الفاضلة وجنّبهُ الأباطيل والرذائل وعوّده خير الأعمال أثابهُ الله على حفظ تلك الأمانة والعمل الصالح الذى كان بهِ كمال ذلك الطفل ذلك الكمال الذى أفاده وأفاد ذلك المربّى وأسرته ومواطنيه بل أمته وبنى الانسان والا كان ضاراً

لنفسه بعدوله عن حفظ ما ائتمن عليه ضاراً لتلك الأمانة ولأسرتها ولأمتها

يرشد الى هذا قوله عليه السلام كل مولود يولد على الفطرة الاصلية فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه والمرء كما هو مسئول عن اصلاح نفسه وافسادها مسئول عن اصلاح وافساد نفس من وكلت اليه تربيته

ينبغى للأم أو من يقوم مقامها أن تتعهد الطفل فى نظافة جسمه وملبسه ومأكله فلا تتركه لحظة غير نظيف الاطراف وسائر الجسم فان ذلك مجلبة للضرر

الطفل لا يصون نفسه عن وضع أصابعه على عينه وداخل فمه . أسرع شيء الى اتلاف الاعين قذارتها ورماصها ووساخة ملامسها . ان وسخ الثياب والجسم يوجب تراكم الذباب الناقل لجراثيم الامراض وتراكم الاوساخ يضعف التنفس الجلدى وكل هذا من وسائل ضعف الصحة يجب عليها ألاّ تدعهُ فى الأماكن القذرة ولا تكثر له من الرضاع بل تنظمه تنظيماً يطابق الصحة ولا تهمل فى ذلك خشية من عويله وصياحه فانهُ اذا رأى ذلك مجلباً لما يرومه أكثر منهُ كما قال

والنفس كالطفل ان تهمله شبَّ على حب الرضاع وان تفطمهُ ينفطم

على أن كثرة الصراخ أيام الطفولية الاولى أجش للصوت وأوصل الى اصلاح طرق التنفس وقد عرفت ذلك العرب قديماً وذكر فى نصائحها والاَّ تنيمه حزيناً باكياً . فقد ورد عن القدماء من الأمة العربية (أن النوكى تنيم ولدها باكياً والحاذقة تغنى له حتى ينقلب أسفه سروراً فلا تنيمه الا على هذه الحالة) . وليس ذلك بمقصود فى مبحثنا هذا لأنهُ من مباحث الأطباء فلا نكثر الخوض فيما لسنا فيه على قدم

ولنذهب بك الى القول فى طريق انماء القوة الحكمية والأخلاق الفاضلة والأعمال الصالحة فيه وهو خلو من هذا ومن أضداده فانه أسهل وأنسب بطريقتنا وأنفذ للوصول الى الكمال المطلوب اذ القاء بذر فى مغرس خال لا يحوج الى عناء كالعناء الذي يكون عن القائه فى أرض مملوءة بالحشائش الفاسدة والجذور المتلفة لنماء ذلك البذر فانه يستدعى قبل الالقاء تعباً عظيماً في تنقية ذلك المغرس من تلك الحشائش والجذور العائقة عن انبات البذر نباتاً طيباً يثمر ثمراً حسناً

يجب أن يعوّد الطفل الصدق في كل أقواله ويسهّل ذلك نشأته بين أُسرة لا تقول الا حقاً فلا يرغّب ترغيباً كاذباً ممن هو بينهم لأنهم بذلك يطرقونه الى الكذب واذا درج عليه مرة درج اخرى وهكذا حتى يكون خلقاً راسخاً يصعب علاجه ومعاشرة الأطفال الذين ربوا على الفضيلة من أولياء أمورهم الذين عنوا بذلك والاحسان اليه اذا قال صدقاً وترك معاقبته اذا أجرم وسئل عما ارتكب فقال حقاً وأن يُنهى عن الكذب ويؤمر بالصدق فى كل أقواله ويكافأ على الأول بما يعده حسناً ويقبل به على مداومة ذلك . ترك النميمة لكبير الاسرة فيما يحصل داخل المنزل من أحد أفراد أسرته ويُعالج فى ذلك بما عولج به في خلق الصدق . وأن يعود الحنو والعطف على من معه والغضب فى موضعه بأن يستحسن منه ما هو حسن ويكافأ عليه ويُستقبح منه ما هو قبيح بالنصح واظهار الاستياء منه . وكذلك يجب أن يُربّى فيه خلق المثابرة على العمل بحمله على مزوالة ما يتعلق به من غسل الوجه والأطراف وتنظيف الملابس والقيام ببعض الأشياء المنزلية متى استطاع الى ذلك سبيلاً .

وإيقافه على الحسن من أعماله واظهار السرور منه والفاسد وإرشاده إلى احسانه واظهار الاستياء منه متبعاً فى ذلك كله ما هو أنجع وأنفع فى وصوله الى درجة الكمال فان رأى أن النصح كاف فى الردع والزجر فلا يعدل عنه الى العقوبة لأنها تولد فى القلب هلعاً وخوفاً يذهبان بالصراحة والحرية المطلوبة فى المقال والأفعال . يجب عليه ألاَّ يدعه يُفرط فى الأكل خصوصاً ما لا يناسب صحته ونماءه من الأغذية العسرة الهضم وأن يفهمه أن كثرة المآكل جالبة للامراض مدعاة للكسل وعدم النشاط . وعليه أيضاً أن ينمى فيه خلق الاقتصاد فيأمره بادخار شئ من النقود التى تُعطى له وكلما رآه مقتصداً نمّى فيه ذلك بزيادة عطائه واستحسان هذا الخلق منه واذا رآه مسرفاً متلفاً قلل من عطائه أو أمسك وأظهر له الاستياء الى غير ذلك من الأشياء التى تبغّض اليه الاسراف وتحبّب اليه الاقتصاد ويجب ألاَّ يحدّث بالاحاديث المفزعة التى تملأ القلب مخافة كأقاصيص العفاريت وما شاكلها بل يعوّد الشجاعة والاقدام المعتدلين وذلك بالامساك عن ذكر المخوّفات وحمله على الذهاب الى بعض قاعات المنزل منفرداً وقضاء حاجته كذلك ما دام فى أمن عليه من الحشرات والهوام حتى ينمو فيه هذا الخلق (ولذا رأينا النشء فى البدو أكثر شجاعة وأعظم اقداماً عن نشء الحضر) . ويجب أن يقضى وقتاً فى الرياضة البدنية تقوية لأعصابه وجسمه واعانة له على الوصول الى المعلومات فان شغل معظم الوقت بالتعليم يذهب به الى السآمة والملل . يجب أن يُعلّم من المعلومات الحقة شيئاً فشيئاً على المقدار الذى يصل اليه عقله كما يجب الاحتراس من تعليمه شيئاً أعلى من مداركه ولا يلقى اليه شئ من

المعلومات الباطلة والأقاصيص الكاذبة فان ذلك مجلبة فساد الأخلاق وباطل الآمال فمن الأشياء الموجبة لسوء تربية النشء قراءة الاقاصيص والروايات المملوءة بالاباطيل فانها توصل فيه الامانى الكاذبة علاوة عما تجلبه من الخوف والكذب واتباع هوى النفس . ويجب حثه على التمسك بأذيال تقوى الله فيعوّد القيام بامتثال أوامر الشرع واجتناب نواهيه قدر استطاعته حتى اذا جاء طور التكليف وجده مألوفاً . الطفل فى بدء أمره لا يصعب على مربيه تهذيبه وحمله على الأخلاق الفاضلة متى كان القائم بتربيته حكيماً يتعهد أحواله النفسية والجسمية . الطفل قابل لما يودع فى نفسه من حسَن أو قبيح ألا يرى انه يثبت على دين كافله ومربيه

أخلاق مربيه تتسرب اليه من حيث لا يشعر فانه يراه أعظم منه لكونه قائماً بشأنه صاحب أمره ونهيه فيقلده تقليد المفضول الفاضل ولذا ترى الأبناء يتشبهون بآبائهم فى حركاتهم وسكناتهم فيجب أن يكون القائم بتربيته ممن عرفوا بمحاسن الأخلاق والتمسك بالتقوى بجهد الاستطاعة ومن ثم حظرت الشريعة التعلم من استاذ فاسق

اذا فقهت ذلك علمت أن المربيات لابنائنا سبب فى جهالاتهم وفساد أخلاقهم وسقامة أجسامهم فيجب أن تكون الأمهات على جانب عظيم من العفة والديانة والتقوى عارفات بالفضائل ووسائل الصحة التى قدمناها وببعض المعلومات الحقة التى يناسب تعليمها الأطفال حتى تحسن لدينا تربية أبنائنا

ما أكثر جرم الأمهات الجاهلات على أبنائهن فى التربية العقلية والجسمية فكم من جواهر نفوس ذهبت نفاستها وتأصل فيها الظلام بعد

صلاحها للانارة ودنست بعد نقاءتها بباطل المعلومات وكاذب الأقاويل وكم من صحة بدلت سقماً استعقب فنـاء بجهلهنّ طروء الأمراض القتالة فلا تفطن اليها حتى تعرض طفلها على الطبيب قبل أن يستحكم الداء ولا يجدى الدواء أنظر الى مرض الخناق المسمى (بالدفتريا) فان جهل الأمهات اياه أودى بالأولاد (وهم رياحيننا صغاراً ورجال مستقبل بلادنا كباراً) فأصبحوا رهائن القبور ومضامين اللحود

يجب أن تتعلم الأم نظام منزلها وتربية أولادها وهى رهينة خدرها أليفة عفافها فانّا لا نطلب منها شيئاً فوق القيام بذلك. وتكليفها بأن تكون كالرجل فى كل أعماله شطط لو تعلمون. المرأة أعمالها كثيرة فان القيام بالنظامات المنزلية على تنوعها وبتربية الأبناء على النحو الذى أسلفناه مع ما هى عليه من طروء لأمراض الحمل والنفاس لا يدع لهـا الاّ وقتاً يسيراً للراحة فيا حبذا لو وصلنا بها الى هذه الغاية

على الرجل القيام بما هو خارج المنزل فيكفى زوجته همه وعليها ما هو داخله فتكفيه مؤنته (قسمة عادلة وحكم حسن) اختلف على بن أبى طالب كرّم الله وجهه وفاطمة رضى الله عنهـا فى ذلك فناط رسول الله صلى الله عليه وسلم علياً بقضاء ما هو خارج منزله وفاطمة بما هو داخله. ان كل حكم يأتى على خلاف ذلك ليس منشؤه الاّ ما استهوى العقول من رفعة قوم واتساع سلطان ملكهم فنسبوا ذلك الى كل ما لديهم من الأخلاق والعادات ولم يفطنوا الى أن فى بعضها قبحاً يألم منه القوم ألمنـا من بعض ما لدينا من العادات على فضلها ومناسبتها للأحوال العمرانية وشتان ما بين الألمين الرقى يجلبه الاتحاد والتضامن فى المنافع العمومية

العائدة على الافراد بمنافعهم الخاصة . تجلبه الثروة والمثابرة على الأعمال العظيمة. يجلبه التنقير والبحث وراء ما يفيد اختراعه قوة ومالاً . يرقى بالأمة مالاً وقوة اكبار شأن من أفاد أمته واحتقار من كان على عكس ذلك فان هذا يبعث المحسن على الاكثار من احسانه والمسيء على الاعراض عن اساءته لا كشف الحجاب واطراح النقاب وليت شعرى هل شاهد القائلون بخلاف ذلك ما ترتب على تبرج النساء فى تلك البلاد الراقية من المفاسد وهل تفكروا قليلاً ونظروا فى ذلك حتى يصلوا الى الحق الذى لا مرية فيه

لو تم لنا الوصول بنسائنا ورجالنا الى ما قلنا فقام الرجال بما وكل اليهم من الأعمال الخارجية حق القيام وثابروا على العظيم النافع منها وتخلقوا بفاضل الأخلاق وتضامنوا فى المنافع العامة وولجوا اليها من طريقها الممكن ولبسوا لكل حال لبوساً فى ذلك السبيل وقام النساء بقسطهم الذى بيناه لتوقعنا خيراً وتوسمنا للأمة رقياً وفلاحاً فعلينا أن نلج فى الوصول الى هذا الطريق القويم ولا يقنطنا منه تباين الأفكار واختلاف الآراء وصعوبة المسلك مع تقاعد الهمم متمسكين بشريعة القادر الرحيم . (وهو الذى ينزل الغيث من بعد ما قنطوا وينشر رحمته وهو الولى الحميد)

السعادة

قال المتقدمون من الحكماء مثل فيثاغورس وابقراط وافلاطون ان السعادة تكون باعتدال القوى النفسية الثلاثة وهى الحكمة والشجاعة والعفة فاذا بلغت النفس حد الاعتدال فيها كانت سعيدة وان

تألم البـدن أو ذهب بعضه الا اذا أدّى ذلك الى تطرّق خلل فى تلك الفضائل فعلى هذا يكون الكامل فى تلك القوى سعيداً وان كان مريضاً أو مبتور الأيدى أو الأرجل الا اذا عرض له ما يقتضى فساد العقل أو رداءة الذهن ونحوهما مما يلحق بالنفس مضرّة فى خاص أوصافها وذلك لأنهم عنَوا بالسعادة ما كان أبدياً باقياً لا فانياً زائلاً وهم القائلون بالميعاد الروحي الذي تكلمنا عليه في الفلسفة النظرية وهم الذين يقولون ان البدن عائق لها بظلمته الحيوانية الشهوية والغضبية عن وصولها الى معلوماتها الحقة التي هي معشوقتها فما دامت فى هذه الظلمات لا تحصل على لذاتها الباقية وحياتها الراضية

وقد رأى أرسطو ومتابعوه أن فعل النفس الخيرات ووصولها للكمالات لا يكون الا بواسطة مادتها التى هى البدن فلا بد من اعتبار سعادته في سعادتها . ان الانسان مكوّن من شيئين أحدهما النفس الناطقة وثانيهما الجسم فلا تتم له السعادة الانسانية الاّ باستيفاء كمال ذينك الشيئين وقال في بيان ذلك ان السعادة الانسانية يجب ان تكون حال الحياة وبعد الممات وأنها ليست أمراً تخييلياً ألا يرى أن السقيم يتخيل أن السعادة كل السعادة في الصحة وأن الفقير يراها في الثراء والمال والعاشق يراها في الوصول الى معشوقه بل يراها السكير في الوصول الى السكر والزانى في الوصول الى غرضه الى غير ذلك من كل ما الانسان خلو منه وشاقه الوصول اليهِ سواء كان فضيلة أو نقيصة فاذن لا بد من تحديدها تحديداً حقيقياً خالياً من التخيلات وعلى هذا فالسعادة تكون باستكمال القوة الحكمية على حد الاعتدال وقوتى العفة والشجاعة كذلك واستكمال

البدن الصفات الكمالية كالصحة وغيرها من الأشياء الجسمية التى لها دخل في قوام الجسم ونمائه من الغذاء والشراب واللباس والمسكن وغير ذلك على الحد الوسط الذى تسنه القوة الحكمية بمعنى أنه يكون زيادة عن الخلو من الأمراض والأسقام مقسطاً خصائصه على وفق ما ترسمه القوة الحكمية. وتختلف مراتب السعادة قوة وضعفاً تبع اختلاف سعادتى النفس والبدن من حيث الاعتدال فى كل خصائصهما أو عدمه أو الاتصاف ببعضها دون البعض الآخر فالذى توفرت فيه القوة الحكمية والشجاعة والعفة على الحد المرغوب فيه أكثر سعادة ممن توفرت فيه القوتان الاولى والثانية أو الاولى والثالثة أو الذى لم تبلغ فيه القوى الثلاثة حد الاعتدال كل هذا منضم الى استكمال البدن خصائصه الكمالية أما اذا لم يكن كذلك بأن توفرت لديه القوى الثلاثة بدون استكمال البدن تلك الخصائص بأن كان سقيماً مريضاً أو كان غير حاصل على ما يقوّم به أوَد حياته من الغذاء أو يدفع به ألم البرد فانه لا يكون مستكملاً السعادة الانسانية بل النفسية دون البدنية ولا سعادة الاّ باستكمالهما معاً فان الانسان مركب منهما كما قلناه

وعلى رأيه السعادة الانسانية التامة تتوقف على خمسة أشياء كل قسم منها تكون عنه سعادة ناقصة الأول ان يكون صادق الاعتقادات فى التصديقات الدينية وغيرها من المعلومات الأخر بريئاً من الخطأ والزلل جيد الرأى صحيح الفكر أصيل المشورة الى آخر ما تقدم من الصفات التى يتم بها اعتدال القوة الحكمية الثانى أن يكون صحيح البدن لطيف الحواس بمعنى أنه يكون جيد السمع والبصر والشم والذوق واللمس وذلك

يكون عند اعتدال المزاج   الثالث أن يكون ذا ثروة وعشيرة وأعوان كى يستطيع فعل الخيرات لمستحقها على الوجه الذى ينبغى ويقتدر على دفع الضيم عنه وموازرة من تحسن موازرته   الرابع أن تحسن أحدوثته الحقة لدى الناس وتكثر مدحته الصادقة بين أهل الفضل فان ذلك يزيد قلبه سروراً ويده بسطة فى فعل الخيرات   الخامس أن يرزق النجاح فى أموره فتتيسر له مقاصده وتصل اليه أغراضه ويدرك الغاية المقصودة ويجمع كل هذه استكمال فضيلتى الشجاعة والعفة

وما ذهب اليه أفلاطون تعضده الشريعة الاسلامية فانها ناطت السعادة الفانية والباقية بصادق الاعتقاد بما جاء به الرسول عليه الصلاة والسلام والقيام بامتثال الاوامر واجتناب النواهى والتحلى بفاضل الاخلاق التى سبق الكلام عليها وان كان مريضاً أو مبتور بعض الاعضاء أو فقيراً معدماً بل رغبته فى الصبر على ذلك باجزال الأجر والثواب فى الحياة الباقية

هذا ما نراه كافياً فى الاتصاف بالسعادة ولا نغالى فيها مغالاة بعض الفلاسفة اذ قالوا انها لا تكمل الاّ اذا تشبه الانسان بالخالق فيفعل الخير لا لغرض مطلقاً بل لكونه كمالاً ونفسه كاملة فيّاضة لذلك الكمال على نحو ما قالوه فى صدور العالم عن الله فان ذلك شيء قد لا يتحقق مهما رغبنا فى السعادة وحثثنا عليها فان غالب الناس ان لم يرغّبوا لا يُقبلوا كما أنهم اذا لم يرهبوا لا يدبرون ولذا جاءت الشريعة المطهرة مشتملة على قرن المأمور به من الاعمال بالمرغّبات وقرن المنهى عنه بالمرهّبات (ومن أصدق من الله حديثاً) ومهما بلغ الانسان فى رقى الكمال فانه بشر يألم ويحزن ويفرح ويهش للثناء الصادق ويلذ بالمأكل والمشرب والاستمتاع

الى غير ذلك مما يعد انكاره مكابرة أما القول بأنه يكون شبيهاً بالاله فى كل ذلك فشطط ظاهر واذا تساهلنا فيه معهم بعض التساهل (من غير اذعان لرأيهم فى ايجاد الله العالم) نقول انها بهذا المعنى لا تكون الاّ للانبياء عليهم الصلاة والسلام . هذا وقد ذهب كثير من المحدثين مذاهب شتى فى حقيقتها وغالبها راجع الى أمور تخيلية أو حيوانية لا تصلح أن تكون من الخصائص الانسانية ولهذا كانت خالية من الصواب فلا داعى لايرادها وبالله التوفيق

رجوع الشريعة الاسلامية المطهرة الى مكارم الأخلاق

أبنا غير مرة فيما سبق أن سعادة الافراد ورقىّ الأمم انما هو منوط بعلومها الحقة والعمل على مقتضاها وظاهر أن العمل لا يعظم شأنه وينتج السعادة العامة والقوة الشاملة الا اذا اتحدت فيه الوجهة واجتمعت عليه الأيدى وحفظت حقوق الافراد وعرف كل واحد ما هو منوط به بالنسبة لأبناء أمته من واجب الاخاء والمعاضدة والصدق فى المعاملة الى غير ذلك من الأعمال والأخلاق الفاضلة المؤدية الى التحاب وحفظ سياج المجتمع الانسانى

واذا نظرت الى هذه الشريعة المطهرة وجدت أنها عُنيت بالأعمال وأجادت أحكامها وحضت على عمل كل ما فيه منفعة لبنى الانسان فى حياتهم الفانية والباقية ورغّبت فى الأخلاق الفاضلة المؤدية الى التحاب والتعاون على جلب الفوائد ودفع المضارّ وجاءت بالعقائد السهلة البسيطة التي لا تحتاج فى الاذعان بها الى كثير من الأدلة والبراهين العويصة كما

درج عليه الفلاسفة في أقوالهم بل نبهت عليها بالأدلة المحسوسة المألوفة للفطر الانسانية . ولم تتوسع فيها توسع الحكماء الباحثين عن أعيان الموجودات وأحوالها ذلك البحث الذى هو مزلقة للعقول وتضييع للأزمان على قلة الجدوى بل ذكرت من تلك العقائد ما جاءت به الرسل عليهم الصلاة والسلام مما يتوقف عليه نظام المجتمع الانسانى والمثابرة على الأعمال النافعة مع الحض على الالفة واتحاد الوجهة وذلك كالاعتقاد باله واحد ثابتة له صفات الكمال منتفية عنه النقائص له الرقابة والهيمنة على ما فى الضمائر وخفايا الأعمال والاعتقاد باليوم الآخر واثابة المحسن بجزيل الثواب والنعيم المقيم والمسئ بأليم العقاب وبينت ذلك كله بضرب الأمثال المحسوسة والأدلة المألوفة فى آى القرآن الكريم والحديث الشريف كما أسلفناه في الجزء الأول من كتابنا هذا

اذا قرأت الكتاب الشريف ونظرت في السنة وجدت حكماً عالية ومعانى رائعة لا تسمو اليها الأفكار البشرية ولا تطاولها المعلومات الانسانية ولا ينكر هذا الا مكابر

الشريعة مشتملة على تلك العقائد القليلة البسيطة وعلى أحكام الأعمال الحسنة مشفوعة بالمواعظ والعبر . وتلك الأعمال على كثرتها وعدم دخولها تحت الحصر ليست الا نتائج أخلاق فاضلة

لأنها (اما عبادات) ومرجعها النظافة وتهذيب الأخلاق واظهار الخضوع والعبودية والشكر لذلك الخالق العليم القدير القاهر فوق عباده وهذا يدعو الى امتثال أوامره واجتناب نواهيه . قال تعالى (ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر والبغى)

ويترتب على ذلك كف النفس عما ليس من حقها (واما زواج وما يتعلق به من طلاق ونفقة وحضانة) وظاهر أن منح الزوجة الصداق يُدخل على قلبها الفرح والسرور فان اعطاء الغير ما تألفه نفسه اذا كان ممدوحاً يعد من قبيل المودة التي ستعقب حسن العشرة ومن ذلك حسن معاملتها على قدر الاستطاعة في النفقة بأنواعها من مأكل وملبس ومسكن وعدم مضارتها وتكليفها بما لا يحرجها مما لم يفرضه عليها الشارع والزامها باطاعة بعلها فيما تنبغي فيه الاطاعة وابعاث حَكم من أهله وحكم من أهلها عند الشجار والخلاف كي يصلحا بينهما ان كانت الفائدة في ذلك والا افترقا وألزم الزوج بالانفاق عليها جزاء احتباسها على ذمته مدة العدة. قال تعالى (وان يتفرقا يغن الله كلاً من سعته)

واذا كان لهما ولد لا يقوى على قضاء حاجيّاته بأن كان صغيراً لا يمكنه أن يتناول غذاءه بنفسه من المنزل ولا يقوم بأمر شرابه ولبسه ملابسه وقضاء حاجته تُرك لأمه ما دامت غير متزوجة بأجنبي منه لأنها أشفق عليه وأقدر على قضاء لوازمه من أبيه القائم بأعماله الخارجة عن المنزل فان لم تكن قادرة على حفظه والقيام بمهامه قامت أمها مقامها فان لم تتوفر فيها شروط المحافظة عليه قامت أم أبيه مقامها كل هذا مع قيام أبيه بالانفاق عليه. وجميع ذلك يرجع الى خلق المرحمة والمحافظة على الغير ومثل هذا الوصاية على الصغير والوكالة عن الكبير وما فيهما من الأحكام فانها راجعة الى خلق الأَمانة والمرحمة وكذلك أحكام الحجر واللقيط والمفقود ومثل ذا أحكام الانفاق على القريب المحرم وأحكام المواريث فانهما مبنيان على ايثار ذوى القربى ومن ثم روعى فيهما قوة القرابة

ودرجتها والاعتداد بمن يقوم مقام الميت من أسرته فى اقامة دعائم حياتها وكل ذلك راجع الى خلق المروءة والانصاف والرحمة

وأحكام الوصية والهبة مبنية على البذل والتوادّ وهما من أعظم مقوّمات خلق المحبة التى هى من أقوى دعائم نظام الاجتماع

(واما عقوبات) وجميع أحكامها راجعة الى ردع ذوى الأخلاق الفاسدة عما ارتكبوه حتى ينهجوا فى سيرهم على مقتضى الأخلاق الفاضلة فان كثيراً من بنى الانسان ليسوا بالمهذّبين الذين يعتنقون الفضيلة حباً فيها فأمثالهم لا يحسن معهم الوعظ والحث على ترك الرذائل والتخلق بفاضل الخلال بل لا يجدى فيهم الاّ الاخافة بالحبس والضرب والتعزير والغرم . ومن جنى منهم جناية كبرى تُشعر بأن وجوده في المجتمع مؤد الى الاخلال بنظامه فهو بمنزلة العضو الفاسد الذى اذا أبقى عليه يطّرق الفساد الى غيره من الاعضاء كان الأنسب بمصلحة الأمة اعدامه واراحة المجتمع منه

وما يُرى فى بعض أحكامها من الشدة كقطع يد السارق ورجم الزانى المحصن انما هو لعظم الجريمة ومعلوم أن شدة العقوبة أدخل فى الرجوع عنها وأشد زجراً للغير عن ارتكاب مثلها على أن الشريعة قد راعت فى أمثال هذه العقوبات شروطاً يقل وجودها في كثير من تلك الجرائم

(واما معاملات) ومن يتأمل فى أحكام ما فيها من بيع واجارة وشفعة ومساقات ومزارعة وكفالة وحوالة وقرض ورهن الخ يجد أنها راجعة الى الاعتداد بالتعاقد المفيد أحكام كل هذه الأشياء ألا يرى أنه اذا أهمل ولم يعوّل عليه انتقض الأمر وكان كل من البائع والمشترى والمؤجر

والمستأجر والكفيل والدائن والمساقى والمزارع ورب الأرض فى حل مما قال فينقض اليوم ما أبرمه بالأمس وذلك مناف لخلق الوفاء والاعتداد بالقول ويترتب عليه الخصام والشجار وما نراه من الرد بالعيب فى البيع والاجارة راجع الى خلق الانصاف والصدق فى المعاملة وعدم ائثار النفس والتوقى من الاضرار بالغير. وما يرى فى أحكام القرض من تحريم الربا عائد الى خلق الرحمة والسهولة فى المعاملة الجالبة للمحبة العامة بين أفراد الأمة وهى من أعظم الأخلاق التى تنمى الوئام والوفاق فلا يعدل عنه لفائدة جزئية شخصية قد تستعقب عداء وسخطاً

وبالجملة لو راجعنا أحكام هذه الأشياء مع زائد الامعان لوضح لنا انها راجعة الى أنواع مكارم الأخلاق التى هى أهم شىء فى نظام الأمم واتحاد وجهتها

انّ ما نراه فى الشريعة من أحكام معاملة أهل الذمة وأن لهم ما لنا وعليهم ما علينا الا فى بعض أحكام قليلة مبنى على خلق الانصاف مع الاحتفاظ بأن لنا بعض الخصائص فان أبناء الأمة اذا لم يكن لهم بعض المِيَز بل كانوا لدى أمتهم كغيرهم الذى ليس منها فى جميع الأحكام والمزايا ولّد ذلك فيهم عدم الاحتفاظ بها والقيام برقيها واعلاء شأنها — ولا يؤثر المساواة فى كل الأحوال على المِيزة الا بعض المهذبين وهم قليلو العدد نادرو الوجود لا تبنى على أحوالهم الشرائع الاجتماعية

قد تبين لك مما قلناه أن هذا خلق حسن يترتب عليه قيام الأمة ونهوضها بدون اضرار كلى بمن ليس منها وانتظم فى سلك مجتمعها

ان أحكام المعارك مؤسسة على احراز الغالب نتائج عمله مع شىء من

الرفق اذ حرمانه منها مؤذن بهبوط الهمة وانحلال العزائم على الأعمال وانقباض الأيدى وضعف الآمال ولا يرضاه الا من اجتُثّ منه خلق الميزة وترك نتائج أعماله فرضى بائثار منفعة خصيمه على منفعته ومثل هذا لا يراعى فى الأحكام الاجتماعية كما قدمناه — هذا قانون كلى لو خرجنا عامة أحكام الشريعة على مقتضاه لاستغرق زمناً طويلاً وملأ مجلدات كثيرة . فعليك عرض ما تريد من الأحكام على ما رسمناه من البيان الوجيز تتضح لك صحة ما أسلفناه

اذا عقلت هذا علمت مغزى قوله عليه الصلاة والسلام (بُعثت لأتمم مكارم الاخلاق)

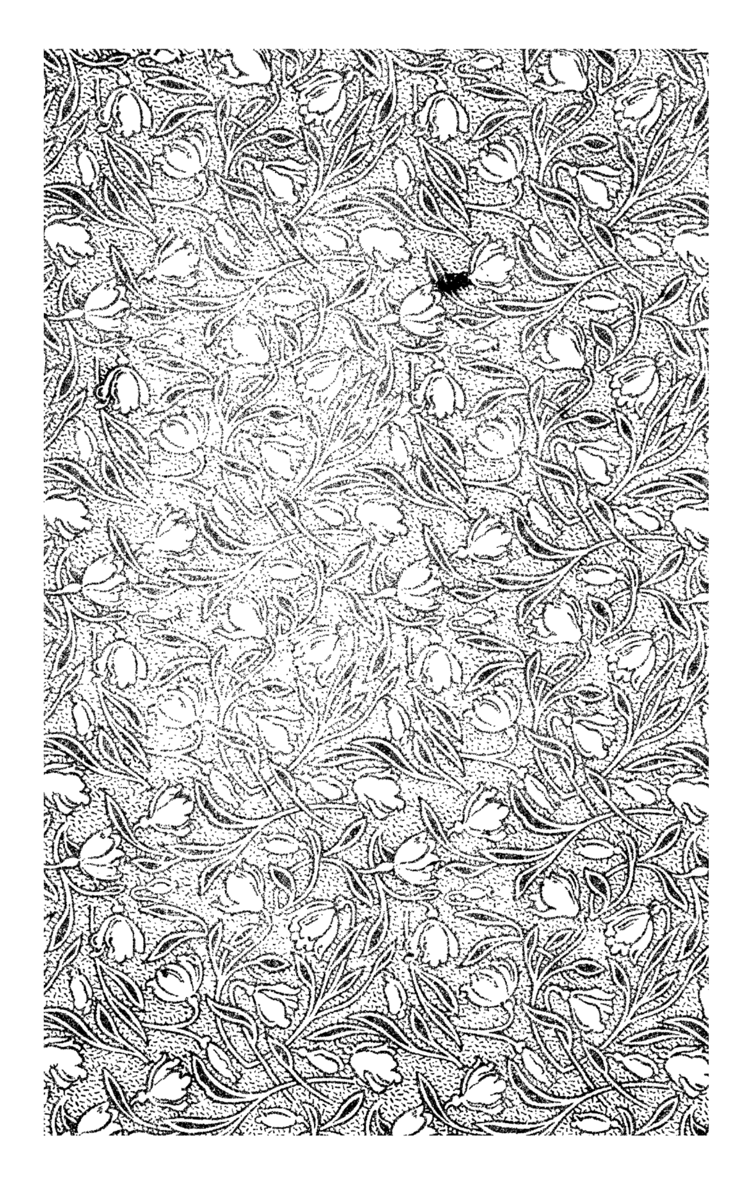
ألهمّ وفقنا للاهتداء بهديه والعمل على سنته انك سميع مجيب

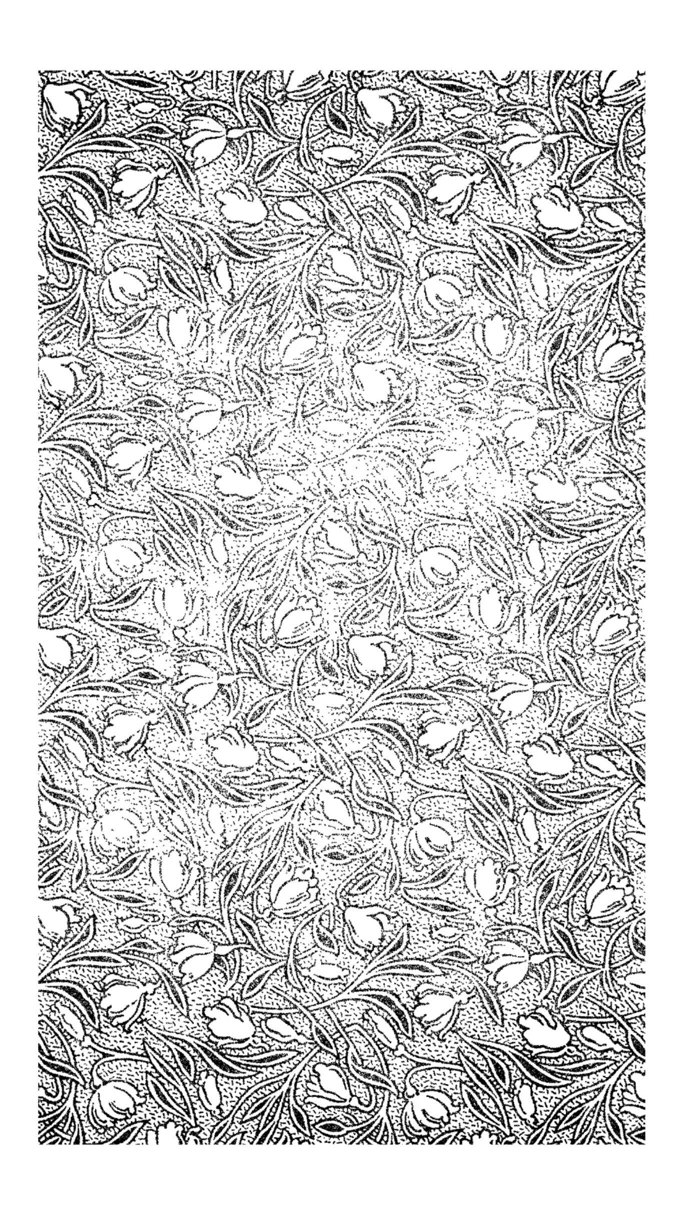
يا واسع الفضل يا جزيل العطاء اجعل ما سطرته خالصاً لوجهك الكريم نافعاً لقارئه عاملاً بما فيه ؛ أهدنا يا واسع الفضل الى ما فيه نجاحنا فى الدنيا والآخرة انك على كل شىء قدير وبالاجابة جدير وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

وقد فرغ من جمعه الفقير الى رحمة ربه سلطان بن محمد بن على المدرس بمدرسة المعلمين الناصرية فى اليوم السابع من شهر شوال سنة تسع وعشرين وثلاثمائة والف هجرية

﴿ فهرست الخطأ والصواب لكتاب الأخلاق الاسلامية ﴾

صفحة	سطر	خطأ	صواب
١	١٠	يبدل سيئاتهم	يبدل الله سيئاتهم
٥	٣	الاربع	الاربعة
٣٠	٤	وقدمنا	وقد قدمنا
٣٠	٥	التفريط المذكور	التفريط فيه
٣٨	٦	يحسده	بحسده
٦٦	١٥	أوت	آوت
٧٢	٥	ذووا	ذوو
٧٣	٩	ذووا	ذوو
٨٢	١٩	النفسية الثلاث	النفسية الثلاثة
٨٤	١١	القوى الثلاث	القوى الثلاثة






Bibliotheca Alexandrina
0411018